

رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ وَزُهَّةُ الْفُضَلَاءِ

للحافظ أبي جاتم محمد بن حبان التميمي البُستي

المتوفى سنة ٣٥٤ هـ — رحمه الله تعالى —

رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ وَنُزْهَةُ الْفُضَلَاءِ

للحافظ أبي جاتم محمد بن حَبَّان التَّمِيمِي البُسْتِي

المتوفى سنة ٣٥٤ هـ - رحمه الله تعالى -



سند الكتاب إلى مؤلفه رَحِمَهُ اللهُ

أخبرنا الشيخ الإمام الحافظ أبو مُحَمَّد عبد القادر بن عبد الله الرَّهَـاوي -أدام الله تأييده، وأجزل من كل خير مزيده- في شهور سنة اثنتين وستمائة.
قال: حدثنا الأمير القاضي الإمام، عمدة الدين، مُعين الإسلام، ناصر السنة، أبو عبد الله مُحَمَّد بن نصر بن الحسين بن مُحَمَّد بن سعيد بن مُحَمَّد بن سعيد بن مُحَمَّد البُوسَنجي -من لفظه- بـ «بُوسَنج» في شهور سنة اثنتين وستين وخمسمائة.

قال: أخبرنا الشيخ الإمام العالم الزاهد عَفيف الدين أبو جعفر حنبلُ بن علي ابن الحسين البخاري الصوفي السُّنِّي رَحِمَهُ اللهُ.
قال: أخبرنا الشيخ أبو مُحَمَّد أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد التونبي سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

قال: أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن مُحَمَّد بن عبد الله الشُّروطي.
قال: أخبرنا أبو حاتم مُحَمَّد بن حَبَّان البُسْتِي رَحِمَهُ اللهُ قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الإمام ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ

الحمد لله المتفرد بوحداية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية، القائم على نفوس العالم بآجالها، والعالم بتقلبها وأحوالها، المانّ عليهم بتواتر آلائه، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا مُعين ولا مشير، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير، فمضت فيهم بقدرته مشيئته، ونفذت فيهم بعزته إرادته، فآلهمهم حسن الإطلاق، وركّب فيهم تشعّب الأخلاق، فهم على طبقات أقدارهم يمشون، وعلى تشعب أخلاقهم يدورون، وفيما قضى وقدر عليهم يهيمنون ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وأشهد أن لا إله إلا الله فاطر السموات العلا، ومنشئ الأرضين والثرى، لا مُعقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعْلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وأشهد أن مُحَمَّدًا عبده المُجتبى، ورسوله المرتضى، بعثه بالنور المضي، والأمر المرضي، على حين فترة من الرسل، ودروسٍ من السُّبُل، فدمغ به الطغيان، وأكمل به الإيمان، وأظهره على كل الأديان، وقمع به أهل الأوثان، فصلى الله عليه وسلم ما دار في السماء فلك، وما سبح في الملكوت ملك، وعلى آله أجمعين! أما بعد:

فإن الزمان قد تبين للعاقل تغيره، ولأح للبيب تبدّله، حيث يُسّ ضرعه بعد الغزارة، وذبل فرعه بعد النضارة، ونحلّ عوده بعد الرطوبة، وبشع مذاقه بعد العذوبة، فنبغ فيه أقوام يدعون التمكن من العقل باستعمال ضد ما يوجب العقل من شهوات صدورهم، وترك ما يوجب نفس العقل بهجسات قلوبهم، جعلوا أساس العقل الذي يعقدون عليه عند المعضلات: النفاق والمداهنة، وفروعه

عند ورود النائبات: حُسْنُ اللباس والفصاحة، وزعموا أن مَنْ أحكم هذه الأشياء الأربع فهو العاقل، الذي يجب الاقتداء به، ومن تخلف عن إحكامها فهو الأنوك الذي يجب الازورار عنه.

فلما رأيت الرّعاع من العالم يغترون بأفعالهم، والهمج من الناس يقتدون بأمثالهم؛ دعاني ذلك إلى تصنيف كتاب خفيف، يشتمل متضمنه على معنى لطيف، ممّا يحتاج إليه العقلاء في أيامهم، من معرفة الأحوال في أوقاتهم، ليكون كالذكرى لذوي الحِجَا عند حضرَتهم، وكالمعين لأولي النهى عند غيبتهم، يفوق العالم به أقرانه، والحافظ له أترابه، يكون النديم الصادق للعاقل في الخلوات، والمؤنس الحافظ له في الفلوات، إن خصّ به من يحب من إخوانه، لم يفتقده من ديوانه، وإن استبدّ به دون أوليائه، فاق به على نظرائه.

أُبين فيه ما يحسُن للعاقل استعماله من الخصال المحمودّة، ويقبح به إتيانه من الخلال المذمومة، مع القصد في لزوم الاختصار، وترك الإمعان في الإكثار، ليخفّ على حامله، وتعيّه أذن مستمعه؛ لأن فنون الأخبار وأنواع الأشعار، إذا استقصى المجتهد في إطالَتها، فليس يرجو النهاية إلى غايتها، ومن لم يرج التمكن من الكمال في الإكثار، كان حقيقاً أن يقنع بالاختصار.

والله الموفق للسداد، والهادي إلى الرشاد، وإياه أسأل إصلاح الأسرار، وترك المعاقبة على الأوزار، إنه جواد كريم، رءوف رحيم.

الحث على لزوم العقل وصفة العاقل اللبيب

حدثنا مُحَمَّد بن يوسف بن مطر، حدثنا عبد الله بن أحمد بن شُبُويه، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا فضيل بن عياض، عن مُحَمَّد بن ثور، عن معمر، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَيَكْرَهُ سُفْسَافَهَا».

قال أبو حاتم: لست أحفظ عن النَّبِيِّ ﷺ خبرًا صحيحًا في العقل؛ لأنَّ أبا نَبَّانَ بنَ أبي عِيَّاشٍ، وسَلَمَةَ بنَ وَرْدَانَ، وعُمَيْرَ بنَ عَمْرَانَ، وعلي بنَ زَيْدٍ، والحسن بنَ دينارٍ، وعَبَّادَ بنَ كَثِيرٍ، وميسرة بن عبد ربه، وداود بن المحبر، ومنصور بن صقر، وذويهم، ليسوا ممن أحتجُّ بأخبارهم، فأخرج ما عندهم من الأحاديث في العقل.

وإنَّ مَحَبَّةَ المرءِ المكارمِ من الأخلاق، وكراهته سَفْسَافَهَا هو نفس العقل. فالعقل به يكون الحظ، ويؤنس الغربه، وينفي الفاقة، ولا مال أفضل منه، ولا يتم دين أحد حتَّى يتم عقله.

والعقل: اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب، والعلم باجتنب الخطأ، فإذا كان المرء في أول درجته يسمى أديبًا، ثُمَّ أريبًا، ثُمَّ لبيبًا، ثُمَّ عاقلًا، كما أنَّ الرجل إذا دخل في أول حد الدهاء قيل له: شيطان، فإذا عتا في الطغيان، قيل: ماردٌ، فإذا زاد على ذلك قيل: عبقرى، فإذا جمع إلى خُبثه شدة شرٍّ، قيل: عفريت، وكذلك الجاهل يقال له في أول درجته: المائق، ثُمَّ الرقيع، ثُمَّ الأنوك، ثُمَّ الأحمق.

وأفضل مواهب الله لعباده: العقل.

ولقد أحسن الذي يقول:

وَأَفْضَلُ قَسَمِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ	فَلَيْسَ مِنَ الْخَيْرَاتِ شَيْءٌ يُقَارِبُهُ
إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ	فَقَدْ كَمَلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَا رَبُّهُ
يَعِيشُ الْفَتَى فِي النَّاسِ بِالْعَقْلِ إِنَّهُ	عَلَى الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهُ
يَزِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ جَوْدَةُ عَقْلِهِ	وَإِنْ كَانَ مُحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَايِبُهُ

أخبرنا مُحَمَّد بن سليمان بن فارس، حدثنا أحمد بن سيَّار، حدثنا حبيب الجلاب قال: قيل لابن المبارك: «ما خير ما أُعطي الرجل؟ قال: غريزة عقل،

قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشير، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل».

أخبرنا مُحَمَّد بن داود الرازي، حدثنا مُحَمَّد بن حُميد، حدثنا ابن المبارك قال: «سئل عقيل: ما أفضل ما أعطي العبد؟ قال: غريزة عقل، قال: فإن لم يكن؟ قال: فأدب حسن، قال: فإن لم يكن؟ قال: فأخ شقيق يستشير، قال: فإن لم يكن؟ قال: فطول صمت، قال: فإن لم يكن؟ قال: فموت عاجل».

قال أبو حاتم: العقل نوعان: مطبوعٌ، ومسموعٌ:

فالمطبوع منهما: كالأرض، والمسموع: كالبذر والماء.

ولا سبيل للعقل المطبوع أن يخلص له عمل محصول دون أن يرد عليه العقل المسموع، فينبهه من رقدته، ويطلقه من مكانه، كما يستخرج البذر والماء ما في قعر الأرض من كثرة الرِّيع.

فالعقل الطبيعي من باطن الإنسان بموضع عروق الشجرة من الأرض، والعقل المسموع من ظاهره كتدلي ثمرة الشجرة من فروعها.

أنشدني مُحَمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

رَأَيْتُ الْعَقْلَ نَوْعَيْنِ فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ

وَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعٌ

كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعٌ

أخبرنا القطان بـ «الرِّقَّة» حدثنا موسى بن مروان، حدثنا بقية، عن عبد الله بن حسان، حدثني ابن عامر، قال: قلت لعطاء بن أبي رباح: «يا أبا مُحَمَّد، ما أفضل ما أعطي العبد؟ قال: العقل عن الله».

أنشدني أحمد بن محمد بن عبد الله الصنعاني لعبد الله بن عكراش:

يَزِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةَ عَقْلِهِ وَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهُ

يَشِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ خِفَّةُ عَقْلِهِ وَإِنْ كَرُمَتْ أَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهُ

قال أبو حاتم: فالواجب على العاقل: أن يكون بما أحيا عقله من الحكمة أكلف منه بما أحيا جسده من القوت؛ لأن قوت الأجسام: الطعام، وقوت العقول: الحكم، فكما أن الأجساد تموت عند فقد الطعام والشراب، كذلك العقول إذا فقدت قوتها من الحكمة ماتت.

والتقلب في الأمصار والاعتبار بخلق الله مما يزيد المرء عقلاً، وإن عدم المال في تقلبه.

أنشدني عبد الرحمن بن محمد المقاتلي:

إِنَّ ذَا الْعَقْلِ يَرَى غُنْمًا لَهُ عَدَمَ الْمَالِ إِذَا مَا الْعَقْلُ صَحَّ
مَا عَلَى الْمَرْءِ بَعْدُ سُبَّةٌ إِنْ وَفَا الْعَقْلُ وَإِنْ دِينَ صَلَحَ

أخبرنا محمد بن المسيب، حدثنا أحمد بن إسماعيل المدني قال: سمعت حاتم بن إسماعيل يقول: «ما استودع الله عقلاً عبداً إلا استنقذه به يوماً ما».

قال أبو حاتم: العقل دواء القلوب، ومطية المجتهدين، وبذر حراثة الآخرة، وتاج المؤمن في الدنيا، وعُدَّتْه فِي وقوع النوائب، ومن عُدَمَ العقل لم يزد السُلطان عزاً، ولا المال يرفعه قدراً، ولا عقل لمن أغفله عن أخراه ما يجد من لذة دنياه، فكما أن أشد الرِّمَانَةِ الجهل، كذلك أشد الفاقة عدم العقل.

والعقل والهوى مُتَعَادِيَانِ، فالواجب على المرء: أن يكون لرأيه مُسْعِفاً ولِهَوَاهُ مُسَوِّفاً؛ فإذا اشتبه عليه أمران اجتنب أقربهما من هواه؛ لأن في مُجَانِبَتِهِ الهوى إصلاح السرائر، وبالعقل تصلح الضمائر.

أخبرنا عمرو بن محمد الأنصاري، ثنا محمد بن عبيد الله الجشمي حدثنا المدائني، قال: قال معاوية بن أبي سفيان لرجل من العرب عُمَرُ دَهْرًا: «أخبرني بأحسن شيء رأيته؟ قال: عقل طَلِبَ به مروءة مع تقوى الله وطلب الآخرة».

وَأَشَدُّنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ سَلِيمَانَ الْأَبْرَشَ:

إِذَا تَمَّ عَقْلُ الْمَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ وَتَمَّتْ أَيْدِيهِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلٌ تَبَيَّنَ نَقْصُهُ وَلَوْ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرًا عَطَاؤُهُ

أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا عمران بن خالد الخزاعي قال: سمعت الحسن يقول: «ما تَمَّ دينُ عبدٍ قط حتَّى يتمَّ عقلُهُ». قال أبو حاتم: أفضل ذوي العقول منزلة: أدومهم لنفسه مُحاسبة، وأقلهم عنها فترة.

فبالعقل تعمر القلوب، كما أن بالعلم تستخرج الأحلام، وعمود السعادة العقل، ورأس العقل الاختيار، ولو صور العقل صورةً لأظلمت معه الشمس لنوره، فقرب العاقل مرجو خيره على كل حال، كما أن قرب الجاهل مخوف شره على كل حال.

ولا يجب للعاقل أن يغم؛ لأن الغم لا ينفع، وكثرته تُزري بالعقل، ولا أن يحزن؛ لأن الحزن لا يردُّ المرزأة، ودوامه ينقص العقل.

والعاقل يحسم الداء قبل أن يبتلى به، ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه، فإذا وقع فيه رضي وصبر، والعاقل لا يخيف أحداً أبداً ما استطاع، ولا يقيم على خوف، وهو يجد منه مذهباً، وإذا خاف على نفسه الهوان طابت نفسه عما يملك من الطارف والتالد، مع لزوم العفاف؛ إذ هو قُطب شُعَبِ العقل.

أَشَدُّنِي الْمُتَصَرِّبُ بْنُ بِلَالٍ بْنِ الْمُتَصَرِّبِ الْأَنْصَارِيِّ:

أَوَلَسْتُ تَأْمُرُ بِالْعَفَافِ وَبِالتَّقَى وَإِلَيْكَ أَلْ الْأَمْرِ حِينَ يَأْتِي؟
فَإِنْ اسْتَطَعْتَ فَخُذْ بِعَقْلِكَ فَضْلَهُ إِنَّ الْعُقُولَ يُرَى لَهَا تَفْضِيلُ

أخبرنا الحسين بن إسحاق الأصبهاني بـ «الكرج» حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِي الطاحي، حدثنا عمرو بن عثمان الخزاز الحرائي، حدثنا مفضل بن صالح قال

علي: «لَمَّا أَهْبَطَ اللَّهُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ أَتَاهُ جَبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَخِيرَكَ فِي ثَلَاثَةِ: فَاخْتَرِ وَاحِدَةً، وَدَعِ اثْنَتَيْنِ، فَقَالَ آدَمُ: وَمَا الثَّلَاثُ؟ قَالَ: الْحَيَاءُ، وَالدِّينُ، وَالْعَقْلُ. فَقَالَ آدَمُ: فَإِنِّي قَدْ اخْتَرْتُ الْعَقْلَ. قَالَ: فَقَالَ جَبْرِيلُ لِلْحَيَاءِ وَالِدِّينِ: انصَرَفَا وَدَعَاةَ. فَقَالَا: إِنَّا أُمِرْنَا أَنْ نَكُونَ مَعَ الْعَقْلِ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ عَرَجَ جَبْرِيلُ، وَقَالَ: شَأْنُكُمْ».

قال أبو حاتم: من حَسَنَ عقله، وقبح وجهه؛ فقد أَفْقَدَ فضائل نفسه قبائح وجهه، ومن حسن وجهه، وقل عقله؛ فقد أَذْهَبَ مَحَاسِنَ وجهه نقائص نفسه، ولا يجب للعاقل أن يغتم إذا كان معدماً؛ لأن العاقل المقل قد يُرْجَى له الغنى، ولا يوثق للجاهل المكثربقاء ماله، ومال العاقل عقله، وما قدم من صالح عمله. وآفة العقل الصِّلَفُ والبلاء المُردِّي، والرخاء المفرط؛ لأن البلى إذا تواترت عليه أَهْلَكَ عقله، والرخاء إذا تواتر عليه أَبْطَرَهُ، والعدو العاقل خير للمرء من الصديق الجاهل.

أنشدني علي بن مُحَمَّدٍ البَسَّامِي:

عَدُوُّكَ ذُو الْعَقْلِ أَبْقَى عَلَيْكَ مِنْ الْجَاهِلِ الْوَامِقِ الْأَحْمَقِ
وَذُو الْعَقْلِ يَأْتِي جَمِيلَ الْأُمُورِ وَيَقْصِدُ لِلْأَرْشَادِ الْأَرْفَقِ

أخبرنا مُحَمَّدُ بن الحسين بن قتيبة بـ «عسقلان» حدثنا ابن أبي السَّري، حدثنا داود بن الجراح وضمرة بن ربيعة عن خلود بن دعلج قال: سمعت معاوية ابن قرة يقول: «إِنَّ الْقَوْمَ لِيُحْجُونَ وَيَعْتَمِرُونَ، وَيَجَاهِدُونَ، وَيَصْلُونَ، وَيَصُومُونَ، وَمَا يُعْطُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَلَى قَدَرِ عَقُولِهِمْ».

سمعت مُحَمَّدُ بن محمود بن عدي النسائي يقول: سمعت علي بن خشرم يقول: سمعت حفص بن حميد الأَكَّافِي يقول: «العاقل لَا يَغْبِنُ، وَالْوَرَعُ لَا يَغْبِنُ».

قال أبو حاتم: هذه لفظة جامعة، تشتمل على معاني شتى، فكما لَا ينفع الاجتهاد بغير توفيق، وَلَا الجمال بغير حلاوة، وَلَا السرور بغير أمن، كذلك لَا ينفع العقل بغير ورع، وَلَا الحفظ بغير عمل، وكما أَنَّ السرور تبع للأمن، والقراءة تبع

للمودة، كذلك المروءات كلها تبع للعقل.

وعقول كل قوم على قدر زمانهم، فالعاقل يختار من العمر أحسنه - وإن قل - فإنه خير من الحياة النكدية - وإن طالت - والعقل الموعى - غير المنتفع به - كالأرض الطيبة الخراب.

والعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يُسأل، ولا يكثر التماري إلا عند القبول، ولا يسرع الجواب إلا عند الثبوت.

والعاقل لا يستحقر أحدًا؛ لأن من استحقر السلطان أفسد دنياءه، ومن استحقر الأتقياء أهلك دينه، ومن استحقر الإخوان أفنى مروءته، ومن استحقر العامة أذهب صيانتَه.

والعاقل لا يخفى عليه عيب نفسه؛ لأن من خفي عليه عيب نفسه خفيت عليه محاسن غيره، وإن من أشد العقوبة للمرء أن يخفى عليه عيبه؛ لأنه ليس بمقلع عن عيبه من لم يعرفه، وليس بنائل محاسن الناس من لم يعرفها، وما أنفع التجارب للمبتدئ.

أنشدني المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصاري:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعُقْلَ زَيْنٌ لِأَهْلِهِ وَأَنَّ كَمَالَ الْعُقْلِ طُولُ التَّجَارِبِ
وَقَدْ وَعَظَ الْمَاضِي مِنَ الدَّهْرِ ذَا النُّهْيِ وَيَزْدَادُ فِي أَيَّامِهِ بِالتَّجَارِبِ

أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الحكم بن عبد الله قال: «كانت العرب تقول: العقل: التجارب، والحزم: سوء الظن».

قال أبو حاتم: لا يكون المرء بالمصيب في الأشياء حتى تكون له خبرة بالتجارب.

والعاقل يكون حسن المآخذ في صغره، صحيح الاعتبار في صباه، حسن العفة عند إدراكه، رضي الشمائل في شبابه، ذا الرأي والحزم في كهولته، يضع

نفسه دون غايته برتوة، ثمَّ يجعل لنفسه غاية يقف عندها؛ لأن من جاوز الغاية في كل شيء صار إلى النقص.

ولا ينفع العقل إلا بالاستعمال، كما لا تنفع الأعوان إلا عند الفرصة، ولا ينفع الرأي إلا بالانتخال، كما لا تتم الفرصة إلا بحضور الأعوان. ومن لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه؛ أخاف أن يكون حتفه في أقرب الأشياء إليه.

ورأس العقل: المعرفة بما يُمكن كونه قبل أن يكون.

والواجب على العاقل أن يجتنب أشياء ثلاثة، فإنَّها أسرع في إفساد العقل من النار في ييس العوسج: الاستغراق في الضحك، وكثرة التمني، وسوء الثبوت.

لأن العاقل لا يتكلف ما لا يطيق، ولا يسعى إلا لما يدرك، ولا يعدُّ إلا بما يقدر عليه، ولا ينفق إلا بقدر ما يستفيد، ولا يطلب من الجزاء إلا بقدر ما عنده من الغناء، ولا يفرح بما نال إلا بما أجدى عليه نفعه منه.

والعاقل يبذل لصديقه نفسه وماله، ولمعرفته رفته ومحضره، ولعدوه عدله وبره، وللعامّة بشره وتحيته، ولا يستعين إلا بمن يحب أن يُظفره بحاجته، ولا يحدث إلا من يرى حديثه مغنماً، إلا أن يغلبه الاضطراب إليه، ولا يدّعي ما يحسن من العلم؛ لأن فضائل الرجال ليست ما ادّعوها ولكن ما نسبها الناس إليهم، ولا يبالي ما فاته من حطام الدنيا، مع ما رُزق من الحظ في العقل.

أنشدني عبد الرحمن بن مُحمّد المقاتلي:

فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ وَلَمْ يَكْ ذَا غِنَى يَكُونُ كَذِي رَجُلٍ وَلَيْسَتْ لَهُ نَعْلُ
وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَلَمْ يَكْ ذَا حِجَا يَكُونُ كَذِي نَعْلٍ وَلَيْسَتْ لَهُ رِجْلُ

قال أبو حاتم: كفى بالعاقل فضلاً، وإن عديم المال، بأن تُصرف مساوي أعماله إلى المحاسن، فتجعل البلادة منه حلماً، والمكر عقلاً، والهذر بلاغة، والجدّة ذكاء، والعِي صمتاً، والعقوبة تأديباً، والجرأة عزماً، والجبن تأنيباً،

والإسراف جودًا، والإمساك تقديرًا.

فلا تكاد ترى عاقلًا إلا موقرًا للرؤساء، ناصحًا للأقران، موافيًا للإخوان، متحرزًا من الأعداء، غير حاسد للأصحاب، ولا مُخادع للأحباب، ولا يتحرش بالأشرار، ولا يبخل في الغنى، ولا يشره في الفاقة، ولا ينقاد للهوى، ولا يجمع في الغضب، ولا يَمرح في الولاية، ولا يتمنى ما لا يجد، ولا يكتنز إذا وجد، ولا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء، ولا يدلي بحجة حتَّى يرى قاضيًا، ولا يشكو الوجد إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يمدح أحدًا إلا بما فيه؛ لأن من مدح رجلًا بما ليس فيه فقد بالغ في هجائه، ومن قبل المدح بما لم يفعله فقد استهدف للسخرية.

والعاقل يُكرِّم على غير مال كالأسد يُهاب، وإن كان رابضًا.
كلام العاقل يعتدل كاعتدال جسد الصحيح، وكلام الجاهل يتناقض كاختلاط جسد المريض.
وكلام العاقل - وإن كان نزرًا - حُظوة عظيمة، كما أن مقارفة المائم - وإن كان نزرًا - مصيبة جلية.

ومن العقل: التثبت في كل عمل قبل الدخول فيه.
وأفة العقل: العُجب، وعلى العاقل أن يوطِّن نفسه على الصبر على جار السوء، وعشيرة السوء، وجليس السوء، فإن ذلك ممَّا لا يخطئه على ممر الأيام.
ولا يجب للعاقل أن يُحب أن يسمَّى به؛ لأن من عُرف بالدهاء حذر.
ومن عقل العاقل: دفن عقله ما استطاع، لأن البذر وإن خفي في الأرض أيامًا؛ فإنه لا بد ظاهر في أوانه.

وكذلك العاقل لا يخفي عقله، وإن أخفى ذلك جهده.
وأول تمكن المرء من مكارم الأخلاق هو: لزوم العقل.
أنشدني علي بن مُحمَّد البسامي:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَبْوَابٌ مُصَنَّفَةٌ فَالْعَقْلُ أَوَّلُهَا وَالصَّمْتُ ثَانِيهَا
وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا وَالْجُودُ خَامِسُهَا وَالصَّدْقُ سَادِيهَا
وَالصَّبْرُ سَابِعُهَا وَالشُّكْرُ ثَامِنُهَا وَاللِّينُ تَاسِعُهَا وَالْبِرُّ عَاشِيهَا

أخبرنا عمر بن عبد الله بن عمر الهجري أبو حفص العابد بـ «الأُبَلَّة»، حدثنا عبد الله بن خبيق الأنطاكي، حدثنا موسى بن طريف، قال شعيب بن حرب: قال لي شعبة: «عقولنا قليلة، فإذا جلسنا مع من هو أقل عقلاً منا ذهب ذلك القليل، وإنِّي لأرى الرجل يجلس مع من هو أقل عقلاً منه فأمقته».

قال أبو حاتم: أول خصال الخير للمرء في الدنيا: العقل، وهو من أفضل ما وهب الله لعباده، فلا يجب أن يدنس نعمة الله بمجالسة من هو بضدها قائم. والواجب على العاقل: أن يكون حسن السَّمْت، طويل الصَّمْت، فإن ذلك من أخلاق الأنبياء، كما أن سوء السَّمْت وترك الصمت من شيم الأَشقياء. والعاقل لا يطول أمله؛ لأن من قوي أمله ضعف عمله، ومن أتاه أجله لم ينفعه أمله.

والعاقل لا يقاتل من غير عُدَّة، ولا يخاصم بغير حجة، ولا يصارع بغير قوة؛ لأن بالعقل تحيا النفوس، وتنور القلوب، وتمضي الأمور، وتعمر الدنيا. والعاقل يقيس ما لم ير من الدنيا بما قد رأى، ويضيف ما لم يسمع منها إلى ما قد سمع، وما لم يصب منها إلى ما قد أصاب، وما بقي من عمره بما فني، وما لم ينل منها بما قد أوتي، ولا يتكل على المال، وإن كان في تمام الحال؛ لأن المال يحل ويرتحل، والعقل يقيم ولا يبرح، ولو أن العقل شجرة لكانت من أحسن الشجر، كما أن الصبر لو كان ثمرة لكان من أكرم الثمر.

والذي يزاد به العاقل من نماء عقله هو: التقرب من أشكاله، والتباعد عن أضداده.

ولقد أخبرنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا أبو جعفر ابن ابنة أبي سعيد الثعلبي، حدثنا مُحَمَّد بن أبي مالك الغزي، قال: سمعت أبي يقول: «جَالِسُوا الْأَلْبَاءَ أَصْدَقَاءَ كَانُوا أَوْ أَعْدَاءَ؛ فَإِنَّ الْعُقُولَ تُلْقِحُ الْعُقُولَ».

قال أبو حاتم: مُجَالِسةُ العقلاء لا تخلو من أحد معنيين:

إما تذكر الحالة الَّتِي يحتاج العاقل إِلَى الانتباه لَهَا.

أو الإفادة بالشيء الخطير الَّذِي يحتاج الجاهل إِلَى معرفتها.

فَقُرْبُ العاقل غُنْمٌ لأشكاله وَعِبْرَةٌ لأضداده عَلَى الأحوال كلها.

ولا يجب لمن تسمى به أن يتدَلَّلَ إِلَّا عَلَى من يَحْتَمِلُ دلاله، وَيُقْبَلُ إِلَّا عَلَى من

يحب إقباله، ولو كان للعقل أبوان لكان أحدهما: الصبر، والآخر: الثبوت.

جعلنا الله ممن رُكِّبَ فيه حسن وجود العقل، فسلك بتمام النعم مسلك

الخصال الَّتِي تقربه إِلَى باريه، فِي دَارِي الأمد والأبد؟ إنه الفعال لِمَا يريد.

ذكر إصلاح السرائر بلزوم تقوى الله ﷻ

أخبرنا أحمد بن مُحَمَّد بن يَحْيَى بن زهير بـ «تُسْتَر» حدثنا عمر بن شُبَّة،

حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا شعبة، عن زياد بن علاقة، عن أسامة بن شريك

قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا كَرِهَ اللهُ مِنْكَ شَيْئًا فَلَا تَفْعَلْهُ إِذَا خَلَوْتَ».

قال أبو حاتم: الواجب عَلَى العاقل الحازم أن يعلم أن للعقل شُعْبًا من

المأمورات والمزجورات، لا بد له من معرفتها، واستعمالها فِي أوقاتها، لمباينة

العوام، وأوباش الناس بِهَا.

وإِنِّي ذَاكرٌ فِي هذا الكتاب -إِنَّ اللهَ قَضَى ذلك وشاء- خمسين شُعْبَةً من

شُعْبِ العقل من المأمورات والمزجورات، ليكون الكتاب مشتملاً عَلَى خمسين

بَابًا، بناءً عَلَى سُنَّةِ رسول الله ﷺ، ثُمَّ تتكلم فِي عقيب كل سُنَّةٍ منها

بِحَسَبِ مَا يَمُنُّ اللهُ بِهِ مِنَ التوفيق لذلك -إِنْ شاء الله-.

فأول شعب العقل هو: لزوم تقوى الله، وإصلاح السريرة؛ لأن من صلح جَوَانِيهِ أصلح الله بَرَانيه، ومن فسد جَوَانِيَهُ أفسد الله بَرَانيه.

ولقد أحسن الذي يقول:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْيَوْمَ أُسْرِعُ ذَاهِبٍ وَأَنَّ غَدًا لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبُ؟

أخبرنا عبد الله بن محمود بن سليمان السعدي، حدثنا سعيد بن هبيرة، حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال: «اتَّخِذْ طَاعَةَ اللَّهِ تِجَارَةً تَأْتِكَ الْأَرْبَاحَ مِنْ غَيْرِ بَضَاعَةٍ».

قال أبو حاتم: قطبُ الطاعات للمرء في الدنيا: هو إصلاح السرائر، وترك إفساد الضمائر.

والواجب على العاقل: الاهتمام بإصلاح سريرته، والقيام بحراسة قلبه عند إقباله وإدباره، وحركته وسكونه؛ لأن تكدر الأوقات وتنغص اللذات لا يكون إلا عند فساده.

ولو لم يكن لإصلاح السرائر سبب يؤدي العاقل إلى استعماله إلا إظهار الله عليه كيفية سريرته، خيرًا كان أو شرًّا؛ لكان الواجب عليه قلة الإغضاء عن تعاهدها.

أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

يُلْسِسُ اللَّهُ فِي الْعَلَانِيَةِ الْعَبْدَ الَّذِي كَانَ يُخْفِي فِي السَّرِيرَةِ
حَسَنًا كَانَ أَوْ قَبِيحًا سَيُبدَى كُلُّ مَا كَانَ ثُمَّ مِنْ كُلِّ سِيرَةٍ
فَأَسْتَحِ مِنَ اللَّهِ أَنْ تُرَائِيَ لِلدَّ مَسِ فَإِنَّ الرِّيَاءَ بِئْسَ الذَّخِيرَةُ

أخبرنا أبو يعلى، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا عُبيدة بن حُميد، عن منصور، عن عطاء بن أبي رباح عن أبيه قال: قال كعب: «والذي فلق البحر لبنِي إسرائيل، إنِّي لأجد في التوراة مكتوبًا: يَا ابْنَ آدَمَ، اتَّقِ رَبَّكَ، وَصِلْ رَحِمَكَ، وَبِرِّ وَالِدَيْكَ، يُمَدِّدْ لَكَ فِي عُمُرِكَ، وَيُسِّرْ لَكَ يُسْرَكَ، وَيُصْرِفْ عَنْكَ عُسْرَكَ».

حدثنا مُحَمَّد بن سليمان بن فارس، حدثنا مُحَمَّد بن علي الشقيقي، حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي، عن مالك بن دينار قال: «إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب، كما يخرب البيت إذا لم يكن فيه ساكن، وإن قلوب الأبرار تغلي بأعمال البرِّ، وإن قلوب الفُجَّار تغلي بأعمال الفجور، والله يرى همومكم، فانظروا ما همومكم؟ رحمكم الله».

أنشدني مُحَمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وَإِذَا أَعْلَنْتَ أَمْرًا حَسَنًا فَلْيَكُنْ أَحْسَنَ مِنْهُ مَا تُسِرُّ
فَمُسِرُّ الْخَيْرِ مَوْسُومٌ بِهِ وَمُسِرُّ الشَّرِّ مَوْسُومٌ بِشَرِّ

أخبرنا أبو يعلى، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلام ينوي فيه الخير، فيلقي الله في قلوب العباد، حتَّى يقولوا: ما أراد بكلامه هذا إلا الخير، وإن الرجل ليتكلم بكلام الخير لا ينوي فيه الخير، فيلقي الله في قلوب الناس حتَّى يقولوا: ما أراد بكلامه هذا إلا الشر».

حدثنا عمر بن مُحَمَّد الهمداني، حدثنا القطَّواني، حدثنا ابن سيَّار، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب قال: سمعت الحسن يقول: «إنكم وقوفٌ هاهنا تنتظرون آجالكم وعند الموت تلقون الخبر، فخذوا مِنَّا عندكم لِمَا بعدكم».

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يأخذ مِنَّا عنده لِمَا بعده من التقوى والعمل الصالح: بإصلاح السريرة، ونفي الفساد عن خلل الطاعات عند إجابة القلب وإبائه، فإذا كان صحَّةُ السبيل في إقباله موجودًا أنفذه بأعضائه، وإن كان

عدم وجوده موجودًا كبحه عنها؛ لأن بصفاء القلب تصفو الأعضاء.

وأنشدني المتتصر بن بلال بن المتتصر الأنصاري:

وَإِنَّ أَمْرًا لَمْ يَصْفُ لِّلَّهِ قَلْبُهُ لَفِي وَحْشَةٍ مِنْ كُلِّ نَظْرَةٍ نَاطِرِ
وَإِنَّ أَمْرًا لَمْ يَزَلْ يَزْجَلْ بِبِضَاعَةٍ إِلَى دَارِهِ الْأُخْرَى فَلَيْسَ بِتَاجِرِ
وَإِنَّ أَمْرًا ابْتِغَاءً دُنْيَا بِدِينِهِ لَمُنْقَلَبٌ مِنْهَا بِصَفْقَةٍ خَاسِرِ

أخبرنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي بـ«بغداد» حدثنا أبو نصر التمار، حدثنا أبو الأشهب عن خالد الربيعي قال: «كان لقمان عبدًا حبشيًا نجارًا، فأمره سيده أن يذبح شاة، فذبح شاة، فقال له: اتنني بأطيب مضغتين في الشاة، فأثاه باللسان والقلب، ثم مكث أيامًا، فقال: اذبح شاة، فذبح، فقال له: اتنني بأخبث مضغتين في الشاة، فألقى إليه اللسان والقلب، فقال له سيده: قلت لك حين ذبحت الشاة: اتنني بأطيب مضغتين في الشاة، فأتيتني باللسان والقلب، ثم قلت لك الآن حين ذبحت الشاة: اتنني بأخبث مضغتين في الشاة، فألقيت اللسان والقلب؟ فقال: إنه لا أطيّب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا».

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ إِذَا حَصَلَتْ أَخْبَارُهُ وَمَدَاخِلُهُ
إِذَا مَا رَدَاءُ الْمَرْءِ لَمْ يَكُ طَاهِرًا فَهَيْهَاتَ أَنْ يُنْقِيَهُ بِالْمَاءِ غَاسِلُهُ
وَمَا كُلُّ مَنْ تَخَشَّى يَنَالُكَ شَرُّهُ وَمَا كُلُّ مَا أَمَلْتَهُ أَنْتَ نَائِلُهُ

أخبرنا أحمد بن عيسى بن السكّين بـ«واسط» حدثنا عبد الحميد بن محمد ابن مُستام، حدثنا مَخلد بن يزيد، حدثنا صالح بن حسان المؤذن قال: «دخلت على عمر بن عبد العزيز، فسمعتة يقول: لا يتقي الله عبدٌ حتّى يجدَ طعمَ الذلِّ».

قال أبو حاتم: العاقل يفتش قلبه في ورود الأوقات، ويكبح نفسه عن

جميع المَزْجُورات، ويأخذها بالقيام في أنواع المأمورات، ولزوم الانتباه عند ورود الفترة في الحالات، ولا يكون المرء يشاهد ما قلنا قائماً به حتّى يوجد منه صحة الثبوت في الأفعال.

أنشدني علي بن مُحَمَّد السامي:

وَإِذَا بَحَثْتَ عَنِ التَّقْيِّ وَجَدْتَهُ رَجُلًا يُصَدِّقُ قَوْلَهُ بِفِعَالٍ
وَإِذَا اتَّقَى اللَّهَ أَمْرُؤُ وَأَطَاعَهُ فَيَدَاهُ بَيْنَ مَكَارِمٍ وَمَعَالٍ
وَعَلَى التَّقْيِّ إِذَا تَرَأَسَخَ فِي التَّقْيِّ تَاجَانِ: تَاجُ سَكِينَةٍ وَجَمَالِ
وَإِذَا تَنَاسَبَتِ الرَّجَالُ فَمَا أَرَى نَسَبًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ

أخبرنا القطان بـ «الرقعة» حدثنا عبد الله بن رومي البزاز، عن أبيه قال: قلما دخلت على إسحاق بن أبي ربيعي الرافقي إلا وهو يتمثل بهذا البيت:

خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ وَالْأَيَّامِ مُقْبِلَةٌ جَبِيبٌ نَقِيٌّ مِنَ الْآثَامِ وَالْدَّنَسِ

أخبرنا مُحَمَّد بن عبد الله بن الجنيد، حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله، عن عبد الله، أخبرنا الربيع، عن الحسن قال: «أَفْضَلُ الْعَمَلِ: الْوَرَعُ وَالتَّفَكُّرُ».

قال أبو حاتم: العاقل يدبر أحواله بصحة الورع، ويمضي أسبابه بلزوم التقوى؛ لأن ذلك أول شَعَبِ العقل، وليس له إليه سبيل إلا بصلاح القلب.

ومثل قلب العاقل إذا لزم رعاية العقل -على ما نذكرها في كتابنا هذا إن الله قضى ذلك وشاءه- كأن قلبه شُرِّحَ بسكاكين الثَّقِيَّة، ثُمَّ مُلِّحَ بِمِلْحِ الخشية، ثُمَّ جُفِفَ برياح العظمة، ثُمَّ أُحْيِيَ بِمَاءِ القربة، فلا يوجد فيه إلا ما يُرْضِي المولى -جل وعلا-، ولا يبالي المرء إذا كان بهذا النعت أن يتَّضع عند الناس، ومحال أن يكون ذلك أبداً.

سمعت أحمد بن موسى المكي بـ «واسط» يقول: «وجدت على خف

عطاء السَّليمي مكتوباً، وكان حائكاً:

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمُ وَفَخْرُكَ بِالدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالْعَدَمُ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقْيٍ نَقِصَةٌ إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمَ

أخبرنا مُحَمَّد بن زنجويه القشيري، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا طريف بن سعيد، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن الأنصاري، عن مُحَمَّد بن علي بن حسين قال: «إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ أَرْبَعِينَ سَنَةً نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: دَنَا الرَّحِيلُ، فَأَعِدَّ زَادًا».

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إِذَا انْتَسَبَ النَّاسُ كَانَ التَّقِيُّ بِتَقْوَاهُ أَفْضَلَ مَنْ يَنْتَسِبُ
وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْسِبْ بِهِ مِنَ الْحِظِّ أَفْضَلَ مَا يُكْتَسِبُ
وَمَنْ يَتَّخِذْ سَبَبًا لِلنَّجَاةِ فَإِنَّ تَقْيَ اللَّهِ خَيْرُ السَّبَبِ

وأنشدني أحمد بن مُحَمَّد بن عبد الله الصنعاني لابن عكراش:

وَمَهْمَا يُسِرَّ الْمَرْءُ يَبْدُ لِرَبِّهِ وَمَا يَنْسَهُ الْإِنْسَانُ لَا يَنْسُ كَاتِبُهُ
وَمَنْ كَانَ غَلَابًا بِجَهْدٍ وَنَجْدَةٍ فَذُو الْحِظِّ فِي أَمْرِ الْمَعِيشَةِ غَالِبُهُ

وأنشدني أبو بدر أحمد بن خالد بن عبد الملك بن عبيد الله بـ «حِرَّان»:

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلَّا صَبْرٌ أَيَّامٍ كَأَنَّ لَذَاتَهَا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ
يَا نَفْسُ جُوزِي عَنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً وَخَلَّ عَنْهَا فَإِنَّ الْعَيْشَ قُدَّامِي

أخبرنا الحسين بن إدريس الأنصاري، أخبرنا سويد بن نصر، أخبرنا عبد الله،

أخبرنا سفيان، عن معن قال: قال عبد الله: «إِنْ لِهَذِهِ الْقُلُوبِ شَهْوَةٌ وَإِقْبَالًا، وَإِنْ لَهَا فِتْرَةٌ وَإِدْبَارًا، فَخَذُّوْهَا عِنْدَ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا، وَدَعُوْهَا عِنْدَ فِتْرَتِهَا وَإِدْبَارِهَا».

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل ألا ينسى تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذي يُورث القساوة له عليه؛ لأن بصلاح الملك تصلح الجنود، وبفساده تفسد

الجنود، فإذا اهتم بإحدى الخصلتين تجنب أقربهما من هواه، وتوخَّى أبعدهما من الردى.

ولقد أحسن الذي يقول:

وَإِذَا تَشَاجَرَ فِي فُؤَادِكَ مَرَّةً أَمْرَانِ فَاعْمِدْ لِلْأَعْفِ الْأَجْمَلِ
وَإِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ سُوءٍ فَاتَّئِدْ وَإِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ خَيْرٍ فَافْعَلْ

أخبرنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي بـ «البصرة» حدثنا إبراهيم بن عزرة السامي، ثنا أبو معاوية عن مسعر بن كدام، عن عون بن عبد الله قال: قال عمر بن الخطاب: «جَالِسُوا التَّوَابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرْقُ أَفِيدَةً».

أخبرنا أبو يعلى، حدثنا مُحَمَّد بن عمرو بن جبلة، حدثنا مُحَمَّد بن مروان، حدثنا عطاء الأزرق: قال رجل للحسن: «يا أبا سعيد، كيف أنت؟ وكيف حالك؟ قال: كيف حال من أمسى وأصبح ينتظر الموت، ولا يدري ما يُصنع به».

وأنشدني منصور بن مُحَمَّد الكريزي:

تَخَيَّرَ قَرِينًا مِنْ فِعَالِكَ إِنَّمَا قَرِيبُ الْفَتَى فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
فَإِنْ كُنْتَ مَشْغُولًا بِشَيْءٍ فَلَا تَكُنْ بَغِيرِ الَّذِي يَرْضَى بِهِ اللَّهُ تُشْغَلُ
فَلَا بُدَّ بَعْدَ الْقَبْرِ مِنْ أَنْ تُعِدَّهُ لِيَوْمٍ يُنَادَى الْمَرْءُ فِيهِ فَيُسْأَلُ
فَلَنْ يَصْحَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِهِ وَلَا بَعْدَهُ إِلَّا الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ
إِنَّمَا الْإِنْسَانُ ضَيْفٌ لِأَهْلِهِ يُقِيمُ قَلِيلًا بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَرْحَلُ

أخبرنا علي بن سعيد العسكري، حدثنا إبراهيم بن الجعيد، حدثنا مُحَمَّد ابن الحسين، حدثنا إسماعيل بن زياد قال: «قدم علينا عبد العزيز بن سليمان عَبَّادَانِ فِي بَعْضِ قَدَمَاتِهِ، فَأَتَيْنَاهُ نُسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَنَا: صَفُّوا لِلْمَنْعِمِ قُلُوبَكُمْ، يَكْفِكُمُ الْمُؤْنُ عِنْدَ هَمِّكُمْ»، ثُمَّ قَالَ: «لو خدمت مخلوقاً فأطلت خدمته، ألم يكن يرعى

لخدمتك حُرمة؟ فكيف بمن يُنعم عليك وأنت مُسيء إلى نفسك، تتقلب في نعمه، وتتعرض لغضبه؟ هيهات هيهات، هذه همّة البطّالين، ليس لهذا خلقتُم، ولا بهذا أُمِرتُم، الكيسَ الكيسَ رحمكم الله»، وكان يفطر على ماء البحر.

قال أبو حاتم: لن تصفو القلوب من وجود الدّرن فيها حتّى تكون الهمم في الله همًّا واحدًا، فإذا كان كذلك كُفي الهم في الهموم إلا الهم الذي يثول مُتعلّق به إلى رضا الباري -جل وعز-، بلزوم تقوى الله في الخلوة والملا؛ إذ هي أفضل زاد العقلاء في دَارِيهِمْ، وأجل مطيّة الحكماء في حالِهِمْ.

وأنشدني مُحَمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي كُلِّ أَمْرِهِ تَجِدُ غِبَّةَ يَوْمِ الْحِسَابِ الْمَطْوَلِ
أَلَا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرٌ مَغْبَةً وَأَفْضَلُ زَادِ الظَّاعِنِ الْمُتَرَحِّلِ

قال أبو حاتم: قد ذكرت هذا الباب بكماله بالعلل والحكايات في كتاب «مَحَجَّة المبتدئين» بما أرجو الغنية للناظر إذا ما تأملها، فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر الحث على لزوم العلم والمداومة على طلبه

أخبرنا مُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا مُحَمَّد بن يَحْيَى وَمُحَمَّد بن رافع قالوا: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عاصم بن أَبِي النجود، عن زُرّ بن حُبَيْش قال: أتيت صفوان بن عَسَّال المرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: جئت أُنَبِّط العلم، قال: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ يَطْلُبُ الْعِلْمَ إِلَّا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْرَ حَتَّهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ».

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل إذا فرغ من إصلاح سريره أن يُنْثِي بطلب العلم، والمداومة عليه؛ إذ لا وصول للمرء إلى صفاء شيء من أسباب الدنيا إلا بصفاء العلم فيه، وحكمُ العاقل ألا يَقْصُر في سلوك حالة توجب له

بَسَطَ الْمَلَائِكَةُ أَجْنَحَتَهَا رِضًا بِصَنِيْعِهِ ذَلِكَ.

ولا يجب أن يكون متأملًا في سعيه الدنو من السلاطين، أو نوال الدنيا به،
فما أقبح بالعالم التذلل لأهل الدنيا!

حدثنا مُحَمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا داود بن أحمد الدمياطي،
حدثنا عبد الرحمن بن عفان قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «ما أقبح
بالعالم يؤتى إلى منزله، فيقال: أين العالم؟ فيقال: عند الأمير، أين العالم؟ فيقال:
عند القاضي، ما للعالم وما للقاضي؟ وما للعالم وما للأمير؟ ينبغي للعالم أن
يكون في مسجده يقرأ في مصحفه».

حدثنا أبو يعلى، حدثنا غسان بن الربيع، حدثنا سليم مولى الشعبي، عن
الشعبي قال: «يا طلاب العلم، لا تطلبوا العلم بسفاهة وطيش، اطلبوه بسكينة
ووقار وتؤدة».

وأنشدني مُحَمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وَفِي الْعِلْمِ وَالْإِسْلَامِ لِلْمَرْءِ وَازِعٌ وَفِي تَرْكِ طَاعَاتِ الْفُؤَادِ الْمُتِمِّمُ
بَصَائِرُ رُشْدٍ لِلْفَتَى مُسْتَبِينَةٌ وَأَخْلَاقُ صِدْقٍ عِلْمُهَا بِالتَّعَلُّمِ

أخبرنا إبراهيم بن نصر، حدثنا عبد بن حميد، حدثنا سعيد بن عامر، عن
حميد بن الأسود، عن أبي عيسى الخياط قال: قال الشعبي: «إنما كان يطلب هذا
العلم من اجتمعت فيه خصلتان: العقل، والنسك، فإن كان عاقلًا ولم يكن ناسكًا،
قيل: هذا أمر لا يناله إلا النساك، فلم يطلبه، وإن كان ناسكًا ولم يكن عاقلًا؛ قيل:
هذا أمر لا يناله إلا العقلاء، فلم يطلبه».

قال الشعبي: «فلقد رهبت أن يكون يطلبه اليوم من ليس فيه واحدة منهما،
لا عقل ولا نسك».

قال أبو حاتم: العاقل لا يبيع حظ آخرته بما قصد في العلم لِمَا يناله من
حُطَام هذه الدنيا؛ لأن العلم ليس القصد فيه نفسه دون غيره؛ لأن المبتغى من

الأشياء كلها نفعها لا نفسها، والعلم ونفع العلم شيان، فمن أغضى عن نفعه لم ينتفع بنفسه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، والعلم له أول وآخر.

كما حدثنا أحمد بن علي بن المشي، حدثنا عمرو الناقد، حدثنا يحيى بن اليمان قال: سمعت سفيان يقول: «أول العلم: الإنصات، ثم الاستماع، ثم الحفظ، ثم العمل به، ثم النشر».

وأنشدني الأبرش:

تَعْلَمَ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُوَلَّدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
وَإِنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغِيرٌ وَإِنْ التَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَحَافِلُ

أخبرنا أبو يعلى، حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني، حدثنا جرير، عن بُرد بن سنان، عن سليمان بن موسى قال: قال أبو الدرداء: «لا تكون عالمًا حتى تكون متعلمًا، ولا تكون بالعلم عالمًا حتى تكون به عاملًا».

قال أبو حاتم: العاقل لا يشتغل في طلب العلم إلا وقصده العمل به؛ لأن من سعى فيه لغير ما وصفنا؛ ازداد فخرًا وتَجَبَّرًا، وللعمل تركًا وتضييعًا، فيكون فسادُه في المتأسِّسين به فيه أكثر من فسادِه في نفسه، ويكون مثله كما قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

أخبرنا مُحَمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا داود بن أحمد، حدثنا عبد الرحمن ابن عفان قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «في جهنم أرحية تطحن العلماء طحنًا، فقيل: من هؤلاء؟ قال: قوم علموا فلم يعملوا».

أخبرنا عبد الله بن محمود السعدي، حدثنا مُحَمَّد بن النضر بن مساور، حدثنا جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار قال: «إذا طلب الرجل العلم ليعمل به؛ كَسَره علمه، وإذا طلب العلم لغير أن يعمل به؛ زاده علمه فخرًا».

أخبرنا مُحَمَّد بن عمر بن سليمان، حدثنا مُحَمَّد بن رافع، حدثنا مُحَمَّد ابن بشر، حدثني سلمة بن الخطاب، عن عبد الحميد بن أبي جعفر الفراء قال: قال الحسن: «مَنْ أَحَب الدُّنْيَا وَسِرَّتْهُ؛ ذَهَبَ خَوْفُ الْآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ، وَمِنْ أَزْدَادِ عِلْمًا ثُمَّ أَزْدَادِ عَلَى الدُّنْيَا حَرَصًا؛ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا، وَلَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُغْضًا».

أخبرنا مُحَمَّد بن المنذر بن سعيد، حدثني أحمد بن إبراهيم الحديثي، حدثني إسماعيل بن الحارث، حدثني مُحَمَّد بن الحسن المديني، حدثنا محمد بن العوام: أن إبراهيم سمع صوت هاتف، وهو يقول:

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بِأَشْرِ الْوَرَعَا	وَبَايِنِ النَّوْمِ وَاهْجُرِ الشُّبْعَا
مَا ضَرَّ عَبْدًا صَحَّتْ إِرَادَتُهُ	أَجَاعَ فِي اللَّهِ يَوْمًا أَوْ شُبْعَا
مَا ضَرَّ عَبْدًا صَحَّتْ عَزَائِمُهُ	أَيَّنَ مِنَ الْأَرْضِ أَيْنَمَا صَقَعَا
مَا طَمَعَتْ نَفْسٌ عَابِدٍ فَنَوَى	سُؤَالَ قَوْمٍ إِلَّا لَهُمْ خَضَعَا
يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا لِعَالِمِكُمْ	فِي مَاءِ بَحْرِ الْمُلُوكِ قَدْ كَرَعَا
يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ زَرْعٌ	يَحْصِدُهُ الْمَوْتُ كُلَّمَا طَلَعَا

أخبرنا ابن سَلَم، حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي، حدثنا يحيى بن اليمان العجلي، عن سفيان الثوري قال: «العالم طيب الدين، والدرهم داء الدين، فإذا اجتر الطيب الداء إلى نفسه، فمتى يداوي غيره؟».

أنشدني أحمد بن مُحَمَّد الصنعاني، أنشدني مُحَمَّد بن عبد الله العراقي:

عُنُوا يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ	شَبَابًا فَلَمَّا حَصَلُوهُ وَخَشَرُوا
وَصَحَّ لَهُمْ إِسْنَادُهُ وَأُصُولُهُ	وَصَارُوا شُيُوخًا ضَيَعُوهُ وَأَذْبَرُوا
وَمَالُوا عَلَى الدُّنْيَا فَهُمْ يَحْلُبُونَهَا	بِأَخْلَافِهَا مَفْتُوحُهَا لَا يُصَرَّرُ

فَيَا عُلَمَاءَ السُّوءِ أَتَيْنَ عُقُولَكُمْ وَأَتَيْنَ الْحَدِيثُ الْمُسْنَدُ الْمُتَخَيَّرُ

أخبرنا جعفر بن مُحَمَّد الهمداني بـ«صُور» حدثنا مُحَمَّد بن عبد الله البعلبكي قال: سمعت عمي مُحَمَّد بن زيد قال: «كنت مع ابن المبارك ببغداد، فرأى إسماعيل ابن عَلِيَّة رَاكِبًا بغلة له على باب السلطان، فأنشأ يقول:

يَا جَاعِلَ الدِّينِ لَهُ بَازِيَا يَصْطَادُ أَمْوَالَ السَّلَاطِينِ

لَا تَبِعِ الدِّينَ بِدُنْيَا كَمَا يَفْعَلُ ضَلَالُ الرَّهَابِينِ

أَخْتَلَتْ لِلدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا بِحِيلَةٍ تُذْهَبُ بِالدِّينِ

وَصِرْتَ مَجْنُونًا بِهَا بَعْدَمَا كُنْتَ دَوَاءً لِلْمَجَانِينِ

تُفَكِّرُ النَّاسَ جَمِيعًا بِأَنْ زَلَّ حِمَارُ الْعِلْمِ فِي الطِّينِ

أخبرنا عبد العزيز بن الحسن البرذعي، حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أحمد بن عبد الله التستري قال: «لَمَّا أَن وَلِي ابنُ عَلِيَّة صدقات الإبل والغنم بالبصرة، كتب إليه ابن المبارك كتابًا، وكتب في أسفله:

يَا جَاعِلَ الدِّينِ لَهُ بَازِيَا يَصْطَادُ أَمْوَالَ الْمَسَاكِينِ

أَخْتَلَتْ لِلدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا بِحِيلَةٍ تَذْهَبُ بِالدِّينِ

يَا فَاضِحَ الْعِلْمِ وَمَنْ كَانَ ذَا لُبٍّ وَمَنْ عَابَ السَّلَاطِينِ

أَتَيْنَ رِوَايَاتُكَ فِي سَرْدِهَا عَنِ ابْنِ عَوْنٍ وَابْنِ سِيرِينَ

وزاد غير أحمد بن عبد الله:

إِنْ قُلْتَ: أَكْرِهْتُ، فَمَاذَا كَذَا زَلَّ حِمَارُ الْعِلْمِ فِي الطِّينِ

فلما قرأ ابن عَلِيَّة الكتاب بكى، ثُمَّ كتب جوابه، وكتب في أسفله:

أَفْ لِلدُّنْيَا أَبَتْ تَوَاتِينِي إِلَّا بِنَقْضِي لَهَا عَرَى دِينِي

عَيْنِي لِحَيْنِي تُدِيرُ مُقْلَتَهَا تَطْلُبُ مَا سَرَّهَا لِتُرْدِيَنِي

أخبرنا مُحَمَّد بن علي الصيرفي بـ«البصرة» حدثنا العباس بن الوليد النرسي، حدثنا وهيب، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن ابن مسعود أنه قال: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب أصحابه، وإنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، وعليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر، أو يفتقر إلى ما عنده؟ وعليكم بالعلم، وإياكم والبدع، وعليكم بالعقيق».

حدثنا مُحَمَّد بن زنجويه القشيري، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو قتبية، حدثنا قرة بن خالد، عن عون بن عبد الله قال: قال ابن مسعود: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية».

حدثني إسحاق بن إبراهيم القاضي، حدثنا الحارث بن مسكين، حدثنا ابن القاسم قال: سمعت مالكا يقول: «ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية». قال أبو حاتم: الواجب على العاقل: مُجانبة ما يندس علمه من أسباب هذه الدنيا، مع القصد في لزوم العمل بما قَدَّرَ عليه، ولو استعمل خمسَه أحاديث من كل مائتي حديث، فيكون كأنه قد أدى زكاة العلم، فمن عجز عن العمل بما جمع من العلم فلا يجب أن يعجزَ عن حفظه.

ولقد أنبأنا ابن قحطبة، حدثنا حسين بن مُحَمَّد الكوفي قال: سمعت مُحَمَّد بن بشير الخزاعي يقول:

وَأَحْفَظُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَجْمَعُ	أَمَّا لَوْ أَعْيَى كُلُّ مَا أَسْمَعُ
سُتُ لَقِيلَ هُوَ الْعَالِمُ الْمُقْنِعُ	وَلَمْ أَسْتَفِدْ غَيْرَ مَا قَدْ جَمَعُ
مِنَ الْعِلْمِ تَسْمَعُهُ تَنْزَعُ	وَلَكِنَّ نَفْسِي إِلَى كُلِّ شَيْءٍ
وَعِلْمِي فِي الْكُتُبِ مُسْتَوْدَعُ	وَأَخْضَرُ بِالْجَهْلِ فِي مَجْلِسِي
وَلَا أَنَا مِنْ جَمْعِهِ أَشْبَعُ	فَلَا أَنَا أَحْفَظُ مَا قَدْ جَمَعْتُ

وَمَنْ يَكُ فِي عِلْمِهِ هَكَذَا يَكُنْ دَهْرُهُ الْقَهْقَرَى يَرْجِعُ
إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا فَجَمْعُكَ لِلْكِتَابِ لَا يَنْفَعُ

وَأُنشِدُنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْمُؤَدِّبَ:

جَامِعُ الْعِلْمِ تَرَاهُ أَبَدًا غَيْرَ ذِي حِفْظٍ وَلَكِنْ ذَا غَلَطٍ
وَتَرَاهُ حَسَنَ الْخَطِّ إِذَا كَتَبَ الْخَطَّ بَصِيرًا بِالنَّقْطِ
فَإِذَا فَتَشْتَهُ عَنْ عِلْمِهِ قَالَ عِلْمِي يَا خَلِيلِي فِي السَّفَطِ
فِي كَرَارِيسَ جِيَادٍ أُحْكِمَتْ وَبِخَطِّ أَيِّ خَطِّ أَيِّ خَطِّ
فَإِذَا قُلْتَ لَهُ: هَاتِ إِذَنْ حَكَ لَحْيَيْهِ جَمِيعًا وَامْتَخَطْ

أخبرنا محمد بن يعقوب الخطيب بـ«الأهواز» حدثنا حفص بن عمرو
الربالي، حدثنا الحجاج بن نصير، حدثنا عبد القدوس قال: سمعت وهب بن
منبه يقول: «من تعلم علماً في حق وسنة؛ لم يذهب الله بعقله أبداً».

حدثنا عبد الله بن قحطبة، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حدثنا المعتمر بن
سليمان قال: «كتب إليَّ أبي -وأنا بالكوفة-: اشترِ الصحف، واكتب العلم؛ فإن
المال يفنى، والعلم يبقى».

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسى، أنبأنا عبد الله بن المبارك
قال: «كتب حكيم من الحكماء ثلاثين صحيفة حكم، فأوحى الله إليه: إنك قد
ملأت الأرض نفاقاً، وإن الله لم يتقبل شيئاً من نفاقك».

قال أبو حاتم: إفناء المرء عمره بكثرة الأسفار، ومباينة الأهل والأوطان
في طلب العلم دون العمل به، أو الحفظ له؛ ليس من شيم العقلاء، ولا من زي
الآلبياء، وإن من أجود ما يستعين المرء به على الحفظ: الطبع الجيد، مع الهمة
واجتناب المعاصي.

وأنشدني الأبرش:

نِعْمَ عَوْنُ الْفَتَى الطَّلُوبِ لِعِلْمٍ أَوْ لِبَعْضِ الْعُقُولِ: صِحَّةُ طَبْعٍ
فَإِذَا الطَّبْعُ فَاتَهُ بَطَلُ الْعِلْمِ ثُمَّ وَصَارَ الْعَنَاءُ فِي غَيْرِ نَفْعٍ

سمعت إبراهيم بن نصر العنبري يقول: سمعت علي بن خشرم يقول:

سمعت وكيعاً يقول: «استعينوا على الحفظ بترك المعصية».

قال أبو حاتم: يجب على العاقل ألا يطلب من العلم إلا أفضله؛ لأن
الازدياد من العلم آثرٌ عند العاقل من الذكر بالعلم، والعلم زين في الرخاء،
ومنجاة في الشدة، ومن تعلّم ازداد، كما أن مَنْ حَلُم ساد، وفضل العلم في غير
خير مهلكة، كما أن كثرة الأدب في غير رضوان الله موبقة، والعاقل لا يسعى في
فنونه إلا بما هو أجدى عليه نفعاً في الدارين معاً، وإذا رُزق منه الحظ لا يبخل
بالإفادة، لأن أول بركة العلم: الإفادة، وما رأيتُ أحداً قط يبخل بالعلم إلا لم يُنتفع
بعلمه، وكما لا يُنتفع بالماء الساكن تحت الأرض ما لم يَنْبَع، ولا بالذهب الأحمر
ما لم يُستخرج من معدنه، ولا باللؤلؤ النفيس ما لم يخرج من بحره، كذلك لا يُنتفع
بالعلم ما دام مكنوناً لا يُنشر ولا يُفاد.

أنبأنا أحمد بن مضر الرباطي، حدثنا مُحَمَّد بن سهل بن عسكر، حدثنا
أبو صالح الفراء قال: سمعت ابن المبارك يقول: «من بخل بالحديث يبتلى
بإحدى ثلاث: إما أن يَموت فيذهب علمه، أو ينسى، أو يُبتلى بالسلطان».

حدثنا أبو يعلى الموصلي، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا جرير، عن
بُرد، عن سليمان بن موسى قال: قال أبو الدرداء: «الناس عالم ومتعلم، ولا خير
فيما بين ذلك».

وأنشدني الكريزي:

أَفِدِ الْعِلْمَ وَلَا تَبْخُلْ بِهِ وَإِلَى عِلْمِكَ عِلْمًا فَاسْتَفِدْ

اسْتَفِدَّ مَا اسْطَعَتْ مِنْ عِلْمٍ وَكُنْ عَامِلًا بِالْعِلْمِ وَالنَّاسَ أَفِدْ
 مَنْ يُفِدْهُمْ يَجْزِهِ اللَّهُ بِهِ وَسَيُغْنِي اللَّهُ عَمَّنْ لَمْ يُفِدْ
 لَيْسَ مَنْ نَافَسَ فِيهِ عَاجِزًا إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَجْتَهِدْ

حدثنا مُحَمَّد بن إِسحاق بن خُزَيْمة، حدثنا عمر بن حفص الشيباني،
 حدثنا حماد بن واقد، عن هشام بن حسان، عن الحسن قال: «لأن يتعلم الرجل بابًا
 من العلم فيعبد به ربه، فهو خير له من أن لو كانت الدنيا من أولها إلى آخرها له،
 فوضعها في الآخرة».

قال أبو حاتم: قد ذكرت أسباب المتعلمين وأخلاق العلماء بعلمها في
 كتاب «العالم والمتعلم» بما أرجو أن يكون فيه غنية لمن أراد الوقوف على
 معرفتها فأغنى ذلك عن التكرار في هذا الكتاب؛ إذ شرطنا في هذا الكتاب
 الاختصار، كراهية سلوك التطويل، والإشارة إلى قصد نفس التحصيل.

ذكر الحث على لزوم الصمت وحفظ اللسان

أخبرنا حامد بن مُحَمَّد بن شعيب البلخي بـ«بغداد» حدثنا منصور بن أبي
 مزاحم، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال
 رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ».

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل إذا ركب المطيتين اللتين ذكرتهما قبل
 إصلاح السريرة ولزوم العلم: أن يبلغ مَجْهُودِهِ حَيْثُ فِي حِفْظِ اللِّسَانِ حَتَّى
 يَسْتَقِيمَ لَهُ؛ إِذِ اللِّسَانُ هُوَ الْمُرْدُّ لِلْمَرَّةِ مَوَارِدِ الْعُطْبِ، وَالصَّمْتُ يَكْسِبُ الْمَحَبَّةَ
 وَالْوَقَارَ، وَمَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ أَرَاهُ نَفْسَهُ، وَالرَّجُوعُ مِنَ الصَّمْتِ أَحْسَنُ مِنَ الرَّجُوعِ
 عَنِ الْكَلَامِ، وَالصَّمْتُ مَنَامُ الْعَقْلِ، وَالْمَنْطِقُ يَقْظَتُهُ.

حدثنا مُحَمَّد بن زنجويه، حدثنا عبد الأعلى بن حماد، حدثنا حماد بن سلمة،

عن ثابت، عن أنس، أن لقمان قال: «إِنَّ مِنَ الْحِكْمِ الصَّمْتَ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ».
وأنشدني الكريزي:

أَقْلِلْ كَلَامَكَ وَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهِ إِنَّ الْبَلَاءَ يَبْغِضُهُ مَقْرُونُ
وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَفِظْ مِنْ عِيٍّ حَتَّى يَكُونَ كَأَنَّهُ مَسْجُونُ
وَكُلْ فُؤَادَكَ بِاللِّسَانِ وَقُلْ لَهُ إِنَّ الْكَلَامَ عَلَيَكُمَا مَوْزُونُ
فَزِنَاهُ وَلَيْكَ مُحْكَمًا ذَا قَلْبَةٍ إِنَّ الْبَلَاغَةَ فِي الْقَلِيلِ تَكُونُ

أخبرنا ابن قتيبة، حدثنا جعفر بن نوح، حدثنا مُحَمَّد بن عيسى بن الطباع قال: سمعت مالك بن أنس يقول: «كل شيء يُتَنَفَّعُ بفضله إلا الكلام فإن فضله يضر».

أخبرنا القطان، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا مروان بن مُحَمَّد، عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال أبو الدرداء: «لا خير في الحياة إلا لأحد رجلين: منصت واع، أو متكلم عالم».

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل: ألا يغالب الناس على كلامهم، ولا يعترض عليهم فيه؛ لأن الكلام وإن كان في وقته خطوة جليلة، فإن الصمت في وقته مرتبة عالية، ومن جهل بالصمت عي بالمنطق، والإنسان إنما هو صورة ممثلة أو ضالة مهملة لولا اللسان، والله عَزَّ وَجَلَّ رفع درجة اللسان على سائر الجوارح، فليس منها شيء أعظم أجراً منه إذا أطاع، ولا أعظم ذنباً منه إذا جنى.

وأنشدني مُحَمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

لَئِنْ كَانَ يَجْنِي اللَّوْمَ مَا أَنْتَ قَائِلٌ وَلَمْ يَكْ مِنْهُ النَّفْعُ فَالصَّمْتُ أَيْسَرُ
فَلَا تُبِدِ قَوْلًا مِنْ لِسَانِكَ لَمْ يَرْضَ مَوَاقِعَهُ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ التَّفَكُّرُ

أخبرنا ابن قتيبة: حدثنا هارون بن مُحَمَّد بن بكار قال: سمعت أبا مسهر

ينشد هذا البيت:

قَدْ أَرَى كَثْرَةَ الْكَلَامِ قَبِيحًا كُلُّ قَوْلٍ يَشِينُهُ الْإِكْثَارُ

أخبرنا: محمد بن سعيد القزاز، حدثني محمد بن داود بن سليمان الرملي، حدثنا المسيب بن واضح، قال: سمعت ابن المبارك يقول:

تَعَاهَدِ لِسَانَكَ إِنَّ اللِّسَانَ سَرِيعٌ إِلَى الْمَرْءِ فِي قَتْلِهِ وَهَذَا اللِّسَانُ بَرِيدُ الْفُؤَادِ يَدُلُّ الرِّجَالَ عَلَى عَقْلِهِ

أخبرنا مُحَمَّد بن سليمان بن فارس، حدثنا مُحَمَّد بن علي الشقيقي، أنبأنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «شيئان يُقْسِيَانِ القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل».

أخبرنا أبو يعلى، حدثنا عمرو بن مُحَمَّد الناقد قال: سمعت يَحْيَى بن اليمان يقول: قال سفيان الثوري: «أول العبادة الصمت، ثُمَّ طلب العلم، ثُمَّ العمل به، ثُمَّ حفظه، ثُمَّ نشره».

حدثنا عمرو بن مُحَمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا العتيبي، عن وهب بن جرير، عن أبيه قال: قال الأحنف بن قيس: «الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه».

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء: من ابتلي بلسان مطلق، وفؤاد مطبق.

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها في موضعها:

١- هو أداة يظهر بها البيان.

٢- وشاهد يُخبر عن الضمير.

٣- وناطق يرد به الجواب.

٤- وحاكم يفصل به الخطاب.

٥- وشافع تُدرك به الحاجات.

٦- وواصف تعرف به الأشياء.

٧- وحاصد تذهب به الضغينة.

٨- ونازع يجذب المودة.

٩- ومسلّ يذكي القلوب.

١٠- ومعزّ ترد به الأحزان.

ولقد أحسن الذي يقول:

إِنْ كَانَ يُعْجِبُكَ السُّكُوتُ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ يُعْجِبُ قَبْلَكَ الْأَخْيَارَ

وَلَيْنَ نَدِمْتَ عَلَى سُكُوتٍ مَرَّةً فَلَقَدْ نَدِمْتَ عَلَى الْكَلَامِ مَرَارًا

إِنَّ السُّكُوتَ سَلَامَةٌ وَلَرُبَّمَا زَرَعَ الْكَلَامَ عَدَاوَةً وَضَرَارًا

وَإِذَا تَقَرَّبَ خَاسِرٌ مِنْ خَاسِرٍ زَادَ بِذَلِكَ خَسَارَةً وَتَبَارًا

أخبرنا مُحَمَّد بن المنذر بن سعيد، حدثنا كثير بن عبد الله التميمي، حدثنا العلاء ابن سعيد الكندي، حدثني أبو حية قال: «كنت أماشي إسماعيل بن سهل، وكان أحد الحكماء، فقال لي: ألا أخبرك ببيت شعر خير لك من عشرة آلاف درهم؟ قلت: بيت شعر خير من عشرة آلاف درهم!! قال: نعم. قال: أيما أحب إليك: نفسك أو عشرة آلاف درهم؟ قال: قلت: نفسي، فأنشأ يقول:

اخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ وَالتَّفْتُ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْمَقَالِ

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يكون ناطقًا كعَيٍّ، وعالمًا كجاهل، وساكناً كناطق؛ لأن الكلام لا بد له من الجواب، والجواب لو جعل له جواب لم يكن للقول نهاية، وخرج المرء إلى ما ليس له غاية، والمتكلم لا يسلم من أن ينسب إليه الصِّلَف والتكلف، والصامت لا يليق به إلا الوقار وحسن السمات.

ولقد أحسن الذي يقول:

حَـنْثُ أَمْرِئٍ لِلسَّانَةِ فِي جِدِّهِ أَوْ لَعِبِهِ
بَيْنَ اللَّهِ مَا مَقْتَلُهُ رُكَّـبَ فِي مُرْكَبِهِ

أخبرنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة، حدثنا دويد بن مُجاشع، عن غالب القطان، عن مالك بن دينار، عن الأحنف بن قيس قال: قال عمر بن الخطاب: «يا أحنف، من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه».

وأنشدني الأبرش:

مَا ذَلَّ ذُو صَمْتٍ وَمَا مِنْ مُكْثِرٍ إِلَّا يَزِلُّ وَمَا يُعَابُ صَمُوتُ
إِنْ كَانَ مَنْطِقُ نَاطِقٍ مِنْ فِضَّةٍ فَالْصَّمْتُ دُرٌّ زَانَهُ الْيَاقُوتُ

أنبأنا ابن قتيبة، حدثنا المسيب بن واضح قال: سمعت علي بن بكار يقول: «جعل الله لكل شيء بايين، وجعل للسان أربعة: الشفتين مصراعين، والأسنان مصراعين».

أنبأنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي بـ«البصرة»، حدثنا نصر بن علي الجهضمي، أنبأنا مُحمَّد بن يزيد بن خنيس، عن وهيب بن الورد «أن شاباً كان يحضر مجلس عمر بن الخطاب، ويحسن الاستماع، ثُمَّ ينصرف من قبل أن يتكلم، ففطن له عمر، فقال له: إنك تحضر مجلسنا، وتُحسن الاستماع، ثُمَّ تنصرف من قبل أن تتكلم! فقال له الشاب: إِنِّي أحضر فاتوقِي وأتنقِي، وأصمتُ فأسلم».

قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يُنصف أذنيه من فيه، ويعلم أنه إنَّما جعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر ممَّا يقول؛ لأنه إذا قال ربَّما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو على ردِّ ما لم يقل أقدر منه على ردِّ ما قال، والكلمة إذا تكلم بها ملكته، وإن لم يتكلم بها ملكها، والعجب ممن يتكلم بالكلمة، إن هي رُفعت

رَبِّمَا ضَرَّتْهُ، وَإِنْ لَمْ تُرْفَعْ لَمْ تَضُرَّهُ، كَيْفَ لَا يَصْمِتُ؟ وَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً!
أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ قَرِيشَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَلِيِّ الذَّهْلِيِّ
قَالَ: أُنْشَدَنِي رَجُلٌ مِنْ رِبِيعَةَ:

لَعَمْرُكَ مَا شَيْءٌ عَلِمْتُ مَكَانَهُ أَحَقُّ بِسَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ مُذَلَّلٍ
عَلَى فَيْكِ مِمَّا لَيْسَ يَعْزِيكَ شَأْنُهُ بِقُفْلٍ وَثِيقٍ مَا اسْتَطَعْتَ فَأَقْفَلَ
فَرُبَّ كَلَامٍ قَدْ جَرَى مِنْ مُمَارَحٍ فَسَاقَ إِلَيْهِ سَهْمَ حَتْفٍ مُعَجَّلٍ
وَلَلصَّمْتُ خَيْرٌ مِنْ كَلَامٍ بِمَائِمٍ فَكُنْ صَامِتًا تَسْلَمَ وَإِنْ قُلْتَ فَاغْدِلِ

أَخْبَرَنَا أَبُو يَعْلَى، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ بَرْدٍ، عَنْ
سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى قَالَ: قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «كَفَى بِكَ ظَالِمًا أَلَّا تَزَالَ مُخَاصِمًا،
وَكَفَى بِكَ آثِمًا أَلَّا تَزَالَ مِمَارِيًا، وَكَفَى بِكَ كَاذِبًا أَلَّا تَزَالَ مُحَدِّثًا، إِلَّا حَدِيثًا فِي ذَاتِ
اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-».

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ الْقَزَازِ، حَدَّثَنَا مَعْرُوفُ بْنُ الْحَسَنِ الْكِتَانِي، حَدَّثَنَا
كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ، عَنْ عَيْسَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ كَعْبٍ قَالَ:
«الْعَافِيَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ، تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي السَّكُوتِ».

أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَفِيَانَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الدَّوْرَقِيُّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى
الْقَطَّانُ، عَنْ شُعْبَةَ قَالَ: «مَنْ النَّاسُ مِنْ عَقَلَهُ بِفَنَائِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَقَلَهُ مَعَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ
لَا عَقْلَ لَهُ، فَأَمَّا الَّذِي عَقَلَهُ مَعَهُ: فَالَّذِي يَبْصُرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَأَمَّا
الَّذِي عَقَلَهُ بِفَنَائِهِ: فَالَّذِي يَبْصُرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ.
فَحَدَّثْتُ بِهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ بَعْدَ مَا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ يَحْيَى، فَقَالَ: هَذِهِ
صِفَتُنَا، يَعْنِي: الَّذِي عَقَلَهُ بِفَنَائِهِ، وَاسْتَحْسَنَ الْكَلَامَ، وَقَالَ: لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا
مِنْ كَلَامِ شُعْبَةَ، لَعَلَّهُ سَمِعَهُ مِنْ غَيْرِهِ».

وَأُنْشَدَنِي الْبَغْدَادِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَنْجِي:

أَنْتَ مِنَ الصَّمْتِ آمِنُ الزَّلَلِ وَمَنْ كَثِيرَ الْكَلَامِ فِي وَجَلِ
لَا تَقُلِ الْقَوْلَ ثُمَّ تُتْبِعْهُ بِأَلَيْتَ مَا كُنْتَ قُلْتَ لَمْ أَقُلِ

سمعت مُحَمَّد بن المسيب يقول: سمعت العباس بن الوليد بن مزيد
يقول: سمعت أَبِي يقول: سمعت الأوزاعي يقول: «ما بُلي أحد في دينه ببلاء
أضر عليه من طَلَاقة لسانه».

سمعت مُحَمَّد بن محمود النسائي يقول: سمعت أبا أحمد بن أَبِي قديد
يقول: سمعت العباس بن عبد العظيم يقول: سمعت عارمًا يقول: سمعت خالد بن
الحارث يقول: «السكوت زين للعاقل، وستر للجاهل».

قال أبو حاتم رحمته الله: لو لم يكن في الصمت خصلة تُحمد إلا تَزِينُ العاقل
وتَشِينُ الجاهل به؛ لكان الواجب على المرء ألا يفارقه الصمت ما وجد إليه سبيلًا،
وَمَنْ أحب السلامة من الآثام، فليقل ما يقبل منه، وليقل مِمَّا يقبل منه؛ لأنه لا يجترئ
على الكلام الكثير إلا فائق أو مائق.

وقد ترك جماعة من أهل العلم حديث أقوام أكثروا الكلام فيما لا يليق

بهم.

من ذلك: ما حدثنا به مُحَمَّد بن الحسين بن مكرم بـ«البصرة» حدثنا عمرو
بن علي، حدثنا أمية بن خالد، عن سعيد قال: قلت للحكم: ما لك لا تكتب عن
زاedan؟ قال: كان كثير الكلام.

قال أبو حاتم رحمته الله: لسان العاقل يكون وراء قلبه، فإذا أراد القول رجع إلى
القلب، فإن كان له قال، وإلا فلا، والجاهل قلبه في طرف لسانه، ما أتى على
لسانه تكلم به، وما عَقَلَ دينه من لم يحفظ لسانه.

واللسان إذا صلح تبين ذلك على الأعضاء، وإذا فسد فكذلك.

أخبرنا مُحَمَّد بن عبد الله بن الجنيد، حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله، عن
عبد الله، أنبأنا سفيان عن رجل قال: «إني لأكذب الكذبة فأعرفها في عملي».

أُنْبَأَنَا أَبُو عَوَانَةَ يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الطَّالِقَانِيُّ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ أَنَّهُ قَالَ: «مَا صَلَحَ مِنْطِقُ رَجُلٍ إِلَّا عُرِفَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ عَمَلِهِ».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمه الله: وَالْعَاقِلُ لَا يَبْتَدِئُ الْكَلَامَ إِلَّا أَنْ يُسْأَلَ، وَلَا يَقُولُ إِلَّا لِمَنْ يَقْبَلُ، وَلَا يُجِيبُ إِذَا شُوتِمَ، وَلَا يَجَازِي إِذَا أُسْمِعَ؛ لِأَنَّ الْإِبْتِدَاءَ بِالصَّمْتِ وَإِنْ كَانَ حَسَنًا، فَإِنَّ السَّكُوتَ عِنْدَ الْقَبِيحِ أَحْسَنُ مِنْهُ».

وَأُنْشَدَنِي الْمُنْتَصِرُ بْنُ بِلَالٍ بْنُ الْمُنْتَصِرِ الْأَنْصَارِيُّ:

الصَّمْتُ عِنْدَ الْقَبِيحِ تَسْمَعُهُ صَاحِبُ صِدْقٍ لِكُلِّ مُصْطَحِبِ
فَأَثَرَ الصَّمْتِ مَا اسْتَطَعْتَ فَقَدْ يُؤَثِّرُ قَوْلُ الْحَكِيمِ فِي الْكُتُبِ
لَوْ كَانَ بَعْضُ الْكَلَامِ مِنْ وَرَقٍ لَكَانَ جُلُّ السُّكُوتِ مِنْ ذَهَبِ

أَخْبَرَنَا بَكْرُ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْقَزَّازِ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَبُو بَشَرٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْمُبَارَكُ بْنُ فُضَالَةَ، عَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ مُسْلِمٍ الْهَجَمِيِّ، عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: «مَا رَضَعْتُ عَنْرًا قَطُّ، وَلَوْ قُلْتُ: لَا أَرْضَعُهَا خَفْتُ أَنْ يَصِيرَ بِي الْبَلَاءُ إِلَى أَنْ أَرْضَعُهَا، إِنْ الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْقَوْلِ».

وَأُنْشَدَنِي الْكَرِيزِيُّ:

اسْتُرْ الْعِيَّ مَا اسْتَطَعْتَ بِصَمْتٍ إِنَّ فِي الصَّمْتِ رَاحَةً لِلصَّمُوتِ
وَأَجْعَلِ الصَّمْتَ إِنْ عَيَّتَ جَوَابًا رَبُّ قَوْلٍ جَوَابُهُ فِي السُّكُوتِ

وَأُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ حِيَّانٍ، عَنْ عَنَسَ بْنِ عَقْبَةَ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا شَيْءٌ أَحَقُّ بِطَوْلِ سَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمه الله: الْعَاقِلُ يَحْفَظُ أَحْوَالَهُ مِنْ وَرُودِ الْخُلَلِ عَلَيْهَا فِي

الأوقات، وإن من أعظم الخلل المفسد لصحة السرائر والمذهب لصالح الضمائر: الإكثار من الكلام، وإن أبيع له كثرة النطق، ولا سبيل للمرء إلى رعاية الصمت إلا بترك ما أبيع له من النطق.

كما أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسى، حدثنا عبد الله، عن سفيان، عن نسير بن ذعلوق، عن إبراهيم التيمي، أخبرني من صحب الربيع بن خثيم عشرين عامًا فلم يسمع منه كلمة تُعَاب.

أنبأنا الجنيدى -أحمد بن محمد بن حبيب-، حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله، عن عبد الله، أنبأنا سفيان، عن أبي طعمة، عن رجل من الحي قال: أتيت الربيع بن خثيم بنعي الحسين، وقالوا: اليوم يتكلم مقالة، فتأوّه ومدّ بها صوته، ثم قال: ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

أنبأنا عمرو بن مُحَمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا إبراهيم بن عمرو بن حبيب، حدثنا الأصمعي قال: «بينما أنا أطوف بالبادية إذا أنا بأعرابية تمشي وحدها على بعير لها، فقلت: يا أمة الجبار من تطلبين؟ فقالت: مَنْ يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، قال: فعلمت أنها قد أضلت أصحابها، فقلت لها: كأنك قد أضللت أصحابك؟ قالت: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنٌ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]. فقلت لها: يا هذه من أين أنت؟ قالت: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]. فعلمت أنها مقدسية، فقلت لها: كيف لا تتكلمين؟ فقالت: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. فقال بعض أصحابي: ينبغي أن تكون هذه من الخوارج، فقالت: ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَسْمَعُ وَالْبَصَرُ وَالْقَوَادِ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. فبينما نحن نُمَاشِيهَا إِذْ رَفَعَتْ لَنَا قَبَابَ وَخِيمٍ، فقالت: ﴿وَعَلَّمَكُم بِالْتَجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. قال: فلم أفطن

لِقَوْلِهَا، فَقُلْتُ: مَا تَقُولِينَ؟ فَقَالَتْ: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ. قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ﴾ [يوسف: ١٩]. قُلْتُ: بِمَنْ أَصَوْتُ، وَبِمَنْ أَدْعُو؟ فَقَالَتْ: ﴿يَبْحَثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]. ﴿يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧]. ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]. قَالَ: فَإِذَا نَحْنُ بِثَلَاثَةِ إِخْوَةٍ كَاللَّالِئِ، فَقَالُوا: أَمْنَا وَرَبُّ الْكَعْبَةِ أَضَلَّلَنَا مِنْذُ ثَلَاثِ، فَقَالَتْ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]. فَأَوْمَأْتُ إِلَى أَحَدِهِمْ، فَقَالَتْ: ﴿فَاتَّبِعُوا أَحَدَكُمْ يَوْزِقُكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩]. فَقُلْتُ: إِنَّهَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَزُودُونَا، فَجَاءُوا بِخَبْزٍ وَكَعْكَ، فَقُلْتُ: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِلْفَتِيَّةِ: مَنْ هَذِهِ مِنْكُمْ؟ قَالُوا: هَذِهِ أَمْنَا مَا تَكَلَّمْتَ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَخَافَةَ الْكَذِبِ، فَدَنَوْتُ مِنْهَا، فَقُلْتُ: يَا أُمَّةَ اللَّهِ، أَوْصِينِي، فَقَالَتْ: ﴿لَا أَسْأَلُكَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]. فَعَلِمْتُ أَنَّهَا شِيعِيَّةٌ، فَانْصَرَفْتُ.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: قَدْ ذَكَرْتُ مَا شَاكَلَ هَذِهِ الْحِكَايَاتُ فِي كِتَابِ «حِفْظِ اللِّسَانِ» فَأَعْنَىٰ ذَلِكَ عَنْ تَكَرُّرِهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ.

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ: أَنْ يُرَوِّضَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِ مَا أُبِيحَ لَهُ مِنَ النُّطْقِ، لِثَلَاثِ يَقَعُ فِي الْمَزْجُورَاتِ، فَيَكُونُ حَتْفُهُ فِيمَا يَخْرُجُ مِنْهُ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ إِذَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَوْرَثَ صَاحِبَهُ التَّلَذُّذَ بِضَدِّ الطَّاعَاتِ، فَإِذَا لَمْ يَوْفُقِ الْعَبْدُ لاسْتِعْمَالِ اللِّسَانِ فِيمَا يُجْدِي عَلَيْهِ نَفْعُهُ فِي الْآخِرَةِ، كَانَ وَجُودُ الْإِمْسَاكِ عَنِ السُّوءِ أَوْلَىٰ بِهِ.

وَأَنْشَدَنِي الْمُنْتَصِرُ بْنُ بِلَالٍ الْأَنْصَارِيُّ:

وَلَنْ يَهْلِكَ الْإِنْسَانُ إِلَّا إِذَا أَتَى مِنْ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَرْضَهُ نَصْحَاؤُهُ
وَأَقِيلُ إِذَا مَا قُلْتُ قَوْلًا فَإِنَّهُ إِذَا قُلَّ قَوْلُ الْمَرْءِ قَلَّ خَطَاؤُهُ

أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْخَلِيلِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زِيَادٍ الْقَطَوَانِيُّ، حَدَّثَنَا سَيَّارٌ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سَلِيمَانَ، حَدَّثَنَا الْمُعَلَّى بْنُ زِيَادٍ قَالَ: قَالَ مُورِّقُ الْعَجَلِيِّ: «أَمْرُ

أنا في طلبه منذ عشر سنين، ولست بتارك طلبه، قيل: وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمت عما لا يعنيني».

أنبأنا إبراهيم بن نصر العنبري، حدثنا علي بن الأزهر الرازي، حدثنا إبراهيم بن رستم قال: سمعت خارجة يقول: «صحبت عبد الله بن عون خمس عشرة سنة فما أظن الملائكة كتبت عليه شيئاً». والله أعلم.

ذكر الحث على لزوم الصدق ومجانبة الكذب

أخبرني أحمد بن محمد بن حبيب الجنيدي قال: حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا محاضر بن المورّع، حدثنا الأعمش، عن شقيق قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا».

قال أبو حاتم رحمه الله: إن الله - جل وعلا - فضّل اللسان على سائر الجوارح، ورفع درجته، وأبان فضيلته، بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده، فلا يجب للعاقل أن يعود آلة خلقها الله للنطق بتوحيده: الكذب، بل يجب عليه المداومة على رعايته بلزوم الصدق، وما يعود عليه نفعه في داريه؛ لأن اللسان يقتضي ما عود: إن صدقاً فصدقاً، وإن كذباً فكذباً.

ولقد أحسن الذي يقول:

عَوْدٌ لِسَانَكَ قَوْلُ الْخَيْرِ تَحْظَرُ بِهِ إِنَّ اللِّسَانَ لِمَا عَوَدَتْ مُعْتَادُ
مُوكَلٌّ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ فَاخْتَرُ لِنَفْسِكَ وَاَنْظُرْ كَيْفَ تَرْتَادُ

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا الفضل بن العباس البغدادي، حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا الهيثم بن عمران قال: سمعت إسماعيل بن عبيد الله

يقول: «كان عبد الملك بن مروان يأمرني أن أُجَنَّبَ بنِيه السَّمَن، وكان يأمرني ألاَّ أطعم طعامًا حَتَّى يخرجوا إلى البراز، وكان يقول: عَلَّمَ بَنِيَّ الصَّدَقَ كَمَا تُعَلِّمُهُم القرآن، وجنبهم الكذب، وإن كان فيه كذا وكذا، يعني: القتل».

وأنشدني الأبرش:

الْكُذْبُ مُرْدِيكَ وَإِنْ لَمْ تَخَفْ وَالصَّدْقُ مُنْجِيكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ
فَانْطِقْ بِمَا شِئْتَ تَجِدْ غِبَّهُ لَمْ تُبْتَخَسْ وَزَنَةٌ مِثْقَالٍ

أخبرنا أبو يعلى، حدثنا أبو خيثمة، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سليم بن حيان، عن قتادة، عن حميد بن عبد الرحمن الحميري أن عمر بن الخطاب قال: «إن أبا بكر قام فينا عام أول، فقال: إنه لم يُقسم بين الناس شيء أفضل من المعافاة بعد اليقين، ألا إن الصدق والبرَّ في الجنة، ألا وإن الكذب والفجور في النار».

أخبرنا أبو خليفة، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثني طيسلة بن علي البهذلي قال: «كنت مع ابن عمر يومًا في أصول الأراك يوم عرفة، وبين يديه رجل من أهل العراق، فقال له الرجل: يا ابن عمر ما المنافق؟ قال: المنافق، -ويحك!- الذي إذا حدث كذب، وإذا وعد لم ينجز، وإذا أوتى لم يؤد».

سمعت أحمد بن محمد بن الأزهر يقول: سمعت محمد بن جعفر بن أبي الأزهر يقول: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «ما من مضغة أحبَّ إلى الله من لسان صدوق، وما من مضغة أبغض إلى الله من لسان كذوب».

قال أبو حاتم رحمته الله: كل شيء يستعار ليتجمل به سهلٌ وجودُه، خلا اللسان، فإنه لا ينبئ إلا عما عودَ، والصدق ينجي والكذب يُردي، ومن غلبَ لسانه أمره قومه، ومن أكثر الكذب لم يترك لنفسه شيئًا يصدق به، ولا يكذب إلا من هانت عليه نفسه.

حدثنا أحمد بن مُحَمَّد بن زنجويه ب«نَسَا»، حدثنا جعفر بن أبي عثمان الطيالسي، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا أنس بن عياض، عن صالح بن حسان، عن مُحَمَّد بن كعب القرظي قال: «إِنَّمَا يَكْذِبُ الْكَاذِبُ مِنْ مَهَانَةِ نَفْسِهِ».

وَأَنشَدَنِي الْكَرِيزِيُّ:

كَذَبْتَ وَمَنْ يَكْذِبُ فَإِنَّ جَزَاءَهُ إِذَا مَا أَتَى بِالصِّدْقِ إِلَّا يُصَدِّقَا
إِذَا عُرِفَ الْكَذَّابُ بِالْكَذِبِ لَمْ يَزَلْ لَدَى النَّاسِ كَذَّابًا وَإِنْ كَانَ صَادِقًا
وَمِنْ آفَةِ الْكَذَّابِ نِسْيَانُ كَذِبِهِ وَتَلَقَّاهُ ذَا فَقْهِ إِذَا كَانَ حَادِقًا

قال أبو حاتم: لو لم يكن للكذب من الشين إلا إنزاله صاحبه بحيث إن صدق لم يُصَدَّق، لكان الواجب على الخلق كافة لزوم التشبث بالصدق الدائم، وإن من آفة الكذب أن يكون صاحبه نسيًا، فإنه إذا كان كذلك كان كالمنادي على نفسه بالخزي في كل لحظة وطرفة.

سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ الْأَزْهَرِ يَقُولُ: سَمِعْتُ نَصْرَ بْنَ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيَّ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ أَعَانَنَا عَلَى الْكَذَّابِينَ بِالنِّسْيَانِ».

وَأَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِيُّ:

إِذَا مَا الْمَرْءُ أَخْطَأَهُ ثَلَاثٌ فَبِعُهُ وَلَوْ بِكَفٍّ مِنْ رَمَادٍ
سَلَامَةٌ صَدْرِهِ وَالصِّدْقُ مِنْهُ وَكِثْمَانُ السَّرَائِرِ فِي الْفُؤَادِ

أُنْبَأَنَا بِكَرِّ بْنِ أَحْمَدَ الطَّاحِي ب«البصرة»، حدثنا إبراهيم بن عذرة، حدثنا سفيان بن عيينة، عن معمر قال: قال الزهري: «لو رأيت طاوسًا علمت أنه لا يكذب».

قال أبو حاتم رحمته الله: اللسان سبعُ عقور، إن ضبطه صاحبه سلم، وإن خلى عنه عقره، وبفمه يفتضح الكذوب، فالعقل لا يشتغل بالخوض فيما لا يعلم فيتهم فيما يعلم؛ لأن رأس الذنوب الكذب، وهو يبدي الفضائح ويكتم المحاسن، ولا يجب على المرء إذا سمع شيئًا يعيبه أن يحدث به؛ لأن من تحدث عن كل

شيء أزرى برأيه، وأفسد صدقه.

وقد أنبأنا أبو خليفة، حدثنا ابن كثير، أنبأنا سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن الأحوص، عن عبد الله قال: «حسب المؤمن من الكذب أن يحدث بكل ما سمع».

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسى، أنبأنا عبد الله، أنبأنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام: «طوبى لمن خزن لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته».

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

وَإِذَا الْأُمُورُ تَزَاوَجَتْ فَالْصَّدُوقُ أَكْرَمُهَا نَجَا
الْصَّدُوقُ يَعْقِدُ فَوْقَ رَأْسِ حَلِيفِهِ بِالْصَّدُوقِ تَجَا
وَالْصَّدُوقُ يَقْدَحُ زَنْدَهُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ سَرَا

أنبأنا القطان بـ«الرقعة»، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن منصور، عن ربعي قال: «من ذكرت يا أبا سفيان؟ قال: ذكرت ربعيًا، وتَدرون مَنْ كان ربعي؟ كان رجلًا من أشجع، زَعَمَ قَوْمُهُ أَنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ قط، فسعى به سَاعَ إِلَى الْحِجَابِ، فقال: ها هنا رجل من أشجع، زعم قومه أَنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ قط، وأنه يَكْذِبُ لك اليوم، فإنك ضربت على ابنه البيعة فعصيا، وهما في البيت، وكان عقوبة الحجاج للعاصي ضرب السيف، قال: فدعاه، فإذا شيخ منحني، فقال له: أنت ربعي؟ قال: نعم، قال: ما فعل ابنك؟ قال: ها هما ذان في البيت، قال: فحمله وكساه وأوصى به خيرًا».

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا عبيد الله بن محمد التيمي، عن أبيه قال: «كان عمر بن الخطاب بِمَنْىَ فَعَطَشَ، فانتَهَى إِلَى عَجُوزٍ، فَاسْتَسْقَاهَا مَاءً، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا، فَقَالَ لَبَنًا، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا، فَبَدَرَتْ

جارية فقالت لها: تكذابين وما تستحين؟ ثم قالت لعمر: هذا السقاء فيه لبن، فسأل عمر عن الجارية فإذا أبوها ثقيفي فخطبها على عاصم بن عمر، فزوجها منه، فولد له منها أم عاصم، فتزوجها عبد العزيز بن مروان، فولدت له عمر بن عبد العزيز بن مروان، رحمة الله عليه!.

قال أبو حاتم رحمه الله: الصدق يرفع المرء في الدارين، كما أن الكذب يهوي به في الحالين، ولو لم يكن الصدق خصلة تُحمد إلا أن المرء إذا عُرف به قُبِلَ كذبه، وصار صدقاً عند من يسمعه، لكان الواجب على العاقل أن يبلغ مَجْهُوده في رياضة لسانه، حتَّى يستقيم له على الصدق، ومُجانبة الكذب، والعِي في بعض الأوقات خير من النطق؛ لأن كل كلام أخطأ صاحبه موضعه فالعِي خير منه.

أنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

تَحَدَّثْ بِصِدْقٍ إِنْ تَحَدَّثْتَ وَلْيَكُنْ لِكُلِّ حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكَ حِينُ
فَمَا الْقَوْلُ إِلَّا كَالثِّيَابِ فَبَعْضُهَا عَلَيْكَ وَبَعْضٌ فِي الثُّخُوتِ مَصُونُ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

كَمْ مِنْ حَسِيبٍ كَرِيمٍ كَانَ ذَا شَرَفٍ قَدْ شَانَهُ الْكِذْبُ وَسَطَ الْحَيِّ إِذْ عَمَدَا
وَأَخْرُ كَانَ صُغْلُوكََا فَشَرَّفَهُ صِدْقُ الْحَدِيثِ وَقَوْلُ جَانِبِ الْفَنَدَا
فَصَارَ هَذَا شَرِيفًا فَوْقَ صَاحِبِهِ وَصَارَ هَذَا وَضِيعًا تَحْتَهُ أَبَدَا

أنبأنا أبو خليفة، حدثنا مُحَمَّد بن كثير، أنبأنا سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، قال: قال عمر: «لا يجد عبدٌ حقيقة الإيمان حتَّى يدع المِرَاء وهو مُحَقٌّ، ويدع الكذب في المزاح وهو يرى أنه لو شاء لغلب».

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز، حدثني يوسف بن سعيد بن مسلم، حدثنا علي بن بكار، عن يونس بن عبيد، عن حُميد بن هلال، عن عبد الله بن عمرو قال: «ذَر ما لستَ منه في شيء، ولا تنطق فيما لا يعينك، واخزُن لسانك كما

تخزن دراهمك».

وأنشدني مُحَمَّد بن المنذر بن سعيد الهروي:

الْقَوْلُ كَاللَّبَنِ الْمَحْلُوبِ لَيْسَ لَهُ رَدٌّ وَكَيْفَ يَرُدُّ الْحَالِبُ اللَّبَنَ
فِي ضَرْعِهِ وَكَذَاكَ الْقَوْلُ لَيْسَ لَهُ فِي الْجَوْفِ رَدٌّ قَبِيحًا كَانَ أَوْ حَسَنًا

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل ترك الإغضاء عن تعهد اللسان؛ لأن من كثر كلامه كثر سقطه، والسقط ربما تعدى غيره فيهلكه في ورطة لا حيلة له في التخلص منها؛ لأن اللسان لا يندمل جرحه، ولا يلتئم ما قطع به، وكلم القول إذا وصل إلى القلب لم يُنزع إلا بعد مدة طويلة، ولم يُستخرج إلا بعد حيلة شديدة، ومن الناس من لا يُكرم إلا للسانه، ولا يُهان إلا به، فالواجب على العاقل ألا يكون ممن يُهان به.

أنبأنا عبد الله بن مُحَمَّد الأنماطي الهمداني، حدثنا مُحَمَّد بن عبيد، حدثنا عبد الله بن الحسين العقيلي، حدثنا أبو سلمة الخزازي، حدثنا شبيب بن شيبه، قال: سمعت ابن سيرين يقول: «الكلام أوسع من أن يكذب فيه ظريف».

ذكر الحث على لزوم الحياء وترك القحة

أنبأنا الفضيل بن الحباب الجُمحي، حدثنا القَعْنَبِي، عن شعبة، عن منصور، عن ربعي، عن ابن مسعود: أن النَّبِي ﷺ قال: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل لزوم الحياء؛ لأنه أصل العقل وبذر الخير، وتركه أصل الجهل وبذر الشر، والحياء يدل على العقل، كما أن عدمه دال على الجهل، ومن لم ينصف الناس منه حياؤه، لم ينصفهم منه قحته.

ولقد أحسن الذي يقول:

وَلَيْسَ بِمَنْسُوبٍ إِلَى الْعِلْمِ وَالنُّهَى فَتَى لَا تُرَى فِيهِ خَلَائِقُ أَرْبَعُ

فَوَاحِدَةٌ تَقْوَى الْإِلَهَ الَّتِي بِهَا يُنَالُ جَسِيمُ الْخَيْرِ وَالْفَضْلُ أَجْمَعُ
وَتَانِيَةٌ صِدْقُ الْحَيَاءِ فَإِنَّهُ طِبَاعٌ عَلَيْهِ ذُو الْمُرُوءَةِ يُطْبَعُ
وَتَالِثَةٌ حِلْمٌ إِذَا الْجَهْلُ أَطْلَعَتْ إِلَيْهِ خَبَايَا مِنْ فُجُورٍ تَسْرَعُ
وَرَابِعَةٌ جُودٌ بِمِلْكٍ يَمِينِهِ إِذَا نَابَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَيْسَ يُدْفَعُ

وَأُنْشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِي:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَأْوُهُ
حَيَاءُكَ فَاحْفَظْهُ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ حَيَاؤُهُ

أَنْبَأَنَا أَبُو خَلِيفَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ كَثِيرٍ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،
عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «الْأَمُّ شَيْءٌ فِي الْمَوْءِنِ: الْفَحْشُ».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: «الْحَيَاءُ اسْمٌ يَشْتَمِلُ عَلَى مُجَانِبَةِ الْمَكْرُوهِ مِنَ
الْخِصَالِ».

وَالْحَيَاءُ حَيَاءَان:

أَحَدُهُمَا: اسْتِحْيَاءُ الْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ - جَلًّا وَعَلَا - عِنْدَ الْإِهْتِمَامِ بِمُبَاشَرَةِ مَا حُظِرَ
عَلَيْهِ.

وَالثَّانِي: اسْتِحْيَاءُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ عِنْدَ الدُّخُولِ فِي مَا يَكْرَهُونَ مِنَ الْقَوْلِ
وَالْفِعْلِ مَعًا.

وَالْحَيَاءَانُ جَمِيعًا مَحْمُودَانِ، إِلَّا أَنْ أَحَدَهُمَا فَرَضٌ وَالْآخَرُ فَضْلٌ، فَلِزُومِ
الْحَيَاءِ عِنْدَ مُجَانِبَةِ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فَرَضٌ، وَلِزُومِ الْحَيَاءِ عِنْدَ مَقَارَفَةِ مَا كَرِهَ النَّاسُ
فَضْلٌ.

وَأُنْشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذِرِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَلْفِ التِّيمِيِّ قَالَ: أَنْشَدَنِي
رَجُلٌ مِنْ خَزَاعَةَ:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحْيَ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللَّحَاءُ

حدثنا إسحاق بن إبراهيم القاضي، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث بن سعد، عن عقيل، عن الزهري: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال يوماً وهو يخطب: «أيها الناس، استحيوا من الله، فوالله ما خرجت لحاجة منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد الغائط إلا وأنا مُقنَّع رأسي حياءً من الله».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحياء من الإيمان، والمؤمن في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجافي في النار، إلا أن يتفضل الله عليه برحمته فيخلصه منه.

فإذا لزم المرء الحياء؛ كانت أسباب الخير منه موجودة، كما أن الوقح إذا لزم البذاء؛ كان وجود الخير منه معدوماً، وتواتر الشر منه موجوداً؛ لأن الحياء هو الحائل بين المرء وبين المزجورات كلها؛ فبقوة الحياء يضعف ارتكابه إياها، وبضعف الحياء تقوى مباشرته إياها.

ولقد أحسن الذي يقول:

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلَّا الْحَيَاءُ
فَكَانَ هُوَ الدَّوَاءَ لَهَا وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ فَلَا دَوَاءَ

وأنبأنا محمد بن المنذر بن سعيد، حدثنا عمر بن شبة، حدثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى، حدثنا هشام، عن محمد، عن كثير بن أفلاح، عن زيد بن ثابت قال: «من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يعود نفسه لزوم الحياء من الناس، وإن من أعظم بركته: تعويد النفس ركوب الخصال المحمودة ومجانبتها الخلال المذمومة، كما أن من أعظم بركة الحياء من الله: الفوز من النار بلزوم

الحياء عند مُجانبة ما نهى الله عنه؛ لأن ابن آدم مطبوع على الكرم واللؤم معاً في المعاملة بينه وبين الله، والعشرة بينه وبين المخلوقين، وإذا قوي حياؤه قوي كرمه وضعف لؤمه، وإذا ضعف حياؤه قوي لؤمه وضعف كرمه.

ولقد أنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

إِذَا رُزِقَ الْفَتَى وَجْهًا وَقَاحًا تَقَلَّبَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَشَاءُ
وَلَمْ يَكْ لِلدَّوَاءِ وَلَا لِشَيْءٍ يُعَالِجُهُ بِهِ فِيهِ غَنَاءُ
فَمَا لَكَ فِي مُعَاتَبَةِ الَّذِي لَا حَيَاءَ لَوَجْهِهِ إِلَّا الْعَنَاءُ

قال أبو حاتم: إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر محاسنه، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان على الناس ومُتَت، ومن مُتَت أُوذِي، ومن أُوذِي حزن، ومن حزن فَقَدَ عقله، ومن أصيب في عقله كان أكثرُ قوله عليه لا له، ولا دواء لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، وَمَنْ قَلَّ حياؤه صنع ما شاء وقال ما أحب.

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

إِذَا لَمْ تَصُنْ عِرْضًا وَلَمْ تَخْشَ خَالِقًا وَتَسْتَحِي مَخْلُوقًا فَمَا شِئْتَ فَاصْنَعْ
إِذَا كُنْتَ تَأْتِي الْمَرْءَ تُعْظِمُ حَقَّهُ وَيَجْهَلُ مِنْكَ الْحَقَّ فَالْصَّرْمُ أَوْسَعُ

أنبأنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثني عبد الله بن مسعود الثعلبي بـ«اليمن» حدثنا أحمد بن زيد بن السكن الجندي، عن سفيان بن عيينة قال: قال يحيى بن جعدة: «إذا رأيت الرجل قليل الحياء؛ فاعلم أنه مدخول في نسبه».

ذكر الحث على لزوم التواضع ومجانبة الكبر

أنبأنا أبو خليفة، حدثنا موسى بن إسماعيل التبوذكي، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَلَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَلَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل لزوم التواضع، ومُجانبة التكبر، ولو لم يكن في التواضع خصلة تُحمد، إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعة؛ لكان الواجب عليه ألا يتزَيَّأ بغيره.

والتواضع تواضعان: أحدهما: مَحمود، والآخر: مذموم.

والتواضع المحمود: ترك التَّطَاوُل على عباد الله، والإِزراء بهم.

والتواضع المذموم: هو تواضع المرء لذي الدنيا رغبةً في دُنياه.

فالعاقل يلزم مفارقة التواضع المذموم على الأحوال كلها، ولا يفارق

التواضع المحمود على الجهات كلها.

ولقد أنبأنا: الحسن بن سفيان، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن

ابن عجلان، عن بُكير بن عبد الله، عن عبيد الله بن عدي أن عمر بن الخطاب

قال: «إن الرجل إذا تواضع لله؛ رفع الله حكَمَتَهُ، وقال: انتعش نعشك الله، فهو في

نفسه صغير، وفي أعين الناس كبير، وإذا تكبر العبد وعدا طوره؛ وهَصَه الله إلى

الأرض، وقال: اخسأ! أخسأك الله، فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس صغير».

قال أبو حاتم رحمه الله: التواضع يرفع المرء قدرًا، ويعظم له خطرًا، ويزيده نُبلًا.

والتواضع لله - جل وعز - على ضَرَبَين:

أحدهما: تواضع العبد لربه عندما يَأْتِي من الطاعات غير مُعجب بفعله،

ولا راءٍ له، عنده حالة يوجب بها أسباب الولاية، إلا أن يكون المولى - جل

وعز - هو الذي يتفضل عليه، وهذا التواضع هو السبب الدافع لنفس العُجب عن

الطاعات.

والتواضع الآخر: هو ازدراء المرء نفسه، واستحقاره إياها عند ذكره ما

قارف من المآثم حتَّى لا يرى أحدًا من العالم إلا ويرى نفسه دونه في الطاعات،

وفوقه في الجنايات.

كما أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي بـ«بغداد»، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، عن عبد الله بن بكر بن عبد الله المزني قال: قال أبي: «يا بُنَيَّ، لو لم أحضر الموسم لرجوت أن يغفر لهم».

أنبأنا عبد الرحمن بن بحر بن معاذ البزاز، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن سميع، حدثنا زهير بن محمد، عن ابن جريج، عن مُجاهد في قوله: ﴿وَكَاثُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. قال: متواضعين.

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل يلزم مُجانبة التكبر؛ لِمَا فيه من الخصال المذمومة:

إحداها: أنه لا يتكبر على أحد حتّى يعجب بنفسه، ويرى لها على غيرها الفضل.

والثانية: ازدراؤه بالعالم؛ لأن من لم يستحقر الناس لم يتكبر عليهم، وكفى بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان طغياناً.

والثالثة: منازعة الله -جل وعلا- في صفاته؛ إذ الكبرياء والعظمة من صفات الله -جل وعلا-؛ فمن نازعه إحداهما ألقاه في النار، إلا أن يتفضل عليه بعفوه. ولقد أحسن الذي يقول:

لَلتَّيِّهِ مَفْسَدَةُ الدِّينِ مَنْقَصَةٌ لِّلْعَقْلِ مَهْتَكَةٌ لِّلْعَرَضِ فَاَنْتَبِهْ
لَا تَشْرَهَنَّ فَإِنَّ الدَّلَّ فِي الشَّرِّهِ وَالْعَرْفُ فِي الْحِلْمِ لَا فِي الْبَطْشِ وَالسَّفْهِ

سمعت محمد بن محمود النسائي يقول: سمعت أبا داود السنجي يقول: سمعت الأصمعي يقول: سمعت يحيى بن خالد البرمكي يقول: «الشريف إذا تقرأ تواضع، والدنيء إذا تقرأ تكبر».

قال أبو حاتم رحمته الله: لا يمتنع من التواضع أحد، والتواضع يُكسب السلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصد، وثمرة التواضع: المحبة، كما أن

ثَمَرَةُ الْقَنَاعَةِ: الرَّاحَةُ، وَإِنْ تَوَاضَعَ الشَّرِيفُ يَزِيدُ فِي شَرَفِهِ، كَمَا أَنَّ تَكْبَرَ الْوَضِيعُ يَزِيدُ فِي ضِعْفَتِهِ، وَكَيْفَ لَا يَتَوَاضَعُ مَنْ خُلِقَ مِنْ نَظْفَةِ مَذْرَةِ، وَآخِرُهُ يَعُودُ جِيْفَةً قَذْرَةً، وَهُوَ بَيْنَهُمَا يَحْمِلُ الْعُذْرَةَ؟!

سَمِعْتُ أَبَا يَعْلَى يَقُولُ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ أَبِي إِسْرَائِيلَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عِيْنَةَ يَقُولُ: لَوْ قِيلَ: أَخْرَجُوا خِيَارَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، لَأَخْرَجُوا مَنْ لَا نَعْرَفُ. وَأَنْشَدَنِي الْكَرِيزِيُّ:

وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ إِلَّا تَوَاضِعًا فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمْ مِنْكَ أَرْفَعُ
فَإِنْ كُنْتَ فِي عِزٍّ وَخَيْرٍ وَمَنْعَةٍ فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمْ مِنْكَ أَمْنَعُ
أَنْشَدَنَا أَبُو عَرُوبَةَ أَوْ ابْنُ قَتِيْبَةَ، قَالَ: أَنْشَدَنَا الْمَسِيبُ بْنُ وَاضِحٍ، عَنْ يُوْسُفَ ابْنِ أَسْبَاطَ:

وَكَفَى بِمُلْتَمِسِ التَّوَاضُعِ رِفْعَةً وَكَفَى بِمُلْتَمِسِ الْعُلُوسِ فَالًا
أَنْبَأَنَا ابْنُ خُزَيْمَةَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامِ الْمَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «حَجَّ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَشْرَ حَجَجٍ مَاشِيًا، وَنُجِبَتْهُ تَقَادُ إِلَى جَنْبِهِ».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: أَفْضَلُ النَّاسِ: مَنْ تَوَاضَعَ عَنْ رِفْعَةٍ، وَزَهَدَ عَنْ قُدْرَةٍ، وَأَنْصَفَ عَنْ قُوَّةٍ، وَلَا يَتْرَكَ الْمَرْءُ التَّوَاضُعَ إِلَّا عِنْدَ اسْتِحْكَامِ التَّكْبَرِ، فَلَا يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا بِإِعْجَابِهِ بِنَفْسِهِ، وَعَجِبَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ أَحَدٌ حَسَادَ عَقْلِهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا تَكْبَرُ عَلَى مَنْ دُونَهُ إِلَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالذَّلَّةِ لِمَنْ فَوْقَهُ.

وَأَنْشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ الْخِلَادِيُّ:

وَدَعَ التَّيَّهَ وَالْعُبُوسَ عَلَى النَّاسِ سِ فَإِنَّ الْعُبُوسَ رَأْسُ الْحَمَاقَةِ
كُلَّمَا شِئْتَ أَنْ تُعَادِيَ عَادِيَهُ تَ صَدِيقًا وَقَدْ تَغَرُّ الصَّدَاقَةِ

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: مَا اسْتُجْلِبَتِ الْبَغْضَةُ بِمِثْلِ التَّكْبَرِ، وَلَا اكْتَسَبَتِ الْمَحَبَّةُ

بِمِثْلِ التَّوَاضُّعِ، وَمَنْ اسْتَطَالَ عَلَى الْإِخْوَانِ فَلَا يَثْقَنَ مِنْهُمْ بِالصَّفَاءِ، وَلَا يَجِبُ لِصَاحِبِ الْكِبَرِ أَنْ يَطْمَعَ فِي حَسَنِ الثَّنَاءِ، وَلَا تَكَادُ تَرَى تَائِهًا إِلَّا وَضِيعًا.

فَالْعَاقِلُ إِذَا رَأَى مِنْ هُوَ أَكْبَرَ سِنًا مِنْهُ تَوَاضَعَ لَهُ، وَقَالَ: سَبَقَنِي إِلَى الْإِسْلَامِ، وَإِذَا رَأَى مِنْ هُوَ أَصْغَرَ سِنًا تَوَاضَعَ لَهُ، وَقَالَ: سَبَقْتَهُ بِالذُّنُوبِ، وَإِذَا رَأَى مِنْ هُوَ مِثْلُهُ عَدَهُ أَخًا، فَكَيْفَ يَحْسُنُ تَكْبِيرَ الْمَرْءِ عَلَى أَخِيهِ؟ وَلَا يَجِبُ اسْتِحْقَارُ أَحَدٍ؛ لِأَنَّ الْعُودَ الْمَنْبُودَ رَبِّمَا انْتَفَعَ بِهِ فَحَكَ الرَّجُلُ بِهِ أُذُنَهُ.

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُسَيْبِ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ مُزَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ شَعِيبِ بْنِ شَابُورٍ يَقُولُ: «دَخَلَ رَجُلٌ الْحَمَّامَ، وَزَيْدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ فِيهِ، وَكَانَ أَسْوَدُ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَسْوَدُ قُمْ فَاغْسِلْ رَأْسِي. قَالَ: فَقَامَ فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ فَغَسَلَ رَأْسَهُ، وَدَلَكَ جَسَدَهُ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: كَثَّرَ اللَّهُ فِي السُّودَانِ مِثْلَكَ، قَالَ: أَحَبَبْتُ أَنْ يَكْثَرَ مَنْ يَخْدُمُكَ».

أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زَنْجَوِيهِ الْقَشِيرِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَدِينِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَدَكَ اللَّهُ الْبَاغِي مِنْهُمَا».

أَنْبَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا نُوحُ بْنُ قَيْسٍ، عَنْ أَخِيهِ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «مَا نَسِيتُ شَيْئًا قَطُّ، ثُمَّ قَالَ لِغَلَامِهِ: نَاوِلْنِي نَعْلِي، قَالَ: نَعْلُكَ فِي رَجْلِكَ».

أَنْبَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمْرٍو، أَنْبَأَنَا عَلِيُّ بْنُ خَشْرَمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الْفَضْلَ بْنَ مُوسَى يَقُولُ: «كَانَ مَالِكُ يَنْسَى، فَقَالَ لِقَهْرْمَانِهِ: اشْتَرِ لِي غَلَامًا وَسَمِّهِ بِاسْمٍ خَفِيفٍ حَتَّى لَا أَنْسَاهُ، قَالَ: فَاشْتَرَى لَهُ غَلَامًا، وَأَدْخَلَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اشْتَرَيْتَ لَكَ هَذَا الْغَلَامَ، وَسَمِيَّتَهُ بِاسْمٍ خَفِيفٍ، قَالَ: مَا سَمِيَّتَهُ؟ قَالَ: فَرَقْدُ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَى الْغَلَامِ، وَقَالَ: اجْلِسْ يَا وَاقِدُ».

ذكر استحباب التعجب إلى الناس من غير مقارفة المأثم

أُنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار بـ«بغداد»، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا عبدة بن سليمان، عن هشام بن عروة، عن موسى بن عقبة، عن عبد الله بن عمرو الأودي، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ».

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل أن يتعجب إلى الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق؛ لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا، كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل، كما يفسد الخل العسل، وقد تكون في الرجل أخلاق كثيرة صالحة كلها، وخلق سيئ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الصالحة كلها.

وأنشدني البغدادي:

خَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ لَا تَكُنْ كَلْبًا عَلَى النَّاسِ يَهْزُ
وَالْقَهْمُ مِنْكَ بِبَشَرٍ ثُمَّ صُنْ عَنْهُمْ عِرْضَكَ عَنْ كُلِّ قَذِرْ

أُنبأنا حامد بن شعيب البلخي بـ«بغداد»، حدثنا سريح بن يونس، حدثنا سفيان، عن إبراهيم، عن ميسرة، عن طاوس قال: سمعت ابن عباس يقول: «إن الرحم تُقَطَّعُ، وإن النعم تكفر، ولم أر مثل تقارب القلوب».

أُنبأنا الخلادي، حدثنا مُحَمَّد بن المغيرة النوفلي، حدثنا عبد العزيز بن منيب، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «إذا خالطت فخالط حسن الخلق، فإنه لا يدعو إلا إلى خير، وصاحبه منه في راحة، ولا تُخالط سيئ الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى شر، وصاحبه منه في عناء، ولأن يصحبني فاجرٌ حسن الخلق أحبُّ إليَّ من أن يصحبني قارئ سيئ الخلق، إن الفاسق إذا كان

حسن الخلق عاش بعقله وخف على الناس وأحبه، وإن العابد إذا كان سيئ الخلق ثقل على الناس ومقتوه».

وأنشدني مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، أنشدني مُحَمَّد بن إبراهيم اليعمري:

حَافِظٌ عَلَى الْخُلُقِ الْجَمِيلِ وَمُرٌّ بِهِ مَا بِالْجَمِيلِ وَبِالْقَبِيحِ خَفَاءُ
إِنْ ضَاقَ مَالُكَ عَنْ صَدِيقِكَ فَالْقَهْ بِالْبَشْرِ مِنْكَ إِذَا يَحِينُ لِقَاءُ

أنبأنا الحسين بن إسحاق الأصبهاني، حدثنا يحيى بن حكيم المقومى، حدثنا الخليل بن عبد العزيز، قال: سمعت حماد بن سلمة يقول: «الصوم في البستان من الثقل».

قال أبو حاتم رحمته الله: حسن الخلق: بذر اكتساب المحبة، كما أن سوء الخلق: بذر استجلاب البغضة، ومن حسن خلقه صان عرضه، ومن ساء خلقه هتك عرضه؛ لأن سوء الخلق يورث الضغائن، والضغائن إذا تمكنت في القلوب أورثت العداوة، والعداوة إذا ظهرت من غير صاحب الدين أهوت صاحبها إلى النار، إلا أن يتداركه المولى بتفضل منه وعفو.

أنبأنا مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضمرة، عن رجاء بن أبي سلمة، عن الزهري قال: «وهل يُنتفع من السيئ الخلق بشيء؟».

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

لِلْخَيْرِ أَهْلٌ لَا تَزَا لُؤْجُوهُمْ تَدْعُو إِلَيْهِ
طُوبَى لِمَنْ جَرَّتِ الْأُمُ رُ الصَّالِحَاتُ عَلَى يَدَيْهِ
مَا لَمْ يَضِقْ خُلُقُ الْفَتَى فَالْأَرْضُ وَاسِعَةٌ عَلَيْهِ

أنبأنا أبو يعلى، حدثنا عبد الله بن مُحَمَّد بن أسماء، حدثنا مهدي بن ميمون، عن موسى بن عبيد، عن ميمون بن مهران قال: «التودد إلى الناس نصف العقل،

وحسن المسألة نصفُ العلم، واقتصادك في معيشتك يُلقِي عنك نصف المئونة».

قال أبو حاتم رحمه الله: التحبب إلى الناس أسهل ما يكون وجهًا، وأظهر ما يكون بشرًا، وأقصد ما يكون أمرًا، وأرفق ما يكون نهيًا، وأحسن ما يكون خلقًا، وألين ما يكون كنفًا، وأوسع ما يكون يدًا، وأدفع ما يكون أذى، وأعظم ما يكون احتمالًا، فإذا كان المرء بهذا النعت لا يَحْزَنُ من يُحِبُّهُ ولا يَفْرَحُ من يَحْسُدُهُ؛ لأن من جعل رضاه تبعًا لرضا الناس، وعاشرهم من حيث هم؛ استحق الكمال بالسؤدد.

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

أَعَاشِرُ مَعْشَرِي فِي كُلِّ أَمْرٍ بِأَحْسَنِ مَا رَأَيْتُ وَمَا رَأَيْتُ
وَأَجَنِبُ الْمَقَابِعَ حَيْثُ كَانَتْ وَأَتْرُكُ مَا هَوَيْتُ وَمَا فَرَيْتُ

قال أبو حاتم رحمه الله: حاجة المرء إلى الناس مع محبتهم إياه خير من غناه عنهم مع بغضهم إياه، والسبب الداعي إلى ضد محبتهم له: هو التضايق في الأخلاق، وسوء الخلق؛ لأن من ضاق خلقه سأمه أهله وجيرانه، واستثقله إخوانه، فحينئذ تَمَنُوا الخلاص منه، ودعوا بالهلاك عليه.

سمعت عمر بن سعيد بن سنان الطائي يقول: سمعت أبا الحسن الرُّهَافِي

يقول: سمعت يزيد بن هارون يقول:

فَقَدْتُ ثِقَالَ النَّاسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ فَيَا رَبَّ لَا تَغْفِرْ لِكُلِّ ثَقِيلٍ

أنبأنا أحمد بن مُحَمَّد بن الحسن البلخي، حدثنا مُحَمَّد بن إدريس

الحافظ، حدثنا مُحَمَّد بن عبد الله بن إسماعيل قال: سمعت عمرو بن الحارث

يقول: تسخين العين النظر إلى من تكره.

قال أبو حاتم رحمه الله: الاستئصال من الناس يكون سببه شيئين:

أحدهما: مقارفة المرء ما نهى الله عنه من المآثم؛ لأن من تعدى حرمان

الله أبغضه الله، ومن أبغضه الله أبغضته الملائكة، ثم يوضع له البغض في الأرض،

فلا يكاد يراه أحد إلا استثقله وأبغضه.

والسبب الآخر: هو استعمال المرء من الخصال ما يكره الناس منه، فإذا كان كذلك؛ استحق الاستثقال منهم.

وأنشدني الكريزي:

لَيْتَنِي كُنْتُ سَاعَةً مَلَكَ الْمَـ مَوْتٍ فَأُنْفِي الثَّقَالَ حَتَّى يَبِيدُوا
وَلَوْ أَنِّي وَأَنْتَ فِي جَنَّةِ الْخُـ لَمَدِّ لَقُلْتُ: الْخُرُوجَ مِنْهَا أُرِيدُ
لَدْخُولِ الْجَحِيمِ أَهْوَنُ مِنْ جَنِّ سَةِ خُلْدٍ أَرَاكَ فِيهَا تَرْوُدُ

أنبأنا عمر بن حفص البزاز بـ«جنديسابور» حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا أبو مسهر، حدثنا هشام بن يحيى قال: «كان نقش خاتم أبيك -يعني: أبا أبي مسهر-: أبرمت؛ فقم، قال: فكان إذا جلس إليه الرجل فتثاقل حرك خاتمته، وقال: اقرأ نقش خاتمي، وكان إذا قرأ قام».

أنبأنا أحمد بن محمد بن الحسن، حدثنا محمد بن إدريس، حدثنا موسى ابن إسماعيل، حدثنا موسى بن رباح قال: سمعت مخلداً -أبا أبي عاصم- يقول: إذا أبغضت الرجل أبغضت شقي الذي يليه.

سمعت محمد بن السري البغدادي يقول: سمعت أبا بكر المروزي يقول: سألت أحمد بن حنبل عن الثقلاء، فقال: سألت عنهم بشراً الحافي، فقال: النظر إليهم سُخْنة العين، قلت لأحمد: من الثقلاء؟ قال: أهل البدع.

قال أبو حاتم رحمته الله: هذا الذي قال أحمد بن حنبل -رحمة الله عليه- هو استثقال الخاص، إذا عرف أحدهم من بعض الناس ثلماً في السنة؛ أبغضه على بدعته، فأما العام فلا يكادون يعادون ويوالون إلا على المحبوب من الخصال، والمكروه من الفعال، ألا ترى المقنع الكندي حيث يقول لبعض من صحبه:

أَلَا يَأْمُرُكَبَ الْمَقْتِ الْـ لَذِي أَرْسَى فَلَا يَبْرَحُ

وَيَا مَنْ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ تِ مِنْ طَلَعَتْهُ أَرْوَحُ
لَقَدْ صُورَتْ فِي فِكْرِي فَلَا أَذْرِي لِمَا تَصْلُحُ
فَلَا تَصْلُحُ أَنْ تُهْجَى وَلَا تَصْلُحُ أَنْ تُمْدَحُ
بَلَى تَصْلُحُ أَنْ تُقْتَدَ لَ أَوْ تُصْلَبَ أَوْ تُذْبَحُ

سمعت أحمد بن محمد البلخي الذهبي يقول: قال محمد بن أبي الورد:
قال يحيى بن ماسويه: النظر إلى الثقل حمى تعترى بين الجلدين.

حدثنا أحمد بن عمر بن يزيد يقول: سمعت سلمة بن شبيب يقول:
سمعت أبا أسامة يقول: اتنوني بمستمل خفيف على الفؤاد، وإيائي والثقلاء،
وإيائي والثقلاء.

أنبأنا أحمد بن محمد بن الحسن، حدثنا عباس بن أبي طالب، حدثنا
إبراهيم ابن المنذر، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن ابن سيرين قال: سمعت
رجلاً من أهل البادية يقول: نظرت إلى ثقل مرة فغشي علي.
وأنشدني المنتصر بن بلال:

وَأَنْتَ عَلَى مَوَدَّتِنَا حَرِيصٌ وَلَكِنْ لَا تَخِفْ عَلَى الْفُؤَادِ
وَأَثْقَلُ مِنْ رَحَابِذِ عَلَيْنَا كَأَنَّكَ مِنْ بَقَايَا قَوْمِ عَادِ

حدثنا إبراهيم بن نصر بن عنبر، حدثنا يوسف بن عيسى، حدثنا وكيع، حدثنا
أبو سهل، عن إبراهيم بن بكير قال: كان أبو هريرة إذا استثقل جلساً له قال:
«اللهم اغفر لنا وله، وأرحنا منه في عافية».

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل مُجَانِبَةُ الْخِصَالِ الَّتِي تَوْرَثُ اسْتِثْقَالَ
النَّاسِ إِيَّاهُ، وَمِلَازِمَةُ الْخِصَالِ الَّتِي تَوْدِيهِ إِلَى مُحِبَّتِهِمْ إِيَّاهُ.

ومن أعظم ما يتوسل به إلى الناس، ويستجلب به محبتهم: البذل لهم ممّا

يَمْلِكُ الْمَرْءُ مِنْ حُطَامِ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَاحْتِمَالِهِ عَنْهُمْ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الْأَذَى.

فَلَوْ أَنَّ الْمَرْءَ صَحَبَهُ طَائِفَتَانِ؛ إِحْدَاهُمَا تَحِبُّهُ، وَالْأُخْرَى تَبْغُضُهُ، فَأَحْسَنَ إِلَى الَّتِي تَبْغُضُهُ، وَأَسَاءَ إِلَى الَّتِي تَحِبُّهُ، ثُمَّ أَصَابَتْهُ نَكْبَةٌ فَاحْتَاجَ إِلَيْهِمَا، لَكَانَ أَسْرَعَهُمَا إِلَى خَذْلَانِهِ وَأَبْعَدَهُمَا عَنْ نَصْرَتِهِ: الطَّائِفَةُ الَّتِي كَانَتْ تُحِبُّهُ، وَأَسْرَعَهُمَا إِلَى نَصْرَتِهِ وَأَبْعَدَهُمَا عَنْ خَذْلَانِهِ: الطَّائِفَةُ الَّتِي تَبْغُضُهُ؛ لِأَنَّ الْكَلْبَ إِذَا شَبِعَ قَوِي، وَإِذَا قَوِيَ أَمَلَّ، وَإِذَا أَمَلَّ تَبَعَ الْمَأْمُولُ، وَإِذَا جَاعَ ضَعْفٌ، وَإِذَا ضَعْفَ أَيْسَ، وَإِذَا أَيْسَ وَلَّى عَنِ الْمَتْبُوعِ.

فَمَنْ عُدِمَ الْمَالُ فَلْيَبْسُطْ وَجْهَهُ لِلنَّاسِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقُومُ مَقَامَ بَذْلِ الْمَعْرُوفِ؛ إِذْ هُوَ أَحَدُ طَرَفَيْهِ.

أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَهَاجِرِ الْمَعْدِلِ، حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عَبْدِ الْخَالِقِ الْمَازِنِيِّ قَالَ: سَأَلَ ابْنَ الْمُبَارَكِ عَنْ حَسَنِ الْخَلْقِ، فَقَالَ: «هُوَ بَسْطُ الْوَجْهِ، وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ».

أَنْبَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَمَارٍ الْحُسَيْنِيُّ بْنُ حَرْيْثٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْأَسَدِيُّ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: «خَرَجَ غُلَامٌ لَنَا بِقُمَامَةِ الدَّارِ، أَوْ بِكُنَاسَةِ الدَّارِ، عُريَانٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ: يَا خَبِيثُ ارْفَعْ إِزَارَكَ».

أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْبَذُورِيِّ بِ«الْبَصْرَةِ» حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ بَشَارٍ الرَّمَادِيُّ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ بْنُ عَيِّنَةَ، عَنْ ابْنِ أَبِي نُجَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: «إِذَا لَقِيَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ فَصَافَحَهُ وَكَشَّرَ فِي وَجْهِهِ تَحَاتَّتْ ذُنُوبُهُ، كَمَا تَحَاتُّ الْعَذَقُ مِنَ النَّخْلَةِ. فَقَالَ رَجُلٌ لِمُجَاهِدٍ: يَا أَبَا الْحِجَّاجِ، إِنَّ هَذَا مِنَ الْعَمَلِ الْيَسِيرِ. فَقَالَ مُجَاهِدٌ: «هُوَ الَّذِي إِذَا بَصُرَ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [الأنفال: ٦٢-٦٣]. أَفْسِيرُ هَذَا؟.

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ لُزُومِ الْمُدَارَاةِ وَتَرْكِ الْمُدَاهَنَةِ مَعَ النَّاسِ

أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ قَتِيبَةَ اللَّخْمِيَّ بِ«عَسْقلان» وَعَمْرُ بْنُ سَعِيدٍ بـ

سنان الطائي بـ«مَنْبِج» قالوا: حدثنا ابن واضح، حدثنا يوسف بن أسباط، حدثنا سفیان، عن مُحَمَّد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مُدَارَةُ النَّاسِ صَدَقَةٌ».

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل أن يلزم المداراة مع من دفع إليه في العشرة من غير مقارفة المداهنة؛ إذ المداراة من المداري: صدقة له، والمداهنة من المداهن: تكون خطيئة عليه.

والفصل بين المُدَارَةِ والمداهنة: هو أن يجعل المرء وقته في الرياضة لإصلاح الوقت الذي هو به مقيم بلزوم المداراة من غير ثلم في الدين من جهة من الجهات، فمتى ما تخلَّق المرء بخلق شابه بعض ما كره الله منه في تخلقه، فهذا هو المداهنة - لا المداراة -؛ لأن العاقل يجتنب المداهنة؛ لأن عاقبتها تصير إلى قُلٍّ، ويلزم المداراة؛ لأنها تدعو إلى صلاح أحواله، ومن لم يدار الناس مَلُوهُ، كما أنشدني علي بن مُحَمَّد البسَّامي:

دَارِ مِنَ النَّاسِ مُلَاتِهِمْ مَنْ لَمْ يُدَارِ النَّاسَ مَلُوهُ
وَمُكْرِمِ النَّاسِ حَبِيبٌ لَهُمْ مَنْ أَكْرَمَ النَّاسَ أَحَبُّوهُ

أنبأنا مُحَمَّد بن أحمد بن أبي عون الرياني، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا ابن المبارك، عن الحسن بن عمرو، عن منذر الثوري، عن ابن الحنفية قال: «ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بُدْءًا، حَتَّى يَأْتِيَهُ الله منه بالفرج أو المخرج».

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل أن يداري الناس مداراة الرجل السابح في الماء الجاري، ومن ذهب إلى عشرة الناس من حيث هو؛ كدَّر على نفسه عيشه، ولم تصف له مَوَدَّتُهُ؛ لأن وداد الناس لا يُسْتَجْلَب إلا بِمُسَاعَدَتِهِمْ على ما هُم عليه إلا أن يكون مأثماً، فإذا كانت حالة معصية فلا سَمْع ولا طاعة، والبَشْرُ قد رُكِبَ فيهم أهواءٌ مُخْتَلِفَةٌ وطبائع متباينة، فكما يشقُّ عليك ترك ما

جُبلت عليه، فكذلك يشقُّ على غيرك مُجانبة مثله، فليس إلى صَفْوٍ وِدَادِهِمْ سَبِيلُ،
إِلَّا بِمَعَاشِرَتِهِمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ، وَالْإِغْضَاءُ عَنْ مُخَالَفَتِهِمْ فِي الْأَوْقَاتِ.

أَنشَدَنِي الْأَبْرَشُ:

وَقَالَتْ وَهَزَّتْ رَأْسَهَا وَتَضَاكَحَتْ عَلَى الْوُدِّ نُجْفَى أَمْ عَلَى الْعَهْدِ نُوَصِّلُ
فَقُلْتُ: فَلَمْ أَفْعَلْ .. فَقَالَتْ تُرِيدُهُ فَقُلْتُ: فَلَمْ أَفْعَلْ .. فَقَالَتْ: سَتَفْعَلُ

أَنبَأَنَا ابْنُ قَحْطَبَةَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْمَقْدَامِ، حَدَّثَنَا حَزْمٌ قَالَ: سَمِعْتُ
حَبِيبَ بْنِ الشَّهِيدِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الْحَسْنَ الْبَصْرِيَّ يَقُولُ: «يَا ابْنَ آدَمَ، اصْحَبِ
النَّاسَ بِأَيِّ خُلُقٍ شِئْتَ يَصْحَبُوكَ عَلَيْهِ».

وَأَنشَدَنِي الْكَرِيزِيُّ:

تَجَنَّنِي عَلَىِّ بِمَا قَدْ جَنَى وَيُعْلِظُ فِي الْقَوْلِ إِنْ لَنْتُ لَهُ
وَيَسْبِقُ بِالْعَذْلِ لِي ظَالِمًا كَأَنَّ الصَّوَابَ لَهُ لَا لِيْهِ
كَمَا قَالَ فِي مَثَلٍ عَالِمٌ: خُذِ اللَّصَّ بِالذَّنْبِ لَا تُغْفِلْهُ

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمه الله: مِنَ التَّمَسُّ رِضَا جَمِيعِ النَّاسِ التَّمَسُّ مَا لَا يُدْرِكُ، وَلَكِنْ
يَقْصِدُ الْعَاقِلُ رِضَا مَنْ لَا يَجِدُ مِنْ مَعَاشِرَتِهِ بُدًّا، وَإِنْ دَفَعَهُ الْوَقْتُ إِلَى اسْتِحْسَانِ
أَشْيَاءَ مِنَ الْعَادَاتِ كَانَ يَسْتَقْبَحُهَا، وَاسْتَقْبَاحُ أَشْيَاءَ كَانَ يَسْتَحْسِنُهَا، مَا لَمْ يَكُنْ
مَأْتِمًا؛ فَإِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُدَارَاةِ، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ دَارَى فَلَمْ يَسْلَمْ، فَكَيْفَ تَوْجَدُ السَّلَامَةَ
لِمَنْ لَا يَدَارِي؟

أَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِيُّ:

يَا ذَا الَّذِي أَصْبَحَ لَا وَالِدَ لَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَلَا وَالِدَ
قَدْ مَاتَ مِنْ قَبْلِهِمَا آدَمُ فَأَيُّ نَفْسٍ بَعْدَهُ خَالِدَ
إِنْ جِئْتَ أَرْضًا أَهْلُهَا كُلُّهُمْ عَوْرٌ فَعَمَّضَ عَيْنَكَ الْوَاحِدَ

أُنْبَأَنَا أَبُو يَعْلَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَسْمَاءَ، حَدَّثَنَا مَهْدِي بْنُ مَيْمُونٍ، حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ سَعْدٍ الْأَعُورُ قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ فَحَدَّثَ رَجُلٌ بِحَدِيثٍ، فَعَرَّضَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِي حَدِيثِهِ، فَغَضِبَ، وَقَالَ: مَا هَذِهِ الطَّبَاعُ؟ إِنِّي لَأَسْمَعُ الْحَدِيثَ مِنَ الرَّجُلِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِهِ، فَأَرِيهِ كَأَنِّي لَا أَحْسَنُ مِنْهُ شَيْئًا».

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَهَاجِرِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّيْدَاوِيُّ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الْمَدَائِنِيِّ، قَالَ: قَالَ مُعَاوِيَةُ: «لَوْ أَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ شَعْرَةٌ مَا انْقَطَعَتْ، قِيلَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: لَأَنْتَهُمْ إِنْ مَدُّوْهَا خَلَّتْهُمَا، وَإِنْ خَلَّوْا مَدَدْتُهَا».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ لَمْ يَعَاشِرِ النَّاسَ عَلَى لُزُومِ الْإِغْضَاءِ عَمَّا يَأْتُونَ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَتَرَكَ التَّوَقُّعَ لِمَا يَأْتُونَ مِنَ الْمَحْبُوبِ، كَانَ إِلَى تَكْدِيرِ عَيْشِهِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى صِفَائِهِ، وَإِلَى أَنْ يَدْفَعَهُ الْوَقْتُ إِلَى الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى أَنْ يَنَالَ مِنْهُمْ الْوُدَادَ وَتَرَكَ الشَّحْنَاءَ، وَمَنْ لَمْ يَدَارِ صَدِيقَ السُّوءِ كَمَا يَدَارِي صَدِيقَ الصَّدْقِ لَيْسَ بِحَازِمٍ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي يَقُولُ:

تَجَنَّبْ صَدِيقَ السُّوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصَّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

أُنْبَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَفْيَانَ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ الْحُورَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُسَهَّرٍ، حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ هَاشِمٍ، عَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ، قَالَ: قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَأُمِّ الدَّرْدَاءِ: «إِذَا غَضِبْتُ فَرَضِّينِي، وَإِذَا غَضِبْتَ رَضِّيتُكَ، فَإِذَا لَمْ نَكُنْ هَكَذَا مَا أَسْرَعُ مَا نَفْتَرِقُ».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْعَاقِلُ إِذَا دَفَعَهُ الْوَقْتُ إِلَى صَحْبَةِ مَنْ لَا يَثِقُ بِصَدَاقَتِهِ، أَوْ صَدَاقَةٍ مِنْ لَا يَثِقُ بِأَخُوْتِهِ، فَرَأَى مِنْ أَحَدِهِمَا زَلَّةً فَرَفَضَهُ لَزَلَتِهِ، بَقِيَ وَحِيدًا لَا يَجِدُ مِنْ يَعَاشِرِ، فَرِيدًا لَا يَجِدُ مِنْ يَخَادِنِ، بَلْ يُغْضِي عَلَى الْأَخِ الصَّادِقِ زَلَاتِهِ، وَلَا يَنَاقِشُ الصَّدِيقَ السَّيِّئَ عَلَى عَثَرَاتِهِ؛ لِأَنَّ الْمُنَاقِشَةَ تَلْزِمُهُ فِي تَصْحِيحِ أَصْلِ الْوُدَادِ أَكْثَرَ مِمَّا تَلْزِمُهُ فِي فِرْعِهِ.

ومن أنواع المداراة: ما حدثني به الحسن بن سفيان، حدثنا عبد الله بن أحمد بن شويه، حدثنا الحسن بن واقع، حدثنا ضمرة، عن ابن شاذب قال: «كانت لرجل جارية، فوطئها سرًا، فقال لأهله: إن مريم كانت تغتسل في هذه الليلة، فاغتسلوا، فاغتسل هو، واغتسل أهله، قال ابن شاذب: وكانت مريم تغتسل في كل ليلة».

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

أَغْمَضُ عَيْنِي عَنْ صَدِيقِي كَأَنِّي لَدَيْهِ بِمَا يَأْتِي مِنَ الْقُبْحِ جَاهِلُ
وَمَا بِي جَهْلٌ غَيْرَ أَنَّ خَلِيقَتِي تُطِيقُ اخْتِمَالَ الْكُزْهِ فِيمَا أَحَاوِلُ
مَتَى مَا يَرِبُنِي مَفْصِلٌ فَقَطَعْتُهُ بَقِيتُ وَمَا لِي فِي نُهْوضِ مَفَاصِلُ
وَلَكِنْ أَدَارِيهِ فَإِنْ صَحَّ سَرَرَنِي فَإِنْ هُوَ أَعْيَا كَانَ فِيهِ تَحَامُلُ

أنبأنا محمد بن أبي علي الخلادي، حدثنا محمد بن الحسن الذهلي، عن أبي السائب قال: قال علي: «لا تعامل بالخديعة، فإنها خلقت للثام، وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أم قبيحة، وساعده على كل حال، وزل معه حيث زال».

ذكر استحباب إفشاء السلام وإظهار البشر والتبسم

أنبأنا محمد بن صالح الطبري، حدثنا الفضل بن سهل الأعرج، حدثنا محمد بن جعفر المدائني، حدثنا ورقاء، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَضَعَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ إِذَا مَرَّ بِالْقَوْمِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ؛ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلٌ دَرَجَةٍ بِتَذْكِيرِهِ إِيَّاهُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ رَدٌّ عَلَيْهِ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَأَطْيَبُ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يلزم إفشاء السلام على العام؛

لأن من سلّم على عشرة كان له عتق رقبة، والسلام ممّا يذهب إفشاؤه بالمكتنّ من الشحناء، وما في الخلد من البغضاء، ويقطع الهجران، ويصافي الإخوان.

والبادئ بالسلام بين حسنتين: إحداهما: تفضيل الله ﷻ إياه على المُسلّم عليهم بفضل درجة؛ لتذكيره إياهم بالسلام، الثانية: وبين رد الملائكة عليهم عند غفلتهم عن الرد.

ولقد أنبأنا عمرو بن مُحمّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا شعيب بن واقد، حدثنا جرير قال: قال زيد اليامي: «إن أجود الناس من أعطى مالا لا يريد جزاءه، وإنّ أحسن الناس عفوًا من عفا بعد قدرة، وإن أفضل الناس من وصل من قطعه، وإن أبخل الناس من بخل بالسلام».

أخبرنا أبو خليفة، حدثنا مُحمّد بن كثير، أنبأنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن صلة بن زفر العبسي، قال: حدثنا عمار بن ياسر قال: «ثلاث من جمعهن جمع الإيمان: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على المسلم إذا لقي أخاه المسلم أن يُسلّم عليه مُتَبَسِّمًا إليه، فإن من فعل ذلك تحاتّ عنهما خطاياهما كما تحاتّ ورق الشجر في الشتاء إذا يَبَسَ، وقد استحقّ المحبة من الناس من أعطاهم بشر وجهه.

ولقد أخبرني مُحمّد بن المهاجر المعدل، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام العنبري، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، حدثنا إسماعيل بن حماد، عن سُعير بن الخمس قال: قيل له: ما أبشك؟ «قال: إنه يقوم عليّ برخيص».

وأنشدني الأبرش:

أَخُو الْبَشْرِ مَحْبُوبٌ عَلَى حُسْنِ بَشَرِهِ وَلَنْ يَعْدِمَ الْبَغْضَاءُ مَنْ كَانَ عَابِسًا
وَيُسْرِعُ بِخُلِّ الْمَرْءِ فِي هَتَكِ عِزِّهِ وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْجُودِ لِلْمَرْءِ حَارِسًا

قال أبو حاتم رحمته الله: البشاشة إدام العلماء وسجّية الحكماء؛ لأن البشر يطفئ نار المُعاندة، ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصينٌ من الباغي، ومنجاة

من الساعي، ومن بشَّ للناس وجهًا لم يكن عندهم بدون الباذل لهم ما يملك.
 أخبرنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا إبراهيم بن مُحَمَّد العبادي، حدثنا
 سويد، عن علي بن مسهر، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: «أُخبرت أنه مكتوب في
 الحكمة: يا بُنَيَّ، ليكن وجهك بسيطًا، ولتكن كلمتك طيبةً تكن أحبَّ إلى الناس
 من أن تعطيتهم العطاء».

وأنشدني الخلادي، أنشدنا أحمد بن بكر بن خالد الزبيدي لسعيد بن عبيد
 الطائي:

الْقَ بِالْبِشْرِ مَنْ لَقِيتَ مِنَ الدَّاسِ جَمِيعًا وَلَا قِهِمْ بِالطَّلَاقِ
 تَجْنِ مِنْهُمْ جَنَى ثِمَارٍ فَخُذْهَا طَيِّبًا طَعْمُهُ لَذِيذُ الْمَدَاقِ

أخبرنا مُحَمَّد بن صالح الطبري، حدثنا مُحَمَّد بن حميد، حدثنا حَكَّام بن
 سلم، عن سعيد بن عبد الرحمن الزبيدي قال: «يعجبني من القراء كل سهل طلق
 مضحك، فأما من تلقاه ببشر ويلقاك بعُوس يَمُنُّ عليك بعمله، فلا أكثر الله في القراء
 ضرب هذا».

قال أبو حاتم رحمته الله: لا يجب على العاقل إذا رُزق السلوك في ميدان طاعة
 من الطاعات إذا رأى من قَصَّر في سلوك قصده أن يعبس عليه بعمله وجهه، بل
 يُظهر البشر والبشاشة له، فلعله في سابق علم الله أن يرجع إلى صحة الأوبة إلى
 قصده، مع ما يجب عليه من الحمد لله والشكر له على ما وفقه لخدمته، وحرَمَ
 غيره مثله:

أخبرنا مُحَمَّد بن أبي علي الخلادي، أخبرني مُحَمَّد بن موسى السمري
 أن حماد بن إسحاق أنشداهم:

فَتَى مِثْلُ صَفْوِ الْمَاءِ أَمَّا لِقَاؤُهُ فَبِشْرٌ وَأَمَّا وَعْدُهُ فَجَمِيلُ
 يَسْرُكُ مُفْتَرًّا وَيُشْرِقُ وَجْهُهُ إِذَا اغْتَلَّ مَذْمُومُ الْفِعَالِ بِخَيْلُ

عَيَّ عَنِ الْفَحْشَاءِ أَمَّا لِسَانُهُ فَعَفٌّ وَأَمَّا طَرَفُهُ فَكَالِيلٌ

وأنشدني منصور بن مُحَمَّد الكريزي:

لَنْ تَسْتَتِمَّ جَمِيلًا أَنْتَ فَاعِلُهُ إِلَّا وَأَنْتَ طَلِيقُ الْوَجْهِ بُهْلُولُ
مَا أَوْسَطَ الْخَيْرِ فَابْسُطْ رَاحَتَيْكَ بِهِ وَكُنْ كَأَنَّكَ دُونَ الشَّرِّ مَغْلُولُ

أنبأنا مُحَمَّد بن المُهاجر المعدل، حدثنا الدارمي موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن إسماعيل بن سالم، عن حبيب بن أبي ثابت قال: «من حُسن خلق الرجل أن يحدث صاحبه وهو يَتَبَسَّم».

ذكر ما أبيح من المزاح للمرء وما كره له منه

أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى، حدثنا هذبة بن خالد، حدثنا همام بن يحيى، حدثنا قتادة، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «كَانَ لَهُ خَادِمٌ يُقَالُ لَهُ: أَنْجَشَةُ، وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَنْجَشَةُ، لَا تَكْسِرِ الْقَوَارِيرَ».

قال قتادة: يعني: ضَعْفَةُ النساء.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يستميل قلوب الناس إليه بالمزاح، وترك التعَبُّس.

والمزاح على ضربين: فمزاح محمود، ومزاح مذموم:

فأما المزاح المحمود: فهو الذي لا يَشُوبُه ما كره الله ﷻ، ولا يكون بإثم، ولا قطيعة رحم.

وأما المزاح المذموم: فالذي يثير العداوة، ويذهب البهاء، ويقطع الصداقة، ويُجرئ الدنيء عليه، ويحقّد الشريف به.

أخبرنا مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا إبراهيم بن مُحَمَّد الرقي، حدثنا أبو موسى الأنصاري، حدثنا بكر بن سليم قال: سمعت ربيعة يقول: «إياكم والمزاح، فإنه يُفسد المودة، ويُغِلُّ الصدر».

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ الْقَزَازِ، حَدَّثَنَا الْفَيْضُ بْنُ الْخَضِرِ التَّمِيمِيِّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ حُبَيْقٍ قَالَ: «كَانَ يُقَالُ: لَا تُمَازِحِ الشَّرِيفَ، فَيَحْقِدَ عَلَيْكَ، وَلَا تُمَازِحِ الْوَضِيعَ، فَيَجْتَرِيَّ عَلَيْكَ».

وَأُنْشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ:

أَكْرَمَ جَلِيسَكَ لَا تُمَازِحْ بِالْأَذَى إِنَّ الْمُزَاحَ تُرَى بِهِ الْأَضْغَانُ
كَمْ مِنْ مُزَاحٍ جَذَّ حَبْلَ قَرِينِهِ فَتَجَذَّمَتْ مِنْ أَجْلِهِ الْأَقْرَانُ

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: الْمَزَاحُ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ مَسْلَبَةٌ لِلْبَهَاءِ، مَقْطُوعَةٌ لِلصَّدَاقَةِ، يُوْرثُ الضُّغْنَ، وَيَنْبِتُ الْغِلَّ.

وَأَمَّا سُمِّيَ الْمَزَاحُ مَزَاحًا؛ لِأَنَّهُ زَا حٍ عَنِ الْحَقِّ، وَكَمْ مِنْ افْتِرَاقٍ بَيْنَ أَخَوَيْنِ، وَهَجْرَانٍ بَيْنَ مِتَّالِفَيْنِ، كَانَ أَوَّلَ ذَلِكَ الْمَزَاحُ.

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ الْقَرَشِيِّ، حَدَّثَنَا الْأَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، عَنْ أَبِي إِسْرَائِيلَ، عَنِ الْحَكَمِ قَالَ: «كَانَ يُقَالُ: لَا تَمَارِ صَدِيقَكَ، وَلَا تُمَازَحْهُ، فَإِنْ مُجَاهِدًا كَانَ لَهُ صَدِيقٌ، فَمَازَحْهُ، فَأَعْرَضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ، فَمَا زَادَهُ عَلَى السَّلَامِ حَتَّى مَاتَ».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: وَإِنْ مِنَ الْمَزَاحِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِتَهْيِيجِ الْمَرَاءِ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ اجْتِنَابُهُ؛ لِأَنَّ الْمَرَاءَ مَذْمُومٌ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا، وَلَا يَخْلُو الْمَمَارِيُّ مِنْ أَنْ يَفُوتَهُ أَحَدُ رَجُلَيْنِ فِي الْمَرَاءِ: إِمَّا رَجُلٌ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، فَكَيْفَ يُجَادِلُ مَنْ هُوَ دُونَهُ فِي الْعِلْمِ؟ أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ أَعْلَمُ مِنْهُ، فَكَيْفَ يُمَارِي مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ؟

وَلَقَدْ سَمِعْتُ حَفْصَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْبَزَارِ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ الضَّيْفِ

يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ عَوْنٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَسْعَرَ بْنَ كِدَامٍ يَقُولُ لِابْنِهِ كِدَامَ:

إِنِّي نَحَلْتُكَ يَا كِدَامُ نَصِيحَتِي فَاسْمَعْ مَقَالَ أَبٍ عَلَيْكَ شَفِيقِ

أَمَّا الْمُرَاحَةُ وَالْمِرَاءُ فَدَعَهُمَا خُلُقَانٍ لَا أَرْضَاهُمَا لِصَدِيقٍ
 إِنِّي بَلَوْتُهُمَا فَلَمْ أَحْمَدُهُمَا لِمُجَاوِرٍ جَارًا وَلَا لِرَفِيقٍ
 وَالْجَهْلُ يُزْرِي بِالْفَتَى فِي قَوْمِهِ وَعُرُوقُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ عُرُوقٍ

قال أبو حاتم رحمه الله: المراء أخو الشنان، كما أن المناقشة أخت العداوة،
 والمراء قليل نفعه كثير شره، ومنه يكون السباب، ومن السباب يكون القتال،
 ومن القتال يكون هراقة الدم وما ماري أحدًا أحدًا إلا وقد غيّر المراء قلبيهما.
 وقد أحسن الذي يقول:

وَيْيَاكَ مَنْ حُلِيَ الْمُرَاحُ وَمُرُّهُ وَمَنْ أَنْ يَرَاكَ النَّاسُ فِيهِ مُمَارِيَا
 وَإِنْ مِرَاءَ الْمَرْءِ يُخْلِقُ وَجْهَهُ وَإِنْ مُرَاحَ الْمَرْءِ يُبْدِي التَّشَانِيَا
 دَعَاهُ مُرَاحٌ أَوْ مِرَاءٌ إِلَى التِّي بِهِ صَارَ مَقْلِي الْإِخَاءَ وَقَالِيَا

أخبرني مُحَمَّد بن المنذر، حدثني كثير بن عبد الله التميمي، حدثني
 إسماعيل بن مُحَمَّد الطلحي، حدثنا أبو الأخفش الكناني أنه قال لابن له:

أَبْنِي لَا تَكُ مَا حَيَّتْ مُمَارِيَا وَدَعِ السَّفَاهَةَ إِنَّهَا لَا تَنْفَعُ
 لَا تَحْمِلَنَّ ضَغِينَةً لِقَرَابَةٍ إِنَّ الضَّغِينَةَ لِلْقَرَابَةِ تَقْطَعُ
 لَا تَحْسَبَنَّ الْحِلْمَ مِنْكَ مَذَلَّةً إِنَّ الْحَلِيمَ هُوَ الْأَعَزُّ الْأَمْنَعُ

أخبرنا مُحَمَّد بن إبراهيم الخالدي الهروي، حدثنا العباس بن الوليد بن
 مَزِيد قال: سمعت أَبِي، عن الأوزاعي: «قال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل
 لجوجًا مُمَارِيًا معجبًا برأيه، فقد تمت خسارته».

قال أبو حاتم رحمه الله: المزاح إذا كان فيه إثم فهو يُسَوِّد الوجه، ويُدْمِي القلب،
 ويورث البغضاء، ويُحْيِي الضغينة، وإذا كان من غير معصية يُسَلِّي الهم، ويوقع الخلَّة،

ويُحيي النفوس، ويذهب الحِشمة، فالواجب على العاقل أن يستعمل من المزاح ما يُنسب بفعله إلى الحلاوة، ولا ينوي به أذى أحد ولا سرور أحد بمساءة أحد.

أخبرنا عبد الله بن مُحَمَّد بن هاجك -عابدٌ كان بهرة-، حدثنا أحمد بن عبد الله بن حكيم الفرياناني -قرية من قرى مرو-، حدثنا سهل بن يحيى، عن أبيه، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: «لا يُمازحك إلا من يُحبك».

أخبرنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا إبراهيم بن الجُنيد، حدثنا الصَّلْتُ بن مسعود، حدثني ابن عيينة قال: أظنني سمعته من داود بن شابور، عن مُحَمَّد بن المنكدر قال: قالت لي أمي وأنا غلام: «لا تُمازح الغلمان، فتَهونَ عليهم، أو يَجترأوا عليك».

حدثنا عمرو، حدثنا الغَلَّابِي، حدثنا ابن عائشة، حدثنا دويد بن مُجاشع، عن غالب القطان، عن مالك بن دينار قال: قال عمر بن الخطاب: «من كثر ضحكُه قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، ومن مزح استُخِفَّ به، ومن أكثر من شيء عُرف به».

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو الدرداء، حدثنا أبو إسحاق الطالقاني، عن مُبَشَّر بن إسماعيل، عن راشد بن أبي قبال قال: «استسقى سعيد بن جبير، فأتيته بسويق مُحلَّى، فقال: يا راشد، شكر ازدست شيرين».

قال أبو حاتم رحمته الله: من مازح رجلاً من غير جنسه هان عليه واجترأ عليه، وإن كان المزاح حقاً؛ لأن كل شيء لا يجب أن يسلك به غير مسلكه، ولا يظهر إلا عند أهله.

على أني أكره استعمال المزاح بحضرة العوام، كما أكره تركه عند حضور الأشكال.

ولقد أخبرنا كامل بن مكرم، حدثنا ربيعة بن الحارث الجبلائي، حدثنا عبد الله بن عبد الجبار الخبائري قال: قال أبو عبد الرحمن الأعرج: «كان إبراهيم بن أدهم يحدثنا، ويضاحكنا، وإذا رأى غيرنا قال: هذا جاسوس».

ذكر استجباب الاعتزال من الناس عاماً

أنبأنا عبد الله بن مُحَمَّد بن سلم بـ«بيت المقدس»، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا الوليد، حدثنا الأوزاعي، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: رَجُلٌ فِي شُعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم الاعتزال عن الناس عاماً، مع توقي مُخالطتهم؛ إذ الاعتزال من الناس لو لم يكن فيه خصلة تُحمد إلا السلامة من مقارفة المأثم لكان حقيقاً بالمرء ألا يُكدر وجود السلامة بلزوم السبب المؤدي إلى المناقشة.

ولقد أخبرني الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسى، أنبأنا عبد الله، أخبرنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «خذوا بحظكم من العزلة».

أنبأنا عمر بن سعيد بن سنان الطائي، حدثنا حامد بن يحيى البلخي قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: «رأيت الثوري في المنام، فقلت له: أوصني، فقال: أَقِلْ معرفة الناس، أَقِلْ معرفة الناس، أَقِلْ معرفة الناس».

أنبأنا القطان بـ«الرَّقَّة» حدثنا المروروذي قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: «رأيت ابن السَّمَّاك يكتب إلى أخ له: إن استطعت ألا تكون لغير الله عبداً ما وجدت من العبودية بُدًّا، فافعل».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يستعبد نفسه لأمثاله بالقيام في رعاية حقوقهم، والتصبر على ورود الأذى منهم، ما وجد إلى ترك الدخول فيه سبيلاً؛ لأنه إذا حَسَم عن نفسه ترك الاختلاط بالعالم والمخالطة بهم، تمكن من صفاء القلب،

وعدم تكدر الأوقات في الطاعات.

ولقد استعمل العزلة جماعة من المتقدمين مع العام والخاص معاً.

كما أخبرنا مُحَمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا داود بن أحمد بن سليمان الدمياطي، حدثنا عبد الرحمن بن عفان قال: سمعت ابن المبارك يقول: «عَادَ فَضِيلُ داود الطائي، فأغلق داود الباب، وجلس فضيل خارج البيت يبكي، وداود داخل البيت يبكي».

أنبأنا الحسين بن مُحَمَّد السنجي، حدثنا علي بن المنذر، حدثنا الحسن بن مالك قال: سمعت بكر بن مُحَمَّد العابد يقول: قال لي داود الطائي «يا بكر، استوحش من الناس كما تستوحش من السبع».

أنبأنا مُحَمَّد بن أحمد بن الفرغ البغدادى بـ«الأُبْلَة»، حدثنا إبراهيم بن حماد بن زياد، حدثنا عبد العزيز بن الخطاب قال: «رؤي إلّى جنب مالك بن دينار كلب عظيم ضخّم أسود رابض، فقليل له: يا أبا يحيى، ألا ترى هذا الكلب إلّى جنبك؟ قال: هذا خير من جليس سوء».

قال أبو حاتم رحمته الله: هذا الذي ذهب إليه داود الطائي وضرباؤه من القراء من لزوم الاعتزال من الخاص، كما يلزمهم ذلك من العام، أرادوا بذلك عند رياضة الأنفس على التصبر على الوحدة، وإيثار ضد الخلطة على المعاشرة؛ فإن المرء متى ما لم يأخذ نفسه بترك ما أبيح له فأنا خائف عليه الوقوع فيما حظر عليه.

وأما السبب الذي يوجب الاعتزال عن العالم كافة: فهو ما عرّفهم به من وجود دفن الخير ونشر الشر، يدفنون الحسنة، ويظهرون السيئة، فإن كان المرء عالماً بدعوه، وإن كان جاهلاً غيروه، وإن كان فوقهم حسدوه، وإن كان دونهم حقّروه، وإن نطق قالوا: مهذار، وإن سكت قالوا: عيب، وإن قدر قالوا: مُقْتَر، وإن سمح قالوا: مبذر.

فالنادم في العواقب المحطوط عن المراتب: من اغتر بقوم هذا نعتهم،

وغيره ناس هذه صفتهم.

ولقد أنبأنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، أخبرني أحمد بن مُحَمَّد بن بكر الأبنائي، عن داود بن رُشيد، قال: حدثني إبراهيم بن شماس قال: قال لي الأكَاف حفص بن حميد صاحب ابن المبارك بـ«مرو»: «يا إبراهيم، صحبتُ الناس خمسين سنة، فلم أجد أحدًا ستر لي عورة، ولا وصلني إذا قطعتة، ولا أمنتة إذا غضب، فالاشتغال بهؤلاء حمق كبير».

وأنشدني مُحَمَّد بن المهاجر المعدل لعلي بن حُجر السعدي:

زَمَانُكَ ذَا زَمَانٍ دُخُولِ بَيْتٍ وَحِفْظِ لِّلْسَانٍ وَخَفْضِ صَوْتٍ
لَقَدْ مَرَجَتْ عُهُودُ النَّاسِ إِلَّا أَقْلَهُمْ فَبادِرْ قَبْلَ فَوْتٍ
فَمَا يَبْقَى عَلَى الْإِيَّامِ شَيْءٌ وَمَا خُلِقَ امْرُؤٌ إِلَّا لِمَوْتٍ

أخبرني يعقوب بن إسحاق القاضي، حدثنا ابن يحيى قال: وفيما قرأت على نافع عن مالك بن أنس رحمته الله: «أنه بلغه عن أبي ذر قال: كان الناس ورقا لا شوك فيه، فهم اليوم شوك لا ورق فيه».

أنبأنا مُحَمَّد بن أبي عليّ الخلادي، حدثنا جنيد بن حكيم الدقاق، حدثنا سليمان بن أبي شيخ قال: كان القَحْذَمِيُّ ينشد كثيرا:

ذَهَبَ الْحُسْنُ وَالْجَمَالُ مِنَ النَّاسِ وَمَاتَ الَّذِينَ كَانُوا مِلَاحًا
وَبَقِيَ الْأَسْمَجُونَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ إِنَّ فِي الْمَوْتِ مِنْ أَوْلَئِكَ رَاحًا

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل يعلم أن البشر مجبولون على أخلاق متباينة، وشيم مختلفة، فكل واحد يحب أتباع مساعده، وترك مباعده، فمتى رام من أخيه ضد ما وطن نفسه عليه قلاه، وإذا تبين له منه خلاف ما أضمر عليه قلبه مله، ومن الملل يكون الاستثقال، ومن الاستثقال يكون البغض، ومن البغض تهيج العداوة، فالاشتغال بمن هذا نعتة للعاقل حمق.

ولقد أحسن النَّبَاجِي حيث يقول:

ارْضُ النَّاسَ فَكُلُّ مَشْغَلَةٍ
قَدْ بَخِلَ النَّاسُ بِمِثْلِ الْخَرْدَلَةِ
لَا تَسْأَلِ النَّاسَ وَسَلْ مَنْ أَنْتَ لَهُ

وأنشدني ابن أبي علي قال: أنشدني مُحَمَّد بن أبي يعقوب العبدى:
إِذَا قُلْتُ: هَذَا صَاحِبٌ قَدْ رَضِيَتْهُ
وَقَرَّتْ بِهِ عَيْنَايَ بَدَلْتُ آخِرًا
وَذَلِكَ أَنِّي لَا أَصَاحِبُ صَاحِبًا
مِنَ النَّاسِ إِلَّا خَانَنِي وَتَغَيَّرَا
أخبرنا عبد الله بن مُحَمَّد بن سَلَم، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا
أبو مسهر، عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال مكحول: «إن كان في مُخالطة
الناس خير، فالعزلة أسلم».

أنبأنا علي بن سعيد العسكري، حدثنا شعيب بن يَحْيَى، حدثنا أحمد
النسائي، حدثنا يَحْيَى بن عبد الأعلى أن مالك بن دينار كان يقول: «من لم يأنس
بحديث الله عن حديث المخلوقين؛ فقد قَلَّ عِلْمُهُ، وَعَمِيَ قَلْبُهُ، وَضَيَّعَ عَمْرُهُ».
أنبأنا القطان، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا مُحَمَّد بن روح قال:
سمعت إبراهيم البخاري يقول: «دخلت المسجد الحرام بعد المغرب، فإذا
فُضَيْلٌ جالس، فجئت، فجلست إليه، فقال: مَنْ هذا؟ فقلت: إبراهيم. قال: ما
جاء بك؟ قلت: رأيتك وحدك، فجلست إليك. قال: تحب أن تغتاب، أو تترين،
أو ترائي؟ قلت: لا. قال: قم عني».

ذكر استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاص

أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى بـ«الموصل» حدثنا قُطَن بن نُسير، حدثنا
جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: «آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ
وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، وَآخَى بَيْنَ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ وَبَيْنَ الصَّعْبِ بْنِ جَثَامَةَ».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل ألا يغفل عن مؤاخاة الإخوان، وإعدادة إياهم للنوائب والحدثان؛ لأن من تعرّئ عن موضع سلوته بأخيه عند الهموم والغموم، كان عقله إلى التقديح أقرب، ومن النماء أنقص.

ولقد أنبأنا مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا الفضل بن عبد الصمد الأصبهاني، حدثنا يزيد بن خالد الرملي، حدثنا سهيل أبو عمرو قال: قال مُحَمَّد بن واسع: «لَمْ يبق من العيش إلا ثلاث: الصلاة في الجماعة ترزق فضلها، وتكفى سهوها، وكفاف من معاش ليست لأحد من الناس عليك فيه منّة، ولا لله عليك فيه تبعه، وأخ مُحسن العشرة، إذا زغت قَوْمَكَ».

أنبأنا عبد الرحمن بن عبد المؤمن بـ«جرجان»، حدثنا مُحَمَّد بن عبد الله العصار، أنبأنا عبد الرزاق، عن ابن المقفع قال: «ثلاث من اللذات: مُحادثة الإخوان، وأكل القديد، وحكُّ الجَرَب».

أنبأنا مُحَمَّد بن أَبِي علي، حدثنا مُحَمَّد بن هريم الشيباني قال: أنشدنا مُحَمَّد بن عمران الضبي:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا بِإِخْوَانِهِ كَمَا تَقْبِضُ الْكَفُ بِالْمَغْصَمِ
وَلَا خَيْرَ فِي الْكَفِّ مَقْطُوعَةً وَلَا خَيْرَ فِي السَّاعِدِ الْأَجْذَمِ

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل ألا يعد في الأدواء إخاء من لَمْ يُؤاسه في الضراء، ولم يشاركه في السراء، ورُبَّ أخي إخاء خيرٌ من أخي ولادة، ومن أتم حفاظ الأخوة: تفقّد الرجل أمورَ مَنْ يودّه.

والودُّ الصحيح هو الذي لا يميل إلى نفع، ولا يفسده منع، والمودة أمنٌ، كما أن البغضاء خوف.

والعاقل لا يُؤاخي إلا من خالفه على الهوى، وأعانه على الرأي، ووافق سرّه علانيته؛ لأن خير الإخوان مَنْ لَمْ يناقش، كما أن خير الثناء ما كان على أفواه الأخيار، والمستوخم لا يُؤلف كما أن غير الثقة لا يُود، فمتى ما آخى المرء من

لَمْ يَصَافِهِ بِالْوَفَاءِ يَجِبُ الْإِسْتِظْهَارُ عَلَيْهِ بِمَنْ يَسْلِيهِ عَنْهُ؛ لِأَنَّ التَّوَدُّدَ مِمَّنْ لَا يُوَدُّ يُعَدُّ مَلَقًا، وَلَا يَفُوتُ الْإِنْسَانُ فِي الْأُخُوَّةِ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا أَرِيبَ قَصَّرَ فِي حَقِّهِ فَاغْتَالَهُ بِمَكْرٍ، وَإِمَّا جَاهِلَ لَمْ يَصَافِهِ فَيُؤْذِيهِ بِسُوءِ مَعَاشَرَتِهِ، وَصِيَانَةُ الْأُخُوَّةِ لَيْسَتْ إِلَّا فِي الْإِسْتِغْنَاءِ عَنِ الْإِخْوَانِ.

ولقد أحسن العباس بن عبيد بن يعيش حيث يقول:

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَمْ يَلِدْهُ أَبُوكَا	وَأَخٍ أَبُوهُ أَبُوكَ قَدْ يَجْفُوكَا
صَافٍ الْكِرَامِ إِذَا أَرَدَتْ إِخَاءَهُمْ	وَأَعْلَمَ بِأَنَّ أَخَا الْحِفَاطِ أَخُوكَا
كَمْ إِخْوَةٌ لَكَ لَمْ يَلِدْكَ أَبُوهُمْ	وَكَأَنَّمَا آبَاؤُهُمْ وَلَدُوكَا
لَوْ كُنْتَ تَحْمِلُهُمْ عَلَى مَكْرُوهَةٍ	تَخْشَى الْحُتُوفَ بِهَا لَمَّا خَذَلُوكَا
وَأَقَارِبَ لَوْ أَبْصَرُوكَ مُعَلَّقًا	بِنِيَاطٍ قَلْبِكَ ثُمَّ مَا نَصَرُوكَا
النَّاسُ مَا اسْتَغْنَيْتَ كُنْتَ أَخًا لَهُمْ	وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَيْهِمْ فَضَحُوكَا

أخبرنا القطان بـ«الرقعة»، حدثنا أحمد بن إسماعيل السهمي، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر قال: «دخلت على قتادة وأنا ظمآن، وفي الحجرة حُبٌّ ماء، فقلت: أشرب من مائكم هذا؟ قال: أنت لنا صديق».

قال أحمد: قال عبد الرزاق يتأول القرآن ﴿أَوْ صَدِيقُكُمْ﴾ يقول: لا يستأذن.

أنبأنا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ الْقَزَازِ، حدثنا عَلَانُ بْنُ الْمَغِيرَةِ الْمَصْرِيِّ، حدثنا عمرو الناقد، حدثنا ابن عيينة، عن أيوب السخيتياني أنه قال: «يزيدني حرصًا على الحجِّ لقاءً لإخوان لي لا ألقاهم بغير الموسم».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل أن يعلم أن الغرض من المؤاخاة ليس الاجتماع والمؤاكلة والمشاركة، لأن البغال والحمير تجتمع على المؤاكلة

والمشاركة، والشَّرَاق يُدخلون الرجال على التقارف، ولا يزدادون بذلك مودة، ولكن من أسباب المؤاخاة التي يجب على المرء لزومها: مشي القصد، وخفض الصوت، وقلة الإعجاب، ولزوم التواضع، وترك الخلاف.

ولا يجب للمرء أن يكثر على إخوانه المئونات فيبر مهم؛ لأن المُرْضِع إذا كثر مَصُّه ربَّما ضجرت أمه فتلقيه.

ولا ينبغي لمن قدر أن يَمْنَع أخاه شيئاً يحتاج إليه؛ ليَجبر به مصيبته، أو يفرج به كربته.

والعقل لا يؤاخي لئيمًا؛ لأن اللئيم كالحية الصماء لا يوجد عندها إلا اللدغ والسُّم، ولا يصلُّ اللئيم، ولا يؤاخي إلا عن رغبة أو رهبة، والكريم يودُّ الكريم على لقية واحدة، ولو لم يلتقيا بعدها أبدًا.

حدثنا البجيرى -عمر بن محمد الهمداني-: ثنا محمد بن سهل بن عسكر: ثنا سعيد بن كثير بن عُفَيْر: ثنا الفضل بن المختار، عن أبي حمزة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن من أفضل الحسنات تَكْرِمةَ الجلِساء».

ولقد أخبرنا مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن يونس، حدثنا إسماعيل بن محمود، عن ابن المبارك، عن سفيان، عن يونس بن عبيد «أنه أصيب بمصيبة فليل له: ابنُ عوف لم يأتك؟ فقال: إنا إذا وثقنا بمودة أخينا لم يضرَّه ألا يأتينا».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العقل يتفقد ترك الجفاء مع الإخوان، ويراعي مَحوها إن بدت منه، ولا يجب أن يستضعف الجفوة اليسيرة؛ لأن من استضعف الصغير يوشك أن يجمع إليه صغيرًا، فإذا الصغير كبير، بل يبلغ مَجهوده في مَحوها؛ لأنه لا خير في الصدق إلا مع الوفاء، كما لا خير في الفقه إلا مع الورع، وإن من أَخْرَقِ الخُرْق: التماس المرء الإخوان بغير وفاء، وطلب الأجر بالرياء، ولا شيء أضيع من مودة تمنح من لا وفاء له، وصنيعة تصطنع عند من لا يشكرها.

وَأُنْشِدْنِي الْخِلَادِي قَالَ: أُنْشِدْنِي مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْبَكْرِي:

أَحْذَرُ مَوْدَةَ مَا ذِيقِ خَلَطَ الْمَرَارَةَ بِالْحَلَاوَةِ
يُخْصِي الذُّنُوبَ عَلَيْكَ أَيُّ سَامَ الصَّدَاقَةِ لِلْعَدَاوَةِ

وَأُنْشِدْنِي مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْبَصْرِي بِ«صُور» لِنَفْسِهِ:

لَا يَغُرَّنْكَ صَدِيقٌ أَبَدًا لَكَ فِي الْمُنْظَرِ حَتَّى تَخْبُرَهُ
كَمْ صَدِيقٍ كُنْتُ مِنْهُ فِي عَمَى غَرَّنِي مِنْهُ زَمَانًا مَنَظَرُهُ
كَانَ يُلْقَانِي بِوَجْهِ طَلِقٍ وَكَلَامٍ كَاللَّالِي يَنْثُرُهُ
فَإِذَا فَتَّشْتُهُ عَنْ غَيْبِهِ لَمْ أَجِدْ ذَاكَ لِوُدِّ يُضْمِرُهُ
فَدَعِ الْإِخْوَانَ إِلَّا كُلَّ مَنْ يُضْمِرُ الْوُدَّ كَمَا قَدْ يُظْهِرُهُ
فَإِذَا فُزْتُ بِمَنْ يَجْمَعُ ذَا فَاجْعَلْنِي لَكَ ذَخْرًا تَذَخُرُهُ

أَبْنَاءُ الْقَطَانِ بِ«الرِّقَّةِ» حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَارٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى الْمَكِّي، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ قَالَ: «وَضَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّاسِ ثَمَانِ عَشْرَةَ كَلِمَةً كُلُّهَا حِكْمٌ، قَالَ: مَا كَافَأَتْ مِنْ يَعْصِي اللَّهِ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تَطِيعَ اللَّهَ فِيهِ، وَضَعُ أَمْرُ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَأْتِيكَ مِنْهُ مَا يَغْلِبُكَ، وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجْتَ مِنْ مُسْلِمٍ شَرًّا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا، وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلتَّهْمَةِ فَلَا يُلُومَنَّ مِنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنُّ، وَمَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتْ الْخَيْرَةُ فِي يَدَيْهِ، وَعَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الصَّدَقِ فَعِشْ فِي أَكْنَافِهِمْ، فَإِنَّهُمْ زِينَةُ فِي الرِّخَاءِ، وَعُدَّةٌ فِي الْبَلَاءِ، وَعَلَيْكَ بِالصَّدَقِ، وَإِنْ قَتَلْتَكَ الصَّدَقُ، وَلَا تَعَرَّضْ لِمَا لَا يَعْنِيكَ، وَلَا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ، فَإِنْ فِيمَا كَانَ شُغْلًا عَمَّا لَمْ يَكُنْ، وَلَا تَطْلُبَنَّ حَاجَتَكَ إِلَى مَنْ لَا يُحِبُّ لَكَ نَجَاحَهَا، وَلَا تَصْحَبَنَّ الْفَاجِرَ فَتَعْلَمَ فَجُورَهُ، وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ، وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ إِلَّا الْأَمِينَ، وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ خَشِيَ اللَّهَ، وَتَخَشَّعَ عِنْدَ الْقُبُورِ، وَذَلَّ عِنْدَ الطَّاعَةِ،

واعتصم عند المعصية، واستشر في أمرك الذين يخشون الله، فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال أبو حاتم رحمه الله: العاقل لا يؤاخي إلا إذا فضل في الرأي والدين والعلم والأخلاق الحسنة، ذا عقل نشأ مع الصالحين؛ لأن صحبة بليد نشأ مع العقلاء خير من صحبة لبيب نشأ مع الجهال.

ورأس المودة الاسترسال، وأقتها المُلالة، ومن أضاع تعهد الود من إخوانه حرم ثمرة إخوانهم، وآيس الإخوان من نفسه، ومن ترك الإخوان مخافة تعاهد الود بوشك أن يبقى بلا أخ، كما أن من ترك نزع الماء إشفاقاً على رِشائه يوشك أن يموت عطشاً.

والعاقل يستخير أمور إخوانه قبل أن يؤاخيهم، ومن أصح الخبرة للمرء، وجود حالته بعد هيجان الغضب.

أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا عبد الله بن الضحاك الهداذي، حدثنا هشام بن مُحمَّد، عن عوانة بن الحكم قال: قال لقمان لابنه: «يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فدعه».

أنبأنا مُحمَّد بن صالح الطبري، حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا داود، عن يحيى بن اليمان، عن أبيه، عن سفيان قال: «اصحب من شئت، ثم أغضبه، ثم دس إليه من يسأله عنك».

قال أبو حاتم رحمه الله: من لم ينصفك عند غضبه لم تودك أيامه، وليس الصديق كالمرأة يطلقها المرء إذا شاء، والجارية يبيعها متى أحب، لكنه عرضه ومروءته؛ فالتثبت والاتئاد أولى به من التهاجر والانقطاع، ومن غاب عنه أخوه فلا يرغب عما يجب له عليه، وليكثر منهم؛ عدة للشدائد؛ لأن الشعر مع دقته إذا جُمع عُمل منه الحبل الغليظ الذي يقهر الفيل المغتلم، ولا يصلح أن يكون رفيقاً

من لم يزدرد ريقًا.

وأنشدني الخلادي قال: أنشدني مُحَمَّد بن مُحَمَّد البكري لصالح بن عبد القدوس:

إِذَا كَانَ وَدُّ الْمَرْءِ لَيْسَ بِزَائِدٍ عَلَى مَرْحَبَا أَوْ كَيْفَ أَنْتَ وَحَالِكََا
أَوِ الْقَوْلِ إِنِّي وَامِقٌ لَكَ حَافِظٌ وَأَفْعَالُهُ تُبْدِي لَنَا غَيْرَ ذَلِكََا
وَلَمْ يَكُ إِلَّا كَاشِرًا أَوْ مُحَدِّثًا فَأَفُّ لَوْدٌ لَيْسَ إِلَّا كَذَلِكََا
وَلَكِنَّ إِخَاءَ الْمَرْءِ مَنْ كَانَ دَائِمًا لِذِي الْوُدِّ مِنْهُ حَيْثُمَا كَانَ سَالِكَا

أخبرنا أبو يعلى، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا سفيان الثوري، عن شعبة قال: خرج عبد الله بن مسعود على أصحابه فقال: «أنتم جلاء حزني».

أخبرني مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا هلال بن العلاء، حدثنا إسحاق بن الضيف، عن شيبه بن أبي مُسهر، عن الحكم بن هشام، قال خالد بن صفوان: «لَمْ يَبْقَ من لذات الدنيا إلا ثلاث: مُجالسة النِّسوان، وشُمُّ الولدان، ولُقْيُ الإخوان».

حدثنا مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا مسعدة بن حازم المصري، حدثنا خالي هارون بن سعيد، حدثنا خالد بن نزار، حدثنا سفيان، عن موسى بن عقبة قال: «إن كنت لألقى الأخ من إخواني فأكون بلقىّه عاقلًا أيامًا».

قال أبو حاتم رحمه الله: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات في كتاب «مراعاة العشرة» فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

فالواجب على العاقل: أن يعلم أنه ليس من السرور شيء يعدل صحبة الإخوان، ولا غمٌّ يعدل غمَّ فقدهم، ثُمَّ يتوقَّى جهدهُ مُفاسدة من صافاه، ولا يسترسل إليه فيما يشينه، وخير الإخوان مَنْ إذا عَظَّمته صانك، ولا يعيب أخاه على الرِّلة؛ فإنه شريكه في الطبيعة، بل يصفح، ويتنكب محاسدة الإخوان؛ لأن الحسد

للصديق من سَقَمِ المودة كما أن الجود بالمودة أعظم البذل؛ لأنه لا يظهر وُدُّ مستقيم من قلب سقيم، وليحذر المرءُ في إخائه ألمَ التثقل على أخيه؛ لأن من ثقل على صديقه خف على عدوه، وإن من أعظم المعونة على تسلية الهم: الرضا بالقضاء، ولقي الإخوان.

أنبأنا مُحَمَّد بن عثمان العقبِي، حدثني يونس بن إبراهيم العدني، حدثنا إبراهيم ابن عبد الله العدني، عن سفيان أنه قيل له: «ما ماء العيش؟ قال: لقاء الإخوان».

حدثنا القطان، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا المسيب بن واضح، عن ابن المبارك قال: قال سفيان: «لربما لقيتُ الأخ من إخواني، فأقيم شهرًا عاقلاً بلباقته».

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

اسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الْإِخْوَانِ إِنَّهُمْ خَيْرٌ لِّكَائِزِهِمْ كَنْزًا مِنَ الذَّهَبِ
كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَوْ نَابَتْكَ نَائِبَةٌ وَجَدْتَهُ لَكَ خَيْرًا مِنْ أَخِي النَّسَبِ
وأنشدني الكريزي:

مِنْ خَيْرٍ مَا حَزَنَتْهُ وَدُّ لِي كَرَمٍ يَجْزِيكَ مَا عِشْتَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا
تَلْقَى بِشَاشَتِهِ فِي قُرْبِهِ وَإِذَا أَنَالَ نَالَكَ مِنْهُ الْبِرُّ مَا كَانَا

أنبأنا القطان، حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول: «كنت أنظر إلى أخ من إخواني بالعراق، فأعمل على رؤيته شهرًا».

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا مسلم بن عبيد أبو فراس قال: قال ربيعة: «المروءة مروءتان: فللسفر مروءة، وللحضر مروءة؛ فأما مروءة السفر: فبذل الزاد، وقلة الخلاف على أصحابك، وكثر المزاح في غير مساخط الله، وأما مروءة الحضر: فالإدمان إلى المساجد، وكثرة الإخوان في الله، وتلاوة القرآن».

ذكر كراهية المعادة للناس

أنبأنا مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد السلام بـ«بيروت»، حدثنا مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصعب، حدثني ابن المبارك، عن عمرو بن واقد، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نَهَانِي عَنْهُ رَبِّي بَعْدَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ: لَعْنُ الْحَمِيرِ، وَمُلَاحَاةُ الرِّجَالِ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يعلم أن من يودُّه لم يحسده، ومن لم يحسده لم يعاده؛ فيكون للعدو المكاتم أشدَّ حذرًا منه للعدو المبارز، ومن وجد عنده مغترًّا، وكان ممن لا يعفو، ثم لا يتتصف منه؛ أصابته الندامة، والرأي إذا كان من الأريب كان أبلغ في هلاك العدو من العدد الكثير من الجنود، وترك العداوة على الأحوال كلها أحوط للعاقل من الخوض في سلوكها.

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسى، أخبرنا عبد الله، عن هارون -هو الأعور- عن إسماعيل قال: «لا تشتري عداوة رجل بمودة ألف رجل».

وأنشدني عمرو بن مُحَمَّد قال: حدثنا الغلابي قال: أنشدني مهدي بن سابق: تَكَثَّرَ مِنَ الْإِخْوَانِ مَا اسْطَعْتَ إِنَّهُمْ عِمَادٌ إِذَا اسْتَنْجَدْتَهُمْ وَظُهُورٌ وَلَيْسَ كَثِيرًا أَلْفُ خِلٍّ لِصَاحِبٍ وَإِنَّ عَدُوًّا وَاحِدًا لَكَثِيرُ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا يجب على العاقل أن يكافئ الشر بمثله، وأن يتخذ اللعن والشتم على عدوه سلاحًا؛ إذ لا يستعان على العدو بمثل إصلاح العيوب، وتحصين العورات، حتَّى لا يجد العدو إليه سبيلًا.

والعاقل لا يرحم من يخافه، ولا يترك إحصاء معائب العدو، ويتفقد عثراته مع السكوت عن ثلبه، ولا يستضعف عدوًّا بحيلة؛ فإن من استضعف الأعداء اغتر، ومن اغتر لم يسلم، اللهم إلا أن يكون العدو ذليلًا، فإذا كان كذلك عطف عليه بالإغضاء؛ لأن العدو الذليل أهل أن يرحم، كما أن المستجير الخائف أهل

أَنْ يُؤْمَنَ، وَالْمُعَادَاةَ لِلْعَاقِلِ خَيْرٌ مِنَ الْمَصَافَاةِ لِلْجَاهِلِ.

وَأُنْشِدُنِي الْخِلَادِي، أُنْشِدُنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَكْرِي:

وَلَمَنْ يُعَادِي عَاقِلًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَقُ
فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تُصَادِقَ أَحْمَقًا إِنَّ الصَّدِيقَ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقٌ

وَأُنْشِدُنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَنْجِي الْبَغْدَادِي:

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظِيَ بِحَاجَتِهِ وَمُذْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَا
أَبْصُرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ الْخَطْوِ مَوْضِعَهَا فَمَنْ عَلَا قُلَّةً عَنْ غِرَّةٍ زَلْجَا

قال أبو حاتم رحمه الله: العاقل يبصر مواضع خطواته قبل أن يضعها، ثم يقارب عدوه بعض المقاربة؛ لينال حاجته، ولا يقاربه كل المقاربة فيجترئ عليه، والعاقل لا يعادي ما وجد إلى المحبة سبيلاً، ولا يعادي من ليس له منه بد، ولا العدو الحق الذي لا يطاق؛ فإنه ليس له حيلة إلا الهرب منه، وحيلة السبيل إلى القدرة على العدو وجود الغرّة فيه، وأن يري العدو أنه لا يتخذه عدواً، ثم يصادق أصدقاءه، فيدخل بينه وبينهم.

وأحزم الأمور في أمر العدو: ألا يذكره بسوء إلا عند الفرصة، وإن من أيسر الظفر بالأعداء: اشتغال بعضهم ببعض، وإن ممّا يستعين به المرء على عدوه: مجانية من يعاشره، ويصحب عدوه.

أخبرني مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ الْقَزَازِ، حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ زَهِيرِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ يَقُولُ: قَالَ ابْنُ السَّمَاكِ: «لَا تَخَفْ مِنْ تَحْذُرٍ، وَلَكِنْ أَحْذَرْ مِنْ تَأْمَنٍ».

وَأُنْشِدُنِي عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ الْبَسَامِي:

تَمَنَيْتُ أَنْ أَبْقَى مُعَافًى وَأَنْ أَرَى عَلَى مَنْ يُنَاوِينِي تَدُورُ الدَّوَائِرُ
فَيُصْبِحُ مَخْذُولًا وَأَمْسِي سَالِمًا إِلَى اللَّهِ دَاعٍ بِالْكَفَايَةِ نَاصِرُ

سمعت مُحَمَّد بن مَحْمود يقول: سمعت علي بن خشرم يقول: سمعت الفضل بن موسى الشيباني يقول: «كان صياد يصطاد العصفير في يوم ريح، قال: فجعلت الريح تُدخِل في عينيه الغبار، فتذرفان، فكلما صناد عصفورًا كسر جناحه وألقاه في ناموسه. فقال عصفور لصاحبه: ما أرقَّه علينا، ألا ترى إلى دموع عينيه؟ فقال له الآخر: لا تنظر إلى دموع عينيه، ولكن انظر إلى عمل يديه».

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل لا يأمن عدوه على كل حال، إن كان بعيدًا لم يأمن مغادرته، وإن كان قريبًا لم يأمن موائبته، والعاقل لا يخاطر بنفسه في الانتقام من عدوه؛ لأنه إن هلك في قصده قيل: أضاع نفسه، وإن ظفر قيل: القضاء فعَّله.

والمعاداة بعد الخلَّة فاحشة عظيمة، لا يليق بالعاقل ارتكابها، فإن دفعه الوقت إلى ركوبها ترك للصالح موضعًا.

وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي الأسود الدؤلي:

وَأَخِيبْ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَذِرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعٌ
وَأَبْغُضْ إِذَا أَبْغَضْتَ غَيْرَ مُجَانِبٍ فَإِنَّكَ لَا تَذِرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ
وَكُنْ مَعِدِنًا لِلْحِلْمِ وَاصْفَحْ عَنِ الْأَذَى فَإِنَّكَ رَاءِ مَا عَمِلْتَ وَسَامِعٌ

وأنشدني منصور بن مُحَمَّد الكريزي:

إِذَا أَنْتَ عَادَيْتَ امْرَأً خُلَّةً فَدَعْ فِي غَدٍ لِلْعَوْدِ وَالصُّلْحِ مَوْضِعًا
فَإِنَّكَ إِنْ نَابَذْتَ مَنْ زَلَّ زَلَّةً ظَلَلْتَ وَحِيدًا لَمْ تَجِدْ لَكَ مَفْزَعًا

أنبأنا مُحَمَّد بن إسحاق الثقفي، حدثنا أبو همام، حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب قال: «اجتمع مروان بن الحكم وابن الزبير يومًا عند عائشة، فجلسا في حجرتهما، وبينها وبينهما الحجاب، فسألا عائشة رحمها الله شعرًا وحديثًا.

ثُمَّ قَالَ مِرْوَانُ:

وَمَنْ يَشَاءُ الرَّحْمَنُ يَخْفِضُ بِقُدْرِهِ
وَلَيْسَ لِمَنْ لَمْ يَرْفَعْ اللَّهُ رَافِعُ

وَقَالَ ابْنُ الزَّيْبَرِ:

وَفَوْضٌ إِلَى اللَّهِ الْأُمُورَ إِذَا اعْتَرَتْ
وَيَا اللَّهَ - لَا بِالْأَقْرَبِينَ - تُدَافِعُ

وَقَالَ مِرْوَانُ:

وَدَاوِ ضَمِيرَ الْقَلْبِ بِالْبِرِّ وَالتَّقَى
لَا يَسْتَوِي قَلْبَانِ: قَاسٍ وَخَاشِعُ

وَقَالَ ابْنُ الزَّيْبَرِ:

وَلَا يَسْتَوِي عَبْدَانِ عَبْدٌ مُكَلِّمٌ
عُتْلٌ لِأَرْحَامِ الْأَقَارِبِ قَاطِعُ

وَقَالَ مِرْوَانُ:

وَعَبْدٌ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ
يَبِيتُ يُنَاجِي رَبَّهُ وَهُوَ رَاكِعُ

وَقَالَ ابْنُ الزَّيْبَرِ:

وَلِلْخَيْرِ أَهْلٌ يُعْرِفُونَ بِهَدْيِهِمْ
إِذَا اجْتَمَعَتْ عِنْدَ الْخُطُوبِ الْمَجَامِعُ

وَقَالَ مِرْوَانُ:

وَلِلشَّرِّ أَهْلٌ يُعْرِفُونَ بِشَكْلِهِمْ
تُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِالْفُجُورِ الْأَصَابِعُ

قَالَ: فَسَكَتَ ابْنُ الزَّيْبَرِ، فَلَمْ يَجِبْ مِرْوَانُ بِشَيْءٍ.

فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا لَكَ لَمْ تَجِبْ صَاحِبِكَ؟ وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ
تَجَاوِبَ رَجُلَيْنِ تَجَاوَلَا نَحْوَ مَا تَجَاوَلْتُمَا فِيهِ أَعْجَبَ إِلَيَّ مِنْ مُجَاوَلَتِكُمَا.

قَالَ ابْنُ الزَّيْبَرِ: إِنِّي خَفْتُ عِوَزَ الْقَوْلِ، فَكَفَفْتُ.

فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ لِمِرْوَانَ فِي الشَّعْرِ مَا لَيْسَ لَكَ.

أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذَرِ، حَدَّثَنَا عَصَامُ بْنُ الْفَضْلِ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنِي الزَّيْبَرُ بْنُ
بَكَّارٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَسَنِ لَابْنِهِ مُحَمَّدٌ: «إِيَّاكَ وَمُعَادَاةَ

الرجال فإنها لا تعدمك مكر حليم، أو مباداة جاهل».

قال أبو حاتم رحمه الله: العاقل لا يُعادي على الحالات كلها؛ لأن العداوة لا تخلو من أن تكون لأحد رجلين: إما حليم لا يؤمنُ مكره، أو جاهل لا يؤمن شتمه، ولا يجب على العاقل -إذا عادى- أن يغرّه إحسانه إلى عدوه، وما يرى من سكونه إليه، فإن الماء وإن أُطيل إسخانه، ليس يمانعه ذلك من إطفاء النار إذا صُبَّ عليها، ولا يجب أن يعظم عليه حمله عدوه على عاتقه إذا وثق بحسن عاقبته؛ لأن اللين والمكر أنكى في العدو من الفظاظة والمكابرة، ألا ترى النار مع حرها لا تحرق من الشجر إلا ما ظهر، والماء مع برده ولينه يستأصلها، ومُجانبة المرء عدوه في العشرة أحدُ الأعوان عليه عند الفرصة.

كما أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا العتيبي، عن أبيه قال: قال الأحنف بن قيس: «من جالس عدوه حفظ عليه عيوبه».

وأنشدني الأبرش:

لَا تَخَافَنَّ إِنْ رَمَاكَ عَدُوٌّ	بُعْيُوبٍ إِذَا تَكُونُ بَرِيًّا
إِنَّمَا الْعَيْبُ أَنْ يَكُونَ مُحِقًّا	فِي الَّذِي قَالَهُ وَلَسْتَ نَقِيًّا
فَإِذَا كَانَ كَاذِبًا كُنْتَ بِالصُّدِّ	قِ عَلَى الْعَائِبِ الْكَذُوبِ جَرِيًّا
وَلَقَدْ يُلْزِقُ الْعَدُوَّ بِجَنْبِ الْمَـ	رءٍ عَيْبًا تَخَالُهُ مَكْـ

قال أبو حاتم رحمه الله: العاقل لا يُغيّره إلزاقُ العدو به العيوب والقبايح؛ لأن ذلك لا يكون له وقع، ولا لكثرة ثبات، ولا يلتذ المرء ما كان عدوه باقياً كما لا يجد السقيم طعم النوم والطعام حتّى يبرأ.

وأشد مكيدة العدو: ما يعمل فيك من سبيل مأمّنك، والغالب بالشرّ

مغلوب.

وإن من أعظم الأعوان على الأعداء: تعاهد المرء ولده وعياله وخدمه،

وتوقيه إياهم من المعاييب والزلات.

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا مُحَمَّد بن الصباح، حدثنا الوليد، عن الأوزاعي، عن يَحْيَى بن أَبِي كثير قال: قال سليمان بن داود لابنه: «يا بني إذا أردت أن تغيب عدوك، فلا ترفع عن ابنك العصا».

ذكر الحث على صحبة الأخيار والزجر عن عشرة الأشرار

حدثنا الحسن بن سفيان النسائي، حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري، حدثنا أَبِي، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس، عن أَبِي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ الْعَطَّارِ، إِنْ لَمْ يَنْلِكْ مِنْهُ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ، وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ الْقَيْنِ، إِنْ لَمْ تُصَبِّكْ نَارُهُ أَصَابَكَ شَرُّهُ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل يلزم صحبة الأخيار، ويفارق صحبة الأشرار؛ لأن مودة الأخيار سريع اتصاليها، بطيء انقطاعها، ومودة الأشرار سريع انقطاعها، بطيء اتصاليها، وصحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، ومن خادن الأشرار لم يسلم من الدخول في جملتهم.

فالواجب على العاقل: أن يجتنب أهل الريب، لئلا يكون مريبًا، فكما أن صحبة الأخيار تورث الخير، كذلك صحبة الأشرار تورث الشر.

وأنشدني مُحَمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

عَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الثَّقَاتِ فَإِنَّهُمْ قَلِيلٌ فَصِلْهُمْ دُونَ مَنْ كُنْتَ تَصْحَبُ
وَنَفْسَكَ أَكْرَمَهَا وَصْنَهَا فَإِنَّهَا مَتَى مَا تُجَالِسَ سِفْلَةَ النَّاسِ تَغْضَبُ

سمعت أبا يعلى يقول: سمعت إسحاق بن أَبِي إسرائيل يقول: سمعت

سفيان بن عيينة يقول: «من أحب رجلاً صالحاً فإنما يحب الله -تبارك وتعالى-».

أنبأنا مُحَمَّد بن أَبِي علي الخلادي، حدثنا عبد الله بن الصقر السكري،

حدثنا وهب بن مُحَمَّد بن مُنبه البناي، قال: سمعت الحارث بن وجيه يقول:

سمعت مالك ابن دينار يقول: «إنك إن تنقل الحجارة مع الأبرار خيرٌ من أن تأكل الخبيص مع الفجار».

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل لا يُدنس عرضه، ولا يعودُ نفسه أسباب الشر بلزوم صحبة الأشرار، ولا يُغضي عن صيانة عرضه ورياضة نفسه بصحبة الأخيار، على أن الناس عند الخبرة يتبين منهم أشياء ضد الظاهر منها.

أنشدني علي بن مُحمَّد البسامي:

وَقَلَّمَا احْلَوْلَى كَلَامُ امْرِئٍ وَلَانَ إِلَّا كَانَ مُرَّ الْفِعَالِ
وَرُبَّمَا احْلَوْلَى كَلَامُ الْفَتَى وَكَانَ مَحْمُودًا عَلَى كُلِّ حَالٍ
وَرُبَّمَا لَمْ يَكُ ذَا مَنْظَرٍ فَكَانَ خِلْوَ الْفِعْلِ مِنَ الْمَقَالِ
فَكُلُّ هَذَا أَنْتَ رَأَيْ إِذَا تُصَاحِبُ النَّاسَ وَتَبْلُو الرِّجَالَ

حدثنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي، حدثنا نصر بن علي، أنبأنا نوح بن قيس، حدثنا حوشب، عن الحسن في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. قال: «حُلماء علماء، صُبْرٌ ثُبْتُ، إن ظلموا لم يظلموا، وإن بُغي عليهم لم يبغيوا، قد براهم الخوف كأنهم القداح».

أنبأنا حامد بن مُحمَّد بن شعيب البلخي، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا شجاع ابن أبي نصر أبو نعيم القاري، عن أبي عمرو بن العلاء قال: «رأني سعيد بن جبير وأنا جالس مع الشباب، فقال: ما يجلسك مع الشباب؟ عليك بالشيوخ».

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة، عن سفيان، عن أبي المُحَجَّل، عن ابن عمران بن حطان، عن أبيه قال: قال أبو الدرداء «لصاحب صالح خير من الوحدة، والوحدة خير من صاحب السوء، ومملي الخير خير من الساكت، والساكت خير من مملي الشر».

قال أبو حاتم رحمه الله: العاقل لا يصاحب الأشرار؛ لأن صحبة صاحب السوء قطعة من النار، تعقب الضغائن، ولا يستقيم وده، ولا يفي بعهده.
وإن من سعادة المرء خصّالاً أربعمًا: أن تكون زوجته موافقة، وولده أبرارًا، وإخوانه صالحين، وأن يكون رزقه في بلده.

وكل جليس لا يستفيد المرء منه خيرًا تكون مُجالسة الكلب خيرًا من عشرته، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم، كما أن من يدخل مداخل السوء يتهم.

وما أشبه صحبة الأشرار إلا بما أنشدني منصور بن مُحمّد الكريزي:
فَلَوْ كَانَ مِنْهُ الْخَيْرُ إِذْ كَانَ شَرُّهُ عَتِيدًا ضَرَبْتُ الْخَيْرَ يَوْمًا مَعَ الشَّرِّ
وَلَوْ كَانَ لَا خَيْرًا وَلَا شَرَّ عِنْدَهُ رَضِيتُ لَعَمْرِي بِالْكَفَافِ مَعَ الْأَجْرِ
وَلَكِنَّهُ شَرٌّ وَلَا خَيْرَ عِنْدَهُ وَلَيْسَ عَلَيَّ شَرٌّ إِذَا طَالَ مِنْ صَبْرِ

أخبرنا إسحاق بن إبراهيم القاضي، حدثنا الحسن بن مُحمّد بن الصباح، حدثنا ابن عُلية، عن يونس، عن الحسن قال: «أيها الرجل، إن أشد الناس عليك فقدًا لَرَجُلٍ إذا فزعت إليه وجدت عنده رأيًا، ووجدت عنده نصيحة، بينا أنت كذلك إذ فقدته، فالتمست منه خلفًا فلم تجده».

أنبأنا مُحمّد بن سعيد القزاز، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندي، حدثنا عبد الله بن سليمان قال: قال جعفر بن مُحمّد: «من كان فيه ثلاثٌ فقد وجب له على الناس أربع: إذا خالطهم لم يظلمهم، وإذا حدثهم لم يكذبهم، وإذا وعدهم لم يخلفهم، وعلى الناس: أن يظهروا عدله، وأن تكمل فيهم مروءته، وأن يجب عليهم أخوته، وأن يحرم عليهم غيبته».

وأنشدني مُحمّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

أَصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ أَيْنَ لَقَيْتَهُمْ خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ ظَرِيفًا
وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِمٍ مَيَّرَتْهَا فَرَأَيْتَ فِيهَا فِضَّةً وَزُيُوفًا

أخبرنا ابن قتيبة: ثنا أحمد بن يحيى بن يزيد الصوري: ثنا الهيثم بن جميل قال: قال عمارة بن زاذان: عن مكحول قال: «قلت للحسن: إني أريد الحج. فقال لي: إياك أن تصحب من يكره عليك؛ فتفرق الذي بينك وبينه».

وأخبرنا ابن قحطبة، حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثنا عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبًا يقول: «إن الله ليحفظ بالعبد الصالح القبيل من الناس».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل أن يستعيذ بالله من صحبة من إذا ذكر الله لم يعنه، وإن نسي لم يذكره، وإن غفل حرّضه على ترك الذكر.

ومن كان أصدقاؤه أشرارًا كان هو شرّهم، وكما أن الخير لا يصحب إلا البرّة، كذلك الردي لا يصحب إلا الفجرة، فإن المرء إذا اضطره الأمر فليصحب أهل المروءات؛ لأنّ محمّد بن عثمان العقبي حدثنا قال: حدثنا أحمد بن داود البصري، حدثنا ابن عائشة قال: قال عبد الواحد بن زيد: «جالسوا أهل الدين من أهل الدنيا، ولا تجالسوا غيرهم، فإن كنتم لا بُدَّ فاعلين، فجالسوا أهل المروءات، فإنهم لا يرفثون في مجالسهم». وبالله التوفيق.

ذكر كراهية التلون في الوداد بين المتأخين

أنبأنا محمّد بن الحسن بن قتيبة بـ«عسقلان»، حدثنا إبراهيم الحوراني، حدثنا بكار بن شعيب، حدثنا ابن أبي حازم، عن أبيه، عن سهل رحمته الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِنَ الْحَقِّ مِثْلَ مَا تَرَى لَهُ».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل إذا رزقه الله ودّ امرئ مسلم صحيح الوداد مُحافظ عليه: أن يتمسك به، ثمَّ يوطن نفسه على صلته إن صرّمه، وعلى الإقبال عليه إن صدّ عنه، وعلى البذل له إن حرّمه، وعلى الدنو منه إن باعده، حتّى كأنه ركن من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء: تلونه في الوداد.

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ وَدَّهْ بِلِسَانِهِ خَثُونِ بَظْهَرِ الْغَيْبِ لَا يَتَنَدَّمُ
يُضَاحِكُنِي كُرْهًا لِكَيْمَا أَوَدَّهْ وَتَتَبَعُنِي مِنْهُ إِذَا غَبَّتْ أَسْهُمُ

أخبرنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثني ابن أبي شيبة قال: قال الأصمعي:
قال رجل من الأعراب: «إن من أعجز الناس: من قَصَّرَ عن طلب الإخوان، وأعجز
منه: من ظفر بذلك منهم فأضاع مودتهم، وإنما يحسن الاختيار لغيره من أحسن
الاختيار لنفسه».

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل لا يقصر في تعاهد الوداد، ولا يكون ذا لونين،
وذا قلبين، بل يوافق سره علانيته، وقوله فعله، ولا خير في متآخين ينمو بينهما
الخلل، ويزيد في حالهما الدغل.

كما أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

لَحَا اللَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُ الْوُدُّ عِنْدَهُ وَمَنْ حَبَلُهُ إِنْ مُدَّ غَيْرُ مَتَيْنِ
وَمَنْ هُوَ ذُو لَوْنَيْنِ لَيْسَ بِدَائِمٍ عَلَى الْوَصْلِ خَوَّانٌ لِكُلِّ أَمِينٍ
وَمَنْ هُوَ ذُو قَلْبَيْنِ أَمَّا لِقَاؤُهُ فَخَلَوْا وَأَمَّا غَيْبُهُ فَظَنَيْنِ
وَمَنْ هُوَ إِنْ تُحْدِثَ لَهُ الْعَيْنُ نَظْرَةً يَقْطَعُ بِهَا أَسْبَابَ كُلِّ قَرِينِ

وأنشدني عمرو بن مُحَمَّد النسائي لابن الأعرابي:

الْعَيْنُ تُبْدِي الَّذِي فِي نَفْسٍ صَاحِبِهَا مِنْ الشَّئَاءَةِ أَوْ وُدٍّ إِذَا كَانَا
إِنَّ الْبَغِيضَ لَهُ عَيْنٌ يَصُدُّ بِهَا لَا يَسْتَطِيعُ لِمَا فِي الصَّدْرِ كِثْمَانَا
فَالْعَيْنُ تَنْطِقُ وَالْأَفْوَاهُ سَاكِتَةٌ حَتَّى تَرَى مِنْ ضَمِيرِ الْقَلْبِ تَبْيَانَا

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

وَجَارٍ لَا تَزَالُ تَزُورُ مِنْهُ قَوَارِضُ لَا تَنَامُ وَلَا تُنِيمُ

قَرِيبُ الدَّارِ نَائِي الْوُدِّ مِنْهُ مُعَانِدَةٌ أَبَتْ لَا تَسْتَقِيمُ
يُبَادِرُ بِالسَّلَامِ إِذَا التَّقْيَنَا وَتَحْتَ ضُلُوعِهِ قَلْبٌ سَقِيمُ

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ الْخِلَادِي، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ بَكْرٍ
الْأَبْنَاوِي، عَنْ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْيَزَنِيِّ، قَالَ الْمَقْنَعُ الْكَنْدِيُّ:

ابْنُ الرَّجَالِ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّعَ مِنْ أُمُورِهِمْ وَتَفَقَّهَ
فَإِذَا ظَفِرْتَ بِذِي اللَّبَابَةِ وَالتَّقَى فِيهِ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدْ
وَمَتَّى يَزِلْ - وَلَا مَحَالَهَ - زَلَّةً فَعَلَى أَحْيِكَ بِفَضْلِ رَأْيِكَ فَارْدُدْ
وَإِذَا الْخَنَا نَقَضَ الْحُبَّ فِي مَوْضِعٍ وَرَأَيْتَ أَهْلَ الطَّيْشِ قَامُوا فَأَقْعُدْ

أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَحْطَبَةَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَاحِ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، عَنْ
الْأَوْزَاعِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لَابْنِهِ: «يَا بَنِي عَلَيْكَ
بِالْحَبِيبِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّ الْآخَرَ لَا يَعْدِلُهُ».

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ الْقَزَازِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ بَكْرٍ بْنُ سَيْفٍ، حَدَّثَنِي
مُحَمَّدُ بْنُ حُسَيْنٍ قَالَ: «كَانَ أَعْرَابِيٌّ بِالْكُوفَةِ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقٌ، وَكَانَ يَظْهَرُ لَهُ مَوْدَةٌ
وَنَصِيحَةٌ، فَاتَّخَذَهُ الْأَعْرَابِيُّ مِنْ عُدَدِهِ لِلشَّدَائِدِ؛ إِذْ حَزَبَ الْأَعْرَابِيُّ أَمْرًا، فَأَتَاهُ،
فَوَجَدَهُ بَعِيدًا مِمَّا كَانَ يَظْهَرُ لِلأَعْرَابِيِّ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا كَانَ وَدُّ الْمَرْءِ لَيْسَ بِزَائِدٍ عَلَى مَرْحَبًا أَوْ كَيْفَ أَنْتَ وَحَالِكََا
وَلَمْ يَكُ إِلَّا كَاشِرًا أَوْ مُحَدَّثًا فَأَفِّ لَوْدٍ لَيْسَ إِلَّا كَذَلِكََا
لِسَانُكَ مَعْسُولٌ وَنَفْسُكَ بَشَّةٌ وَعِنْدَ الثَّرِيَّا مِنْ صَدِيقِكَ مَا لَكََا
وَأَنْتَ إِذَا هَمَّتَ يَمِينُكَ مَرَّةً لِتَفْعَلَ خَيْرًا قَاتَلَتْهَا شِمَالُكََا

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْذِرِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: قَالَ

مُحَمَّدُ بْنُ حَازِمٍ:

وَإِنْ مِنْ الْإِخْوَانِ إِخْوَانٌ كَثْرَةٌ وَإِخْوَانٌ حَيَّاكَ إِلَهُ وَمَرْحَبًا
وَذَلِكَ لَا يَسُوئِي نَقِيرًا مَتَرَبًا وَذَلِكَ لَا يَسُوئِي نَقِيرًا مَتَرَبًا
جَوَادٌ إِذَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْهُ بِمَالِهِ يَقُولُ إِلَى الْقَرْضِ وَالْقَرْضِ فَاطْلُبَا
فَإِنْ أَنْتَ حَاوَلْتَ الَّذِي خَلْفَ ظَهْرِهِ وَجَدْتَ الثَّرِيًّا مِنْهُ فِي الْبُعْدِ أَقْرَبَا

قال أبو حاتم رحمه الله: العاقل لا يصادق المتلون، ولا يؤاخي المتقلب، ولا يظهر من الوداد إلا مثل ما يُضمِر، ولا يُضمِر إلا فوق ما يظهر، ولا يكون في النوائب عند القيام بها إلا ككونه قبل إحداثها والدخول فيها؛ لأنه لا يحمد من الإخاء ما لم يكن كذلك.

وأنشدني مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذِرِ قَالَ: أنشدني مُحَمَّدُ بْنُ خُلْفِ التِّيمِي، أنشدني رجل من خزاعة:

وَلَيْسَ أَخِي مَنْ وَدَّنِي بِلِسَانِهِ وَلَكِنْ أَخِي مَنْ وَدَّنِي فِي النَّوَائِبِ
وَمَنْ مَالُهُ مَالِي إِذَا كُنْتُ مُعْدِمًا وَمَالِي لَهُ إِنْ عَضَّ دَهْرٌ بِغَارِبِ
فَلَا تَحْمَدَنَّ عِنْدَ الرَّخَاءِ مُؤَاخِيًا فَقَدْ تُنْكِرُ الْإِخْوَانُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ
وَمَا هُوَ إِلَّا كَيْفَ أَنْتَ وَمَرْحَبًا وَبِالْبَيْضِ رَوَّاعٌ كَرَوُّغِ الثَّعَالِبِ

أخبرنا ابن قحطبة، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ، حدثنا أَبُو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: مكتوب في الحكمة: «أحبب خليلك و خليل أبيك».

قال أبو حاتم رحمه الله: إن من أعظم الأمارات على معرفة صحة الوداد وسقمه: ملاحظة العين إذا لحظت، فإنها لا تكاد تبدي إلا ما يضمِر القلب من الود، ولا تكاد تخفي ما يُجِنُّه الضمير من الصد، فالعاقل يعتبر الود بقلبه وعين أخيه، ويجعل له بينهما مسلكًا لا يرده عن معرفة صحته شيء تخيله.

ولقد أخبرنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحَمَّد بن الحسن الذهلي، حدثنا علي بن مُحَمَّد المدائني، عن مُحَمَّد بن إبراهيم العباسي، عن عبد الله بن الحجاج -مولى المهدي-، وعن إبراهيم بن شَكْلَة قال: «اعلم أن من أظهر ما تُحب أو ما تكره، فإنما لك أن تقيس ما أضمر قلبه بالذي أظهر لسانه، وليس لك أن تعرف ما أسر ضميره، فعامله على نحو ما يبدي لك لسانه».

وفي ذلك أقول:

لَيْسَ الْمُسِيءُ إِذَا تَغَيَّبَ سَوْءُهُ	عَنِّي بِمَنْزِلَةِ الْمُسِيءِ الْمُعْلِنِ
مَنْ كَانَ يُظْهِرُ مَا أَحَبُّ فَإِنَّهُ	عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ الْأَمِينِ الْمُحْسِنِ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْقُلُوبِ وَإِنَّمَا	لَكَ مَا بَدَا لَكَ مِنْهُمْ بِالْأَلْسُنِ
وَلَقَدْ يُقَالُ خِلَافُ ذَلِكَ إِنَّمَا	لَكَ مَا بَدَا لَكَ مِنْهُمْ بِالْأَعْيُنِ

غير أن خالي خالفني في ذلك، وزعم أن الأعين أبين شهادة على ما في القلوب من الألسن، وكتب في ذلك رسالة: أما بعد:

فقد بدا لي من صدك، ما آسني من وُدِّك، ولم يزل يخبرني لحظك ما تضمر لي من بغضك». وكتب في أسفل ذلك:

وَمَا أَحَبُّ إِذَا أَحْبَبْتُ مُكْتَتِمًا	يُبْدِي الْعَدَاوَةَ أَحْيَانًا وَيُخْفِيهَا
تَظَلُّ فِي قَلْبِهِ الْبَغْضَاءُ كَامِنَةً	فَالْقَلْبُ يَكْتُمُهَا وَالْعَيْنُ تُبْدِيهَا
وَالنَّفْسُ تَعْرِفُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثَهَا	مَنْ كَانَ سِلْمَهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا
عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنِي مِنْكَ عَلَى	أَشْيَاءَ لَوْلَاهُمَا مَا كُنْتُ أَدْرِهَا

أخبرنا الخلادي، حدثنا أحمد بن مُحَمَّد الصوفي، حدثنا مُحَمَّد بن صالح البغدادی قال: سمعت إبراهيم الحجيبي يقول: «دلائل الحب تُعرف في المُحِبِّ، وإن لم ينطق لسانه».

ذكر ائتلاف الناس واختلافهم

أخبرنا عمران بن موسى بن مُجاشع السخثياني، حدثنا عبد الأعلى بن حماد النّريسي، حدثنا حماد بن سلمة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُّجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

حدثنا أبو خليفة، حدثنا مُحَمَّد بن كثير، أخبرنا سفيان الثوري، عن حبيب ابن أبي ثابت، عن أبي الطفيل قال: قال علي: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُّجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: سبب ائتلاف الناس وافتراقهم -بعد القضاء السابق- هو تعارف الروحين، وتناكر الروحين، فإذا تعارف الروحان وَجِدَتِ الألفة بين نفسيهما، وإذا تناكر الروحان وَجِدَتِ الفرقة بين جسميهما.

ولقد أنبأنا مُحَمَّد بن المهاجر، حدثنا مُحَمَّد بن عبد الله بن مهران، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي يحيى، عن مُجاهد قال: رأى ابن عباس رجلاً فقال: «إِنْ هَذَا لِيَحْبِنِي. قالوا: وما علمك؟ قال: إني لأحبه، والأرواح جنود مُّجَنَّدَةٌ، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وأنشدني مُحَمَّد بن أبي علي الخلادي، أنشدني أحمد بن مُحَمَّد بن بكر الأبنابي:

إِنَّ الْقُلُوبَ لِأَجْنَادٍ مُّجَنَّدَةٍ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بِالْأَهْوَاءِ تَعْرِفُ
فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا فَهُوَ مُؤْتَلِفٌ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا فَهُوَ مُخْتَلِفٌ

أنبأنا ابن مكرم بـ«البصرة»، حدثنا بشر بن الوليد، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]. قال: للرحمة والطاعة، فأما أهل طاعة الله فقلوبهم وأهواؤهم مُّجْتَمِعَةٌ،

وإن تفرقت ديارهم، وأهل معصية الله قلوبهم مختلفة، وإن اجتمعت ديارهم.

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

فَمَا تُبْصِرُ الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ أَلْفٌ وَلَا الْقَلْبُ وَالْعَيْنَانِ مُنْطَبِقَانِ
وَلَكِنْ هُمَا رُوحَانِ تَعْرِضُ ذِي لَدِي فَيَعْرِفُ هَذَا ذِي فَيَلْتَقِيَانِ

قال أبو حاتم رحمه الله: إن من أعظم الدلائل على معرفة ما فيه المرء من قلبه وسكونه: هو الاعتبار بمن يحادثه ويوده؛ لأن المرء على دين خليله، وطير السماء على أشكالها تقع.

وما رأيت شيئاً أدل على شيء ولا الدخان على النار، مثل الصاحب على الصاحب.

وأنشدني الأبرش:

يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ إِذَا مَا هُوَ وَمَا شَأُهُ
وَذُو الْعَرِّ إِذَا أَحْتَدَ لَكَ ذَا الصَّحَّةِ أَعْدَاهُ
وَلِلشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ مَقَايِيسٌ وَأَشْـبَاهُ
وَلِلرُّوحِ عَلَى الرُّوحِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

حدثنا أبو خليفة، حدثنا محمد بن كثير العبدى، أنبأنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن هبيرة قال: «اعتبر الناس بأخذانهم».

أنبأنا محمد بن المهاجر، حدثنا محمد بن موسى الأخباري، حدثنا محمد ابن صالح العدوي، حدثنا الحسين بن جعفر بن سليمان الضبعي قال: سمعت أبي يقول: سمعت مالكا يقول: «الناس أشكال كأجناس الطير، الحمام مع الحمام، والغراب مع الغراب، والبط مع البط، والصَّغُو مع الصَّغُو، وكل إنسان مع شكله».

وَأَنشَدَنِي الْمُتَصَرِّبُ بْنُ بِلَالٍ الْأَنْصَارِيُّ:

يَزِينُ الْفَتَى فِي قَوْمِهِ وَيَشِينُهُ وَفِي غَيْرِهِمْ أَخْدَانُهُ وَمَدَاخِلُهُ
لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ مِنَ النَّاسِ مِثْلُهُ وَكُلُّ امْرِئٍ يَهْوِي إِلَى مَا يُشَاكِلُهُ

وَأَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَنْجِي الْبَغْدَادِيُّ:

إِنْ كُنْتُ حُلْتُ وَبِي اسْتَبْدَلْتُ مُطَرِّحًا وَدَأَّ فَلَمْ تَأْتِ مَكْرُوهًا وَلَا بِدَعَا
فَكُلُّ طَيْرٍ إِلَى الْأَشْكَالِ مَوْقِعُهَا وَالْفَرْعُ يَجْرِي إِلَى الْأَعْرَاقِ مُنْتَزِعَا

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل يجتنب مُمَاشاة المريب في نفسه، ويفارق صحبة المتهم في دينه؛ لأن من صحب قومًا عُرِفَ بِهِمْ، ومن عاشر امرأً نُسِبَ إِلَيْهِ، والرجل لا يصاحب إلا مثله أو شكله، فإذا لَمْ يجد المرءَ بُدًّا من صحبة الناس تَحَرَّيْ صحبة مَنْ زانه إذا صحبه، وَلَمْ يشنه إذا عُرِفَ به، وإن رأى منه حسنة عَدَّهَا، وإن رأى منه سيئة سترها، وإن سكت عنه ابتدأه، وإن سأله أعطاه.

فأما اليوم فأكثر أحوال الناس تكون ظواهرها بخلاف بواطنها، وما أُشِبَّ عَشْرَتَهُمْ إِلَّا بِمَا أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْبَغْلَانِيُّ، حَدَّثَنِي عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ الْفَضْلِ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَهِيلِ التِّيَّاسِ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ قَالَ: «تَكَلَّمَ عَصْفُورٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ فَخٍّ، فَقَالَ الْعَصْفُورُ: انْحَنَّاؤْكَ لِمَاذَا؟ قَالَ: مِنَ الْعِبَادَةِ. قَالَ: دَفَنْكَ فِي التَّرَابِ لِمَاذَا؟ قَالَ: مِنَ التَّوَاضُعِ. قَالَ: فَمَا هَذَا الشَّعْرُ؟ قَالَ: هَذَا لِبَاسِي. قَالَ: مَا هَذَا الطَّعَامُ؟ قَالَ: هَذَا أَعْدَدْتُهُ لِعَابِرِ السَّبِيلِ، قَالَ: أَفَتَأْذَنُ لِي فِيهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَنَقَرَ الْعَصْفُورُ نَقْرَةً فَأَخَذَ بَعْنَقه، فَجَعَلَ الْعَصْفُورُ يَقُولُ: شَغْ شَغْ شَغْ. وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْرِنِي قَارِيٌّ بَعْدَكَ أَبَدًا».

وَأَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ لِلْأَقِشْرِ:

إِنْ كُنْتُ تَبَغَيْي الْعِلْمَ أَوْ نَحْوَهُ أَوْ شَاهِدًا يُخْبِرُ عَنْ غَائِبِ
فَاعْتَبِرِ الْأَرْضَ بِأَسْمَائِهَا وَاعْتَبِرِ الصَّاحِبَ بِالصَّاحِبِ

وأنشدني مُحَمَّد بن إِسحاق بن حبيب الواسطي:

تَعَارَفُ أَرْوَاحُ الرِّجَالِ إِذَا التَّقَوَّا فَمِنْهُمْ عَدُوٌّ يَتَّقَى وَخَلِيلُ
كَذَاكَ أُمُورُ النَّاسِ وَالنَّاسُ مِنْهُمْ خَفِيفٌ إِذَا صَاحِبَتُهُ وَثَقِيلُ

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

اجْعَلْ قَرِينَكَ مَنْ رَضِيتَ فِعَالَهُ وَاحْذَرْ مُقَارَنَةَ الْقَرِينِ الشَّائِنِ
كَمْ مِنْ قَرِينٍ شَائِنٍ لِقَرِينِهِ وَمُهَجِّجٍ مِنْهُ لِكُلِّ مُحَاسِنِ

قال أبو حاتم رحمته الله: إن من الناس من إذا رآه المرء يعجب به، فإذا ازداد به علماً ازداد به عجباً، ومنهم من يبغضه حين يراه، ثُمَّ لا يزداد به علماً إلا ازداد له مقتاً، فاتفاقهما يكون باتفاق الروحين قديماً، وافتراقهما يكون بافتراقهما، وإذا ائتلفا ثُمَّ افترقا فراق حياة من غير بُغض حادث، أو فراق ممات، فهناك الموت الفطيع، والأسف الوجيع، ولا يكون موقف أطول غُمَّةً، وأظهر حسرةً، وأدوم كآبةً، وأشد تأسفاً، وأكثر تلهفاً من موقف الفراق بين المتأخين، وما ذاق ذائق طعماً أَمَرَّ من فراق الخَلَيْن، وانصرام القرينين.

حدثنا مُحَمَّد بن يعقوب الخطيب قال: سمعت معمر بن سهل يقول:

سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ عَوْنٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ مِسْعَرَ بْنَ كِدَامٍ يَقُولُ:

لَنْ يَلْبَثَ الْقُرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكِرُّ عَلَيْهِمْ وَنَهَارُ

أنبأنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا أبو أحمد بن حماد البربري،

حدثنا الزبير بن بكار، حدثني مُحَمَّد بن موسى أبو غزية قال: كان أبو العتاهية إذا

قدم المدينة يجلس إلي، فأراد مرة الخروج فودعني، وقال:

إِنْ نَعِشْ نَجْتَمِعُ وَإِلَّا فَمَا أَشْغَلَ مَنْ مَاتَ عَنْ جَمِيعِ الْأَنَامِ

حدثنا مُحَمَّد بن أَبِي علي قال: أنشدنا مُحَمَّد بن موسى السمری، أنشدنا

أحمد بن عبد الأعلى الشيباني:

فَيَا عَجَبًا مِمَّنْ يَمُدُّ يَمِينَهُ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْبَيْنَ قَدْ جَدَّ جَدُّهُ
ضَعُفْتُ عَنِ التَّوَدِّيعِ لَمَّا رَأَيْتُهُ

وأنشدني ابن فياض للبحثري:

الله جَارُكَ فِي انْطِلَاقِكَ
لَا تُعَذِّلْنِي فِي مَاسِي
إِنِّي خَشِيتُ مَوَاقِفًا
وَعَلِمْتُ مَا يَخْشَى الْمَوَدَّ
فَتَرَكْتُ ذَاكَ تَعَمُّدًا

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ حَيَّةُ الْبَيْنِ تَقْرَعُ
فَلَا النَّفْسُ مَعَ تَهَيَّامِهَا مُسْتَفِيقَةٌ

وأنشدني محمد بن بندار بن أصرم:

أَيَا قَلْبُ لَا تَجْزَعْ مِنَ الْبَيْنِ وَاصْطَبِرْ
تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا
وَكُلُّ الَّذِي قَدْ قَدَّرَ اللهُ وَقَعَ

وأنشدني عبد الرحمن بن يحيى بن حبيب الأندلسي لنفسه:

نَطَقْتُ مَدَامِعَهُ بِمَا فِي قَلْبِهِ

إِلَى الْإِفْهِ عِنْدَ الْفِرَاقِ فَيُسْرِعُ
وَأَيْدِي الْمَطَايَا بِالْأَحَبَّةِ تُسْرِعُ
فَصَافَحْتُهُ بِالْقَلْبِ وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ

تَلَقَّاءَ شَامِكَ أَوْ عِرَاقِكَ
يَرِي يَوْمَ سِرَّتَ وَلَمْ أُلَاقِكَ
لِلْبَيْنِ تُسْفِحُ غَرْبَ مَا قِكَ
عُ عِنْدَ ضَمِّكَ وَاعْتِنَاقِكَ
وَخَرَجْتُ أَهْرُبُ مِنْ فِرَاقِكَ

وَعَيْنِي لِبَيْنٍ مِنْ ذَوِي الْوُدِّ تَدْمَعُ
وَلَا بِالَّذِي يَأْنِي بِهِ الدَّهْرُ تَقْنَعُ

وأنشدني محمد بن بندار بن أصرم:

فَلَيْسَ لِمَا يُقْضَى عَلَيْكَ بِدَافِعِ
يُحْزِرُكَ وَدَعْنِي مِنْ نُحُوسِ الطَّوَالِعِ
وَمَا لَمْ يُقَدِّرْهُ فَلَيْسَ بِوَاقِعِ

وَعَنِ الْجَوَابِ لِسَانُهُ لَا يَنْطِقُ

فَكَأَنَّهُ مِمَّا يُقَاسِي قَلْبُهُ دَنِفُ مَرِيضٍ أَوْ أَسِيرٍ مُوثِقُ
وَكَأَنَّمَا الْأَشْجَانُ فِي أَحْشَائِهِ لِفِرَاقِ أَهْلِ الْوُدِّ نَارٌ تَحْرِقُ
كَيْفَ السُّلُوفُ وَهَلْ لَهُ مِنْ سَلُوفٍ مَنْ بَانَ أَحْبَابُهُ يَتَفَرَّقُ

قال أبو حاتم رحمته الله: السبب المؤدي إلى إظهار الجزع عند فراق المتواخين: هو ترك الرضا بما يوجب القضاء، ثم ورود الشيء على مُضْمَرِ الحشا بضد ما انطوى عليه قديماً، فمن وَطَّن نفسه في ابتداء المعاشرة على ورود ضد الجميل عليها من صحبته، وتأمل ورود المكروه منه على غفلته، لا يُظْهِرُ الجزع عند الفراق، ولا يشكو الأسف والاحترق، إلا بمقدار ما يوجب العلم إظهاره.
ولقد أُولِعَ بِجَمَاعَةِ الْفِرَاقِ حَتَّى إِنَّهُمْ خَرَجُوا إِلَى ثَلْبِ الطَّيُورِ، وَمَدَحِ الدَّمَنِ وَتَأَوَّلُوا لَعْنَ نُوْحٍ عليه السلام الْغُرَابِ.

أُنْبَأَنَا جَعْفَرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَنَانَ الْقَطَّانِ بـ«واسط»، حدثنا عمرو بن مُحَمَّدٍ بن عيسى الضبي، حدثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى، حدثنا الجريري، عن أبي السليل، عن أبي مُرَاحٍ قال: «بعث نوح الغراب والحمامة حيث استقرت السفينة على الجودي، يلتمسان له الجُدَّ -يعني: الأرض- فأما الغراب فرأى جيفة فوق عليها فأكل منها، وأما الحمامة فجاءت عَاَصَةً على غصن شجرة بطين أحمر. قال: فدعا للحمامة بالبركة، وأما الغراب فلعنه، وقال له قولا شديداً».

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الْحَسَنِ الْبَغْدَادِيِّ، حدثنا أحمد بن مُحَمَّدٍ بن الحسن البغوي قال: قال سليم بن منصور: «أَمَرْتُ لُبْنَى فاشترى له أربعة غرابان، فلما رأتهم صرخت وبكت، وكتفتهم، وجعلت تضربهن بالسوط حتى قتلتهم جميعاً، وأنشأت تقول:

لَقَدْ نَادَى الْغُرَابُ بِبَيْنِ لُبْنَى فَطَارَ الْقَلْبُ مِنْ حَذَرِ الْغُرَابِ
وَقَالَ: غَدًا نُبَايِنُ دَارَ لُبْنَى وَتَنَايَ بَعْدَ وَدٍّ وَاقْتِرَابِ

فَقُلْتُ تَعِسْتَ وَيْحَكَ مِنْ غُرَابٍ أَكُلَ الدَّهْرِ سَعْيِكَ فِي تَبَابٍ
لَقَدْ أَوْلَعْتَ لَا لُقِّيتَ خَيْرًا بِتَفْرِيقِ الْمُحِبِّ عَنِ الْحَبَابِ

وأنشدني إبراهيم بن علي الطرقي قال: أنشدني علي بن إسحاق:

غُرَابَ الْبَيْنِ وَيْحَكَ صَحْ بِقُرْبٍ كَمَا قَدْ صَحْتَ وَيْحَكَ بِالْبُعَادِ
تُنَادِي بِالتَّفَرُّقِ كُلَّ يَوْمٍ فَمَا لَكَ بِالتَّوَاصُلِ لَا تُنَادِي
أَرَانِي اللَّهَ رِيْشَكَ عَنْ قَرِيبٍ تَمَرُّطُهُ الْبُرَاةُ بِكُلِّ وَادِي
كَمَا أَسَخَنْتَ يَوْمَ الْبَيْنِ عَيْنِي وَأَلْقَيْتَ الْحَزَاةَ فِي فُؤَادِي

أنبأنا إبراهيم بن مُحَمَّد بن يعقوب بـ«همذان»، حدثنا عبد الكبير بن مُحَمَّد الأنسي، حدثنا بعض أصحابنا قال: مررت بالبصرة على باب دار، فإذا بصوت غراب يُجلّد، فدنوت من الدار فإذا صاحبة الدار، وبين يديها جَوَارٍ، وهي تأمر بجلده. فقلت: أما تتقون الله في هذا الغراب؟ فقلن لي: هذا الغراب الذي قيل فيه:

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ قَدْ طِرْتَ بِالَّذِي أَحَادِرُ مِنْ لُبْنَى فَهَلْ أَنْتَ وَاقِعُ

فقلت: ليس هذا ذاك الغراب. فقالت: والله ما نراك تأخذ البريء بالسقيم حتّى تظفرَ بذلك الغراب.

قال أبو حاتم رحمه الله: قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات والأشعار على التقصي في كتاب «الوداع والفراق» فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب؛ إذ شرطنا فيه الإشارة إلى الشيء المحصول، والإيماء إلى الشيء المقول.

ذكر الحث على زيارة الإخوان وإكرامهم

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا يزيد بن صالح الشكري، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ، فَأَرَصَدَ اللَّهَ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ فَقَالَ: أُرِيدُ

أَخَا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. فَقَالَ: هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرْبُّهَا؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّهُ فِي اللَّهِ. قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ: أَنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّنِيَّ».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل تعاهد الزيارة للإخوان وتفقد أحوالهم؛ لأن الزائر في قصده الزيارة يشتمل على مصادفة معينين: أحدهما: استكمال الذخر في الآجل بفعله ذلك.

وقد قال بعض القدماء: إن الرجل إذا زار أخاه في الله، لم يبق في السماء ملك إلا حياه بتحية مستأنفة لا يُحييه ملك مثله، ولم تبق شجرة من شجر الجنة إلا نادى صاحبيتها: ألا إن فلان ابن فلان زار أخا في الله.

والآخر: التلذذ بالمؤانسة بالأخ المزور، مع الانقلاب بغيمتين معاً. ولقد أنبأنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا عبد الله بن رجاء الغداني قال: كان عتبة الغلام يأوي [إلى] المقابر والصحارى، ثُمَّ يخرج إلى السواحل فيقيم بها، فإذا كان يوم الجمعة دخل البصرة فشهد الجمعة ورأى إخوانه فسلم عليهم.

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثني بعض مشيختنا، قال: قال عامر بن عبد قيس: إنما أجذني آسف على البصرة لأربع خصال:

تجاوب مؤذنيها، وظمأ الهَوَاجِر، ولأن بها إخواني، ولأن بها وطني. أنبأنا مُحمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحمَّد بن بشر الخطابي، حدثنا مُحمَّد بن سهل التميمي، قال: سمعت الفريابي يقول: جاءني وكيع بن الجراح من بيت المقدس وهو محرم بعمره، فقال: يا أبا مُحمَّد لم يكن طريقي عليك، ولكنني أحببت أن أزورك وأقيم عندك، فأقام عندي ليلة، وجاءني ابن المبارك، وقد أحرم بعمره من بيت المقدس فأقام عندي ثلاثاً، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، أقم عندي عشرة أيام قال: لا، الضيافة ثلاثة أيام.

قال أبو حاتم رحمه الله: الناس في الزيارة على ضربين:

فمنهم: من صحح الحال بينه وبين أخيه، وتعرّى عن وجود الخلل، وورود البغض فيه، فإذا كان بهذا النعت، أحببت له الإكثار من الزيارة، والإفراط في الاجتماع؛ لأن الإكثار من الزيارة بين من هذا نعته لا يُورث المُلالة، والإفراط في الاجتماع بين من هذه صفته يزيد في الموانسة.

والضرب الآخر: مَنْ لَمْ يستحکم الود بينه وبين من يؤاخيه، ولا أدّاهما الحالُ إلى ارتفاع الحشمة بينهما فيما يتبدلان لمهتتهما، فإذا كان بهذا النعت أحببت له الإقلال من الزيارة؛ لأن الإكثار منها بينهما يؤدي إلى المُلالة، وكل مبدول مملول، وكل مَمْنوع ملذوذ.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أخبار كثيرة تصرح بنفي الإكثار من الزيارة حيث يقول: «زُرْ غَيًّا تَزِدُّ حُبًّا». إلا أنه لا يصح منها خبر من جهة النقل، فتنبأنا عن ذكرها وإخراجها في الكتاب، وإليها ذهب بعض الناس حتّى ذكروها في أشعارهم.

من ذلك ما أنشدني مُحَمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -وَكَانَ بَرًّا- إِذَا زُرْتَ الْحَبِيبَ فَزُرْهُ غَيًّا
وَأَقْلِلْ زُورَ مَنْ تَهْوَاهُ تَزِدُّهُ
وَأُنْشِدُنِي مُحَمَّد بن أبي علي:

إِنِّي رَأَيْتُكَ لِي مُحِبًّا وَإِلَيَّ حِينَ أَغِيبُ صَبًّا
فَقَعَّذْتُ لَا لِمَلَالَةٍ حَدَّثْتُ وَلَا اسْتَحْدَثْتُ ذَنْبًا
إِلَّا لِقَوْلِ نَبِيِّنَا زُورُوا عَلَى الْأَيَّامِ غَيًّا

أنبأنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا خالد بن أحمد الشيباني، حدثنا سعيد ابن عنبسة، حدثنا حُميد بن عبد الرحمن الرؤاسي قال: سمعت الحسن بن صالح يقول: كل مودة لا تزدد إلا بالالتقاء مدخولة.

قال أبو حاتم عليه السلام: من صحح الحال بينه وبين الإخوان لم يضره كثرة الالتقاء، ولا يضره قلة الاجتماع، لاستحكام الحال بينهما، والمودة إذا أضرب بها قلة الالتقاء تكون مدخولة، وأما من لم يحل في نفس صحة الحال، ولم يستحكم أسباب الوداد؛ فالتوقي من الإكثار في الزيارة أولى به، لئلا يستقل ويمل.

وأنشدني الخلادي، أنشدني أحمد بن محمد الصيداي:

عَلَيْكَ بِأَقْلَالِ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا تَكُونُ إِذَا دَامَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَسْلَكًا
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْقَطَرَ يُسَامُ دَائِبًا وَيُسَالُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكًا
وأنشدني الكريزي:

أَقْلَلْ زِيَارَتَكَ الْحَبِيبِ بَبْ تَكُونُ كَالثَّوْبِ اسْتَجَدَّه
إِنَّ الصَّدِيقَ يُمَلُّهُ أَلَّا يَزَالَ يَرَاكَ عِنْدَهُ

وأنشدني ابن أوس أحمد بن محمد بن أوس لأبي تمام:

وَطُولُ مُقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ لِدِيَابِجَتَيْهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدْ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى الْخَلْقِ إِذْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدْ

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا حسين بن الوليد، حدثنا عبد الله بن المؤمل، عن ابن أبي مليكة قال: قال ابن عباس: «أكرم الناس عليّ جليسي الذي يتخطى رقاب الناس حتّى يجلس إليّ».

أنبأنا مكحول بـ«بيروت»، حدثنا عبيد الله بن محمد بن هارون، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن سعيد بن بشير، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى: ٢٦]. قال: يُشَفَّعُونَ فِي إِخْوَانِهِمْ ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. قال: يُشَفَّعُونَ فِي إِخْوَانِهِمْ.

ذكر صفة الأحمق والجاهل معاً

أنبأنا مُحَمَّد بن نصر بن نوفل، أنبأنا أبو داود السنجي، حدثنا أبو عاصم، عن شبيل بن عزرة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ الْعَطَّارِ، إِنْ لَمْ يُعْطِكَ شَيْئًا يُصْبِكَ مِنْ عِطْرِهِ، وَمَثَلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ الْقَيْنِ، إِنْ لَمْ يَحْرِقْ ثَوْبَكَ، أَصَابَكَ مِنْ دُخَانِهِ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: شبيل بن عزرة؛ هذا من أفاضل أهل البصرة وقرائهم، ولكنه لم يحفظ إسناد هذا الخبر؛ لأن أنس بن مالك سمع هذا الخبر من أبي موسى عن النبي ﷺ، فقصر به شبيل، ولم يحفظه.

والواجب على العاقل: ترك صحبة الأحمق، ومُجانبة معاشرة النوكى، كما يجب عليه لزوم صحبة العاقل الأريب، وعشرة الفطن اللبيب؛ لأن العاقل وإن لم يصبك الحظ من عقله، أصابك من الاعتبار به، والأحمق إن لم يُعِدِكَ حمقه تَدَنَسَتْ بعشرته.

وقد أنبأنا الحسين بن محمد السنجي، حدثنا إبراهيم بن أبي داود البرُّسِّي، حدثنا زهير بن عباد، حدثنا شهاب بن خراش، عن أبيه، عن يُسير بن عمرو -وكان قد أدرك الصحابة- قال: «اهجر الأحمق، فليس للأحمق خير من هجرانه».

أنبأنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحَمَّد بن أبي يعقوب الربعي، حدثنا أحمد بن إسحاق الخشاب، عن الأصمعي، عن سلمة بن بلال قال: كان فتى يعجب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فرآه يوماً، وهو يُماشي رجلاً متَّهماً، فقال له:

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ

فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرَدَى حَلِيمًا حِينَ أَخَاهُ

يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ إِذَا مَا هُوَ وَمَا شَاهُ

وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ مَقَايِيسٌ وَأَشْبَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

اخْتَرْتُ ذَوِي التَّمْيِيزِ وَاسْتَبَقْتَهُمْ وَجَانِبِ التَّوَكُّيْ وَأَهْلَ الرِّيبِ
فَصُحْبَةُ الْعَاقِلِ زَيْنُ الْفَتَى وَصُحْبَةُ الْأَنُوكِ أَخَذُ السَّبَبِ

قال أبو حاتم رحمته الله: من علامات الحمق التي يجب للعاقل تفقدها ممن خفي عليه أمره: سرعة الجواب، وترك الثبت، والإفراط في الضحك، وكثرة الالتفات، والوقعة في الأخيار، والاختلاط بالأشرار.

والأحمق إذا أعرضت عنه اغتم، وإن أقبلت عليه اغتر، وإن حُلِّمت عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم عنك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإذا ظلمته انتصفت منه، ويظلمك إذا أنصفته.

وما أشبه عشرة الحمقى إلا بما أنشدني مُحَمَّد بن إسحاق الواسطي:

لِي صَدِيقٌ يَرَى حُقُوقِي عَلَيْهِ نَافِلَاتٍ وَحَقَّهُ كَانَ فَرَضًا
لَوْ قَطَعْتُ الْجِبَالَ طُولًا إِلَيْهِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِ طُولِهَا سِرْتُ عَرَضًا
لَرَأَى مَا صَنَعْتُ غَيْرَ كَبِيرٍ وَاشْتَهَى أَنْ أَزِيدَ فِي الْأَرْضِ أَرْضًا

حدثنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا إبراهيم بن الجندب قال: قال لي أبو طاهر ابن السرح قال: حدثني خالي أبو رجاء عبد الرحمن بن عبد الحميد، عن سعيد ابن أبي أيوب قال: لا تصاحب صاحب السوء، فإنه قطعة من النار، لا يستقيم وُدُّه، ولا يفي بعهده.

وأنشدني المتتصر بن بلال الأنصاري:

لَنْ يَسْمَعَ الْأَحْمَقُ مِنْ وَاعِظٍ فِي رِفْعَةِ الصَّوْتِ وَفِي هَمْسِهِ

لَنْ تَبْلُغَ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ
وَالْحُمُقُ دَاءٌ مَالَهُ حِيلَةٌ تُرْجَى كَبُعْدُ النِّجْمِ فِي لَمْسِهِ

قال أبو حاتم رحمه الله: أظلم الظلمات: الحمق، كما أن أنفذ البصائر: العقل، فإذا امتحن المرء بعشرة الأحمق كان الواجب عليه اللزوم لأخلاق نفسه، والمباينة لأخلاقه، مع الإكثار من الحمد لله على ما وهب له من الانتباه لِمَا حرم غيره التوفيق له، فإن جرى الأحمق في صحبته ميدانه في عشرته؛ فالواجب على العاقل لزوم السكوت حينئذ في أوقاته؛ لأن أبا حمزة مُحَمَّد بن عمر بن يوسف أنبأنا بـ«نَسَا» حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا ابن داود قال: سمعت الأعمش يقول: السكوت للأحمق جواب.

قال أبو حاتم رحمه الله: وإن من الحمقى مَنْ لا يصدُّه عن سلوكه السكوت عنه، ولا يدفعه عن دخول المكان من الإغضاء عنه ولا ينفعه.

فالعاقل إذا امتحن بعشرة من هذا نعتة؛ تكلف بعض التجاهل في الأحيان؛ لأن بعض الحلم إذعان، كما أن استعماله في بعض الحالات قطب العقل. ولقد أنشدني مُحَمَّد بن إسحاق الواسطي:

لَئِنْ كُنْتُ مُحْتَاجًا إِلَى الْحِلْمِ إِنِّي إِلَى الْجَهْلِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَخَوْجُ
وَلِي فَرَسٌ لِلْحِلْمِ بِالْحِلْمِ مُلْجَمٌ وَلِي فَرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالْجَهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ شَاءَ تَقْوِيْمِي فَإِنِّي مُقَوِّمٌ وَمَنْ شَاءَ تَعْوِيْجِي فَإِنِّي مُعْوِجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الْجَهْلَ خِذْنَا وَلَا أَخَا وَلَكِنِّي أَرْضَى بِهِ حِينَ أُخْرَجُ
فَإِنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ فِيهِ سَمَاجَةٌ فَقَدْ صَدَقُوا وَالذُّلُّ بِالْحُرِّ أَسْمَجُ

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:
لَنْ تُرْضِيَ الرَّذْلَ إِلَّا حِينَ تُسْخِطُهُ وَلَيْسَ يَسْخَطُ إِلَّا حِينَ تُرْضِيهِ

وَلَا يَسُوءُكَ إِلَّا حِينَ تَكْرِمُهُ وَلَا يَسُرُّكَ إِلَّا حِينَ تُقْصِيهِ

حدثنا أبو يعلى، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا أبو سفيان المعمرى، عن سفيان الثوري قال: «ابن آدم لم يُخلق إلا أحمق، ولولا ذلك لم ينفعه عيشه».

حدثنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا عصام بن الفضل الرازي، حدثنا الزبير بن بكار، عن مُحَمَّد بن حرب قال: قال عبد الله بن حسن لابنه: يا بني احذر الجاهل، وإن كان لك ناصحًا، كما تحذر العاقل إذا كان لك عدوًّا؛ فيوشك الجاهل أن يورطك بمشورته في بعض اغترارك، فيسبق إليك مكر العاقل.

قال أبو حاتم رحمته الله: ومن شيم الأحمق: العجلة، والخفة، والعجز، والفجور، والجهل، والمقت، والوهن، والمهانة، والتعرض، والتحاسد، والظلم، والخيانة، والغفلة، والسهو، والغى، والفحش، والفخر، والخيلاء، والعدوان، والبغضاء.

وإن من أعظم أمارات الحمق في الأحمق: لسانه؛ فإنه يكون قلبه في طرف لسانه، ما خطر على قلبه نطق به لسانه.

والأحمق يتكلم في ساعة بكلام يعجز عنه سحبانٌ وأئيل، ويتكلم في الساعة الأخرى بكلام لا يعجز عنه باقل.

والعاقل يجب عليه مُجَانِبَةٌ من هذا نعته، وترك مُخَالَطَةٍ من هذه صفته، فإنهم يَجْتَرِئُونَ على من عاشرهم، ألا ترى الرُّطَّ ليسوا هم بأشجع الناس، ولكنهم يَجْتَرِئُونَ على الأُسْدِ لكثرة ما يرونها.

وأنشدني مُحَمَّد بن يوسف بن أيوب الأرمني:

وَلَمَنْ يُعَادِي عَاقِلًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَقُ
فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تُصَادِقَ أَحْمَقًا إِنَّ الصَّدِيقَ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ

وأنشدني منصور بن مُحَمَّد الكريزي، أنشدني أبي لصالح بن عبد القدوس

رَحِمَهُ اللهُ:

اخْذِرِ الْأَحْمَقَ أَنْ تَصْحَبَهُ
 كَلَّمَا رَقَعْتَهُ مِنْ جَانِبٍ
 أَوْ كَصَدْعٍ فِي زُجَاجٍ فَاحْشِ
 كَحِمَارِ السُّوءِ إِنْ أَقْضَمْتَهُ
 وَإِذَا جَالَسْتَهُ فِي مَجْلِسٍ
 وَإِذَا نَهْنَهْتَهُ كَيْ يَرْعَوِي
 عَجَبًا لِلنَّاسِ فِي أَرْزَاقِهِمْ
 إِنَّمَا الْأَحْمَقُ كَالثَّوْبِ الْخَلِقُ
 حَرَّكَتُهُ الرِّيحُ وَهَنًا فَانْخَرَقُ
 هَلْ تَرَى صَدْعَ زُجَاجٍ يَلْتَصِقُ
 رَمَحَ النَّاسِ وَإِنْ جَاعَ نَهَقُ
 أَفْسَدَ الْمَجْلِسَ مِنْهُ بِالْخَرَقِ
 زَادَ شَرًّا وَتَمَادَى فِي الْحَمَقِ
 ذَاكَ عَطُشَانٌ وَهَذَا قَدْ غَرِقُ

أنبأنا يعقوب بن إسحاق القاضي، حدثنا أبو هانئ عبد الحميد بن عبد الله،
 حدثنا عبد المنعم، عن أبيه، عن وهب بن منبه قال: «الأحمق كالثوب الخلق، إن
 رفته من جانب انخرق من جانب آخر، ومثل الفخار المكسور، لا يرقع، ولا يُشعب،
 ولا يُعاد طيناً.

فهذا مثل الأحمق؛ إن صحبته عتاك، وإن اعتزلته شتمك، وإن أعطاك منَّ
 عليك، وإن أعطيته كفرك، وإن أسرَّ إليك اتهمك، وإن أسررت إليه خانك، وإن
 كان فوقك حقرك، وإن كان دونك غمزك».

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

اعْلَمْ بِأَنَّ مِنَ الرَّجَالِ بِهِيمَةً
 فِي صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ
 فَطِنًا بِكُلِّ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ
 وَإِذَا يُصَابُ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرْ

وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

وَإِنَّ عَنَاءَ أَنْ تُفَهِّمَ جَاهِلًا
 فَيَحْسَبَ جَهْلًا أَنَّهُ مِنْكَ أَعْلَمُ
 وَتَشْخُصُ أَبْصَارُ الرِّعَاعِ تَعْجَبًا
 إِلَيْهِ وَقَالُوا: إِنَّهُ مِنْكَ أَفْهَمُ!

قال أبو حاتم رحمه الله: الأحقق يتوهم أنه أعقل من رُكِّبَ فيه الروح، وأن الحمق قُسم على العالم غيره، والأحقق مُبَغَّضٌ في الناس، مَجْهُولٌ في الدنيا، غير مرضي العمل، ولا مَحْمُود الأمر عند الله وعند الصالحين، كما أن العاقل مُحَبَّبٌ إلى الناس، مُسَوَّدٌ في الدنيا، مرضي العمل عند الله في الآخرة، وعند الصالحين في الدنيا.

أنبأنا مُحَمَّد بن المنذر بن سعيد، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندي، حدثنا عبد الله بن سليمان قال: كان الحسن يقول: «أنا للعاقل المدبر أرجى مني للأحمق المقبل».

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

وَمَا الْغَيُّ إِلَّا أَنْ تُصَاحِبَ غَاوِيَا وَمَا الرُّشْدُ إِلَّا أَنْ تُصَاحِبَ مَنْ رَشَدُ
وَلَنْ يَصْحَبَ الْإِنْسَانُ إِلَّا نَظِيرَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنَا مِنْ قَبِيلٍ وَلَا بَلَدُ

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

لَنَا جَلِيسٌ تَارِكٌ لِلْأَدَبِ جَلِيسُهُ مِنْ نَوَكِهِ فِي تَعَبِ
يَغْضَبُ جَهْلًا عِنْدَ حَالِ الرِّضَا عَمْدًا وَيَرْضَى عِنْدَ حَالِ الْغَضَبِ
فَنَحْنُ مِنْهُ كُلَّمَا جَاءَنَا فِي عَجَبٍ قَدْ جَازَ حَدَّ الْعَجَبِ
فَكَأَنَّه مِنْ سُوءِ تَأْدِيبِهِ أُسْلِمَ فِي كُتَّابِ سُوءِ الْأَدَبِ

أنبأنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحَمَّد بن أبي يعقوب الربيعي، حدثنا عبد الله بن موسى البصري، حدثنا العتبي، قال: سمعت أعرابياً يقول: العاقل بخشونة العيش مع العقلاء أَسْرُّ منه بليين العيش مع السفهاء.

قال أبو حاتم رحمه الله: وإن من شيم العاقل: الحلم، والصِّمت، والوقار، والسكينة، والوفاء، والبذل، والحكمة، والعلم، والورع، والعدل، والقوة، والحزم، والكياسة، والتميز، وحسن السِّمت، والتواضع، والعفو، والإغضاء، والتعفف، والإحسان.

فإذا وفق المرء لصحبة العاقل فليشدَّ يديه به، ولا يُزِيله على الأحوال كلها.
والواجب على العاقل ألا يصحب بحيلة مَنْ لا يستفيد منه خيرًا.
ولقد أنبأنا مُحَمَّد بن مَحْمود بن عدي النسوي، حدثنا علي بن سعيد بن
جرير، قال: سمعت أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «أُخْبِرْتُ عَنْ مَالِك بن دينار
أنه قال: مررتُ براهب في صومعته فناديته، فأشرف عليّ، فكلمني وكَلَّمته، فقال
لي فيما يقول: إذا استطعتَ أن تجعل فيما بينك وبين الدنيا حائطًا من حديد
فافعل، وإياك وكلّ جليس لا تستفيد منه خيرًا فلا تُجالسه، قريبًا كان أو بعيدًا».

ذكر الزجر عن التجسس وسوء الظن

حدثنا مُحَمَّد بن أحمد الرِّقَام بـ «تُسْتَر»، حدثنا أبو الخطاب زياد بن يَحْيَى،
حدثنا أبو داود، حدثنا سليمان بن حيان، عن أبيه، عن أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال
رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا
وَلَا تَبَاغُضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا».

حدثنا مُحَمَّد بن عثمان العقيبي، حدثنا جعفر بن مُحَمَّد بن الحجاج
الرقبي، حدثنا مُحَمَّد بن حاتم الجَرْجَرَانِي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن يونس بن
نافع، عن كثير بن زياد، قال: سمعت الحسن يقول: لا تسأل عن عمل أخيك
الحسن والسيئ، فإنه من التجسس.

قال أبو حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الواجب على العاقل: لزوم السلامة بترك التجسس
على عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإن من اشتغل بعيوبه عن
عيوب غيره، أراح بدنه ولم يُتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هَانَ عليه ما
يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه
وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس
بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه، من عاب الناس عابوه.

ولقد أحسن الذي يقول:

إِذَا أَنْتَ عِبْتَ النَّاسَ عَابُوا وَأَكْثَرُوا
وَقَدْ قَالَ فِي بَعْضِ الْأَقَاوِيلِ قَائِلٌ
إِذَا مَا ذَكَرْتَ النَّاسَ فَاتْرُكْ عُيُوبَهُمْ
وَإِنْ عِبْتَ قَوْمًا بِالَّذِي لَيْسَ فِيهِمْ
وَإِنْ عِبْتَ قَوْمًا بِالَّذِي فِيكَ مِثْلُهُ
وَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسُ مَنْ عَيْبَ نَفْسِهِ
مَتَى تَلْتَمِسَ لِلنَّاسِ عَيْبًا تَجِدْ لَهُمْ
فَسَالِمُهُمْ بِالْكَفِّ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ
عَلَيْكَ وَأَبْدُوا مِنْكَ مَا كَانَ يُسْتَرُّ
لَهُ مَنُطِقٌ فِيهِ كَلَامٌ مُحَبَّرٌ
فَلَا عَيْبَ إِلَّا دُونَ مَا مِنْكَ يُذَكَّرُ
فَذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ أَكْبَرُ
فَكَيْفَ يَعِيبُ الْعُورَ مَنْ هُوَ أَعْوَرُ
أَشَدُّ إِذَا عَدَّ الْعُيُوبَ وَأَنْكَرُ
عُيُوبًا وَلَكِنَّ الَّذِي فِيكَ أَكْثَرُ
بِعَيْبِكَ مِنْ عَيْنِكَ أَهْدَى وَأَبْصَرُ

حدثنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا هارون بن صدقة القاضي، حدثنا سعيد بن مسلمة الإيادي، قال: ادعت امرأة على رجل حمارًا لها، فقدمته إلى القاضي، فسألها البينة، فأحضرت أبا دلامة ورجلاً آخر، فقال لها القاضي: أما شاهدك هذا فقد قبلنا شهادته، فَأَتَيْنَا بِشَاهِدٍ آخَرَ، فَأَتَتْ أبا دلامة فأخبرته، فصار إلى القاضي وأنشأ يقول:

إِنَّ النَّاسَ غَطَوْنِي تَغَطَّيْتُ عَنْهُمْ
وَإِنْ حَفَرُوا بِثَرِي حَفَرْتُ بِثَارِهِمْ
فَقَالَ الْقَاضِي لِلْمَرْأَةِ: كَمْ ثَمَنَ حِمَارِكَ؟ قَالَتْ: ثَلَاثُمِائَةٍ، قَالَ: قَدْ احْتَمَلْتُهَا لَكَ مِنْ مَالِي.

وَأَنشَدَنِي الْكَرِيزِيُّ:

أَرَى كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَى عَيْبَ غَيْرِهِ
وَيَعْمَى عَنِ الْعَيْبِ الَّذِي هُوَ فِيهِ

وَمَا خَيْرٌ مَنْ تَخَفَى عَلَيْهِ عُيُوبُهُ وَيَبْدُو لَهُ الْعَيْبُ الَّذِي لِأَخِيهِ

حدثنا مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا الليث بن عبدة المصري، حدثنا الحسن بن واقع، حدثنا ضمرة، عن الشيباني، قال: في الكتب مكتوب: كما تدين تدان، وبالكأس الذي تسقي به تشرب وزيادة؛ لأن البادئ لا بد له من أن يزداد.
قال أبو حاتم رحمته الله: التجسس من شعب النفاق، كما أن حسن الظن من شعب الإيمان، والعاقل يحسن الظن بإخوانه، وينفرد بغمومه وأحزانه، كما أن الجاهل يسيء الظن بإخوانه، ولا يفكر في جنائياته وأشجانه.
ولقد أحسن الذي يقول:

مَا يَسْتَرِيحُ الْمُسِيءُ ظَنًّا مِنْ طُولِ غَمٍّ وَمَا يُرِيحُ
وَقَلَّ وَجْهُهُ يَضِيقُ إِلَّا وَدُونَهُ مَذْهَبٌ فَسِيحُ
مَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُ هَبَّتْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ إِلَيْهِ رِيحُ
وَالْجِسْمُ حَيْثُ اسْتَقَرَّ هَادٍ وَالرُّوحُ جَوَالَةٌ تَسِيحُ
كَمْ تَذْبَحُ الْأَرْضُ مِنْ بَنِيهَا كُلُّ بَنِيهَا لَهَا ذَبِيحُ
لَنْ يَهْلِكَ الْمَرْءُ مِنْ سَمَاحٍ وَقَلَّمَ مَا يُفْلِحُ الشَّحِيحُ

قال أبو حاتم رحمته الله: سوء الظن على ضربين:
أحدهما: منهي عنه بحكم النبي ﷺ.
والضرب الآخر: مستحب.

فأما الذي نهى عنه: فهو استعمال سوء الظن بالمسلمين كافة على ما تقدم ذكرنا له.

وأما الذي يستحب من سوء الظن: فهو لمن بينه وبينه عداوة أو شحنة في دين أو دنيا، يخاف على نفسه مكرهه، فحينئذ يلزمه سوء الظن بمكائده ومكره؛

لئلا يصادفه على غرةٍ بمكره فيهلكه.

وفي ذلك أنشدني الأبرش:

وَحُسْنُ الظَّنِّ يَحْسُنُ فِي أُمُورٍ وَيَكْمُنُ فِي عَوَاقِبِهِ نَدَامُهُ
وَسُوءُ الظَّنِّ يَسْمُجُ فِي وُجُوهِ وَفِيهِ مِنْ سَمَاجَتِهِ حَزَامُهُ

وأنشدني مُحَمَّد بن إِسحاق الواسطي:

مَا يَنْبَغِي لِأَخِي لُبٌّ وَتَجَرِبَةٌ أَنْ يَتْرَكَ الدَّهْرَ سُوءَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
حَتَّى يَكُونَ قَرِيبًا فِي تَبَاعُدِهِ غَبًّا وَيَدْفَعُ ضَرَّ الْجِرْصِ بِالْيَاسِ

حدثنا مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا إبراهيم بن هانئ، حدثنا ابن أبي مريم، أنبأنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن بَسْر بن سعيد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: مكتوب في التوراة: «من نَحَرَ نُجْرًا، ومن حفر حفرة سوء لصاحبه وقع فيها».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل مباينة العوام في الأخلاق والأفعال، بلزوم ترك التجسس على عيوب الناس؛ لأن من بحث عن مكنون غيره بُحِثَ عن مكنون نفسه، وربما طَمَّ مكنونه على ما بحث من مكنون غيره، وكيف يُسْتَحْسَنُ بمسلم ثَلَبَ مسلم بالشيء الذي هو فيه؟

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

لَا تَلْتَمِسْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا فَيَهْتِكَ النَّاسُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَ
وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذَكَّرُوا وَلَا تَعِبْ أَحَدًا عَيْبًا بِمَا فِيكَ

وأنشدني مُحَمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

إِذَا مَا اتَّقَيْتَ الْأَمْرَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى وَأَبْصَرْتَ مَا تَأْتِي فَأَنْتَ لَيْبٌ
وَلَا تَكُ كَالنَّاهِي عَنِ الذَّنْبِ غَيْرُهُ وَفِي كَفِّهِ مِمَّا يُذَمُّ نَصِيبٌ

يَعِيبُ فِعَالُ السُّوءِ مِنْ فِعْلِ غَيْرِهِ وَيَفْعَلُ أَفْعَالُ الَّذِينَ يَعِيبُ

حدثنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحَمَّد بن موسى السمری، حدثنا حماد بن إسحاق بن إبراهيم، عن أبيه، قال: وحدثني عزيز، عن الزبير بن موسى المخزومي قال: قالت ابنة عبد الله بن مطيع الأسود -وهي زوجة طلحة بن عبد الله ابن عوف لزوجها-: ما رأيت أحداً قط أَلَامَ من أصحابك!! قال: مه، لا تقولي ذاك فيهم، وما رأيت من لؤمهم؟ قالت: أمراً والله بيّناً. قال: وما هو؟ قالت: إذا أيسرتَ لزموك، وإذا أعسرتَ جانبوك. قال: ما زدتَ على أن وصفتهم بمكارم الأخلاق. قالت: وما هذا من مكارم الأخلاق؟ قال: يأتوننا في حال القوة منا عليهم، ويفارقوننا في حال الضعف منا عليهم.

أخبرنا عمر بن محمد الهمداني: ثنا الفضل بن سهل الأعرج: ثنا يعقوب ابن إبراهيم بن سعد: ثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب: حدثني زُرارة ابن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف: أن المِسْوَرَ بن مخرمة أخبره:

أن عبد الرحمن بن عوف أخبره: أنه حرس ليلة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فبينما هم يمشون إذا شَبَّ لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمُّونه؛ حتى إذا دنوا إذا باب البيت مُجافٍ على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر -وأخذ بيد عبد الرحمن-: أتدري بيت من هذا؟ فقال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن في شُرْب، قال: فماذا ترى؟ فقال عبد الرحمن: أرى أنا قد أتينا ما نُهينا عنه، قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]. وقد تجسَّسنا، فانصرف عمرُ وتركه.

ذكر الحث على مُجانبة الحرص للعاقل

حدثنا مُحَمَّد بن إسحاق بن خزيمة رحمته الله، حدثنا بشر بن معاذ العقدي، حدثنا أبو عوانة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه قال: قال النَّبي ﷺ: «يَهْرُمُ ابْنُ آدَمَ،

وَتَشَبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ، وَالْحَسَدُ.

قال أبو حاتم رحمه الله: رَكِبَ اللهُ -جل وعز- فِي البشَرِ الحِرْصَ والرَّغْبَةَ فِي الدُّنْيَا الفَانِيَةِ، لِثَلَا تَخْرُبُ؛ إِذْ هِيَ دَارُ الْأَبْرَارِ، وَمَكْسَبُ الْأَتْقِيَاءِ، وَمَوْضِعُ زَادِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاسْتِجْلَابِ الْمَيِّزَةِ لِلصَّالِحِينَ، وَلَوْ تَعَرَّى النَّاسُ عَنِ الْحِرْصِ فِيهَا بَطَلَتْ وَخَرِبَتْ، فَلَمْ يَجِدِ الْمُؤْمِنُ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِ اللَّهِ، فَضْلًا عَنْ اكْتِسَابِ مَا يُجْدِي عَلَيْهِ النِّفْعَ فِي الْآخِرَةِ نَفْلًا، وَالْإِفْرَاطِ فِي الْحِرْصِ مَذْمُومٌ.

كما أنشدني علي بن مُحَمَّدٍ البسامي:

لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا الرِّضَا بِقَضَاءِ الدِّ	هِ فِيمَا أَحْبَبْتُهُ أَوْ كَرِهْتُهُ
لَوْ إِلَيَّ الْأُمُورُ اخْتَارُ مِنْهَا	خَيْرَهَا لِي عَوَاقِبًا مَا عَرَفْتُهُ
وَلَوْ أَنِّي حَرَصْتُ جَهْدِي أَنْ أَدَّ	فَعَ أَمْرًا مُقَدَّرًا مَا دَفَعْتُهُ
فَأَرَى أَنْ أَرُدَّ ذَاكَ إِلَيَّ مَنْ	عِنْدَهُ عِلْمٌ كُلِّ مَا قَدْ جَهِلْتُهُ

وأنشدني مُحَمَّدُ بن نصير المديني:

يَا كَثِيرَ الْحِرْصِ مَشْغُورٌ	لَا بَدُنِيَا لَيْسَ تَبْقَى
مَا رَأَيْنَا الْحِرْصَ أَذْنَى	مِنْ حَرِيصٍ قَطُّ رِزْقًا
لَا وَلَكِنْ فِي قَضَاءِ الدِّ	هِ أَنْ تَعْمِيَا وَتَشْقَى
تَعْرِفُ الْحَقَّ وَلَكِنْ	لَا تَرَى لِلْحَقِّ حَقًّا

أُنْبَأَنَا أَحْمَدُ بن مُحَمَّدَ بن سعيد القيسي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن الوليد بن أَبَانَ، حَدَّثَنَا نَعِيمُ بن حماد، عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ قَالَ: سَخَاءُ النَّفْسِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ أَكْثَرُ مِنْ سَخَاءِ الْبَذْلِ، وَمَرْوَةُ الْقَنَاعَةِ أَكْثَرُ مِنْ مَرْوَةِ الْإِعْطَاءِ.

أنشدنا أبو يعلى قال: أنشدونا منذ دهر للشافعي:

قَدَرُ اللَّهِ وَاقِعٌ حَيْثُ يُقْضَى وَرُودُهُ

قَدْ مَضَىٰ فِيكَ حُكْمُهُ وَانْقَضَىٰ مَا يُرِيدُهُ
وَأَخُو الْحِرْصِ حِرْصُهُ لَيْسَ مِمَّا يَزِيدُهُ
فَأَرَدَ مَا يَكُونُ إِذْ لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُهُ

أنبأنا عبد الله بن عروة، حدثنا يعقوب الدورقي، حدثنا ابن عليه، عن أيوب، عن ابن سيرين قال: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون».

قال أبو حاتم رحمته الله: أغنى الأغنياء: من لم يكن للحرص أسيراً، وأفقر الفقراء: من كان الحرص عليه أميراً؛ لأن الحرص سبب لإضاعة الموجود عن مواضعه، والحرص محرمة، كما أن الجبن مقتلة، ولو لم يكن في الحرص خصلة تدم إلا طول المناقشة بالحساب في القيامة على ما جمع؛ لكان الواجب على العاقل ترك الإفراط في الحرص.

وقد كان بعض أصحابنا كثيراً ما ينشد:

تَجَانَبَ الْحِرْصَ وَدَعَّ عَنْكَ الْحَسَدَ فَفِيهِمَا الذُّلُّ وَإِتْعَابُ الْجَسَدِ

وأنشدني الكريزي:

وَأَرْقَنِي طُولَ التَّفَكُّرِ أَنْنِي عَجِبْتُ لِدهْرِ مَا تَقْضِي عَجَائِبُهُ
فَكَمْ عَاجِزٍ يُدْعَى جَلِيداً لِنَشْمِهِ وَلَوْ كَلَّفَ التَّقْوَى لَكَلَّتْ مَضَارِبُهُ
وَعَفٌّ يُسَمَّى عَاجِزاً لِعَفَافِهِ وَلَوْ لَا التَّقَى مَا أَعْجَزَتْهُ مَذَاهِبُهُ
فَلَيْسَ بِحِرْصٍ الْمَرْءُ أَدْرَكَهُ الْغِنَى وَلَا بِاِحْتِيَالٍ أَدْرَكَ الْمَالُ كَاسِبُهُ
وَلَكِنَّهُ قَبْضُ الْإِلَهِ وَبَسْطُهُ فَلَا ذَا يُجَاوِزُهُ وَلَا ذَا يُغَالِبُهُ

قال أبو حاتم رحمته الله: الحرص غير زائد في الرزق، وأهون ما يعاقب الحريص بحرصه أن يُمنع الاستمتاع بما عنده من محصوله، فيتعب في طلب ما لا يدري

أَيْلَحُّهُ أَمْ يَحُولُ الْمَوْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ؟ وَلَوْ لَزِمَ الْحَرِيصُ تَرْكَ الْإِفْرَاطِ فِيهِ وَاتَّكَلَ
عَلَى خَالِقِ السَّمَاءِ لِاتِّخَفِهِ الْمَوْلَى - جَلَّ وَعَزَّ - بِإِدْرَاكِ مَا لَا يَسْعَى فِيهِ، وَالظَّفَرُ بِمَا
لَوْ سَعَى فِيهِ وَهُوَ حَرِيصٌ عَلَيْهِ لَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ وَجُودُهُ.

وَأُنْشِدُنِي عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ الْبَسَامِي:

أَلَا رُبَّ بَاغٍ حَاجَةً لَا يَنَالُهَا وَآخِرَ قَدْ تُقْضَى لَهُ وَهُوَ آيَسُ
يُحَاوِلُهَا هَذَا وَتُقْضَى لِغَيْرِهِ وَتَأْتِي الَّذِي تُقْضَى لَهُ وَهُوَ جَالِسُ

وَأُنْشِدُنِي عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْأَبْرَشَ:

وَكَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَخَاهَا بِلَذَّةِ سَاعَةٍ أَكَلَاتِ دَهْرٍ
وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ يَسْعَى لِشَيْءٍ وَفِيهِ هَلَاكُهُ لَوْ كَانَ يَدْرِي

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: الْحَرَصُ عِلَامَةُ الْفَقْرِ، كَمَا أَنَّ الْبَخْلَ جُلُبَابُ الْمَسْكِنَةِ،
وَالْبَخْلَ لِقَاحُ الْحَرَصِ، كَمَا أَنَّ الْحَمِيَّةَ لِقَاحُ الْجَهْلِ، وَالْمَنَعَ أَخُو الْحَرَصِ، كَمَا
أَنَّ الْأَنْفَقَةَ تَوَامُ السَّفَهَةِ.

وَأُنْشِدُنِي عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: أَنْشِدُنِي الْغَلَابِي:

لَا تَأْتِيَنَّ نَذَالَةً لِمَنَالَةٍ فَلْيَأْتِيَنَّكَ رِزْقُكَ الْمَقْدُورُ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ آخِذٌ كُلَّ الَّذِي لَكَ فِي الْكِتَابِ مُحَبَّرٌ مَسْطُورُ
وَاللَّهُ مَا زَادَ أَمْرًا فِي رِزْقِهِ حِرْصٌ وَلَا أَرَى بِهِ التَّقْصِيرُ

وَأُنْشِدُنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَنْجِي الْبَغْدَادِي:

وَارْضَ مِنَ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا بِأَيْسَرِهِ وَلَا تَرَوْمَنَّ مَا إِنْ رُمْتَهُ صَعْبًا
إِنَّ الْغَنِيَّ هُوَ الرَّاضِي بِعَيْشَتِهِ لَا مَنْ يَظَلُّ عَلَى مَافَاتٍ مُكْتَتِبًا

أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ الْقَزَازِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى بْنُ حَمِيدِ الطَّوِيلِ،

حدثنا أبو عبد الرحمن العتبي، حدثني أبي قال: اختصمت بنو إسرائيل في القدر خمسمائة عام، ثُمَّ تحاكموا إلى عالم من علمائهم، فقالوا له: أخبرنا عن القدر، وقصّر وبين لتفهمه عنك العوام، فقال: حرمان عاقل، وحظ جاهل.

قال أبو حاتم رحمه الله: لا حظ في الراحة إن أطاع الحرص؛ إذ الحرص سائق البلايا، فالواجب على العاقل ألا يكون بالمفرط في الحرص في الدنيا؛ فيكون مذموماً في الدارين، بل يكون قصده إقامة فرائض الله، ويكون لبغيته نهاية يرجع إليها؛ لأن من لم يكن لقصده منها نهاية آذى نفسه وأتعب بدنه، فمن كان بهذا النعت فهو من الحرص الذي يُحمد.

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

الْحِرْصُ عَوْنٌ لِلزَّمانِ عَلَى الْفَتَى وَالصَّبْرُ نِعْمَ الْقِرْنُ لِلزَّمانِ
لَا تَخْضَعَنَّ فَإِنَّ دَهْرَكَ إِنْ رَأَى مِنْكَ الْخُضُوعَ أَمَدُهُ بِهِوَانِ
وَإِذَا رَأَى وَقَدْ قَصَدْتَ لِحَرْفِهِ بِالصَّبْرِ لَأَقَى الصَّبْرَ بِالْإِدْعَانِ

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي، أنشدني شعيب بن أحمد لأبي العتاهية:

لَا تَخْضَعَنَّ لِمَخْلُوقٍ عَلَى طَمَعٍ فَإِنَّ ذَاكَ مُضِرٌّ مِنْكَ بِالْدينِ

وأنشدني الكريزي أيضاً قال: أنشدني شعيب بن أحمد لأبي العتاهية:

قَدْ شَابَ رَأْسِي وَرَأْسُ الْحِرْصِ لَمْ يَشِبْ إِنَّ الْحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لَفِي تَعَبٍ
مَا لِي أَرَانِي إِذَا حَاوَلْتُ مَنْزِلَةً فَنِلْتُهَا طَمَحْتُ نَفْسِي إِلَى رُتَبٍ
لَوْ كَانَ يَنْفَعُنِي عِلْمِي وَتَجَرِبَتِي مَا اشْتَدَّ غَيْظِي عَلَى الدُّنْيَا وَلَا كَلْبِي

قال أبو حاتم رحمه الله: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات بعلمها في كتاب

«الثقة بالله» بما أرجو أن يكون فيه غنية لمن أراد الوقوف على معرفتها، فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

ذكر الزجر عن التحاسد والبغضاء

أُنبأنا مُحَمَّد بن الحسين بن مكرم البزاز بـ«البصرة»، حدثنا عمرو بن علي الفلاس، حدثنا أبو عاصم، عن ابن جريج، حدثني عطاء أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسِدُوا، وَلَا تَدَابِرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل: مُجانبة الحسد على الأحوال كلها؛ فإن أهون خصال الحسد هو ترك الرضا بالقضاء، وإرادة ضد ما حكم الله -جل وعلا- لعباده، ثُمَّ انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم. والحاسد لا تهْدأ روحه، ولا يَسْكُنُ قلبه، ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه، وهيهات أن يساعد القضاء ما للحساد في الأحشاء. وأنشدني مُحَمَّد بن إِسحاق بن حبيب الواسطي:

اعْذِرْ حَسُودَكَ فِيمَا قَدْ خُصِصْتَ بِهِ إِنَّ الْعُلَا حَسَنٌ فِي مِثْلِهَا الْحَسَدُ
إِنْ يَحْسُدُونِي فَإِنِّي لَا أَلُومُهُمْ قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا
فَدَامَ لِي وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمْ وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظًا بِمَا يَجِدُ
أَنَا الَّذِي وَجَدُونِي فِي صُدُورِهِمْ لَا أَرْتَقِي صَدْرًا مِنْهُمْ وَلَا أَرِدُ

أُنبأنا أبو خليفة، حدثنا ابن كثير، أنبأنا سفيان الثوري، عن أبي إِسحاق، عن عمرو بن ميمون، قال: رأى موسى رجلاً عند العرش فغبطه بمكانه، فسأل عنه، فقال: ألا أخبرك بعمل كان يعملُه؟ كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يعقُّ والديه. قال: وكيف يعقُّ والديه؟ قال: يستسب لهما حتَّى يُسَبَّأ، ولا يمشي بالنميمة.

أنشدني ابن بلال الأنصاري:

عَيْنُ الْحَسُودِ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَارِسَةً تُبْدِي مَسَاوِيكَ وَالْإِحْسَانَ يُخْفِيهَا
فَاحْذَرِ حِرَاسَتَهَا وَاحْذَرِ تَكْشِفَهَا وَكُنْ عَلَى قَدْرِ مَا تُؤَلِّيكَ تَوَلِّيَهَا

أنبأنا عبد الرحمن بن زياد الكتاني بـ«الأبلة»، حدثنا أبو يحيى الضريس،
حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن كعب بن علقمة، قال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه: «ما من أحد عنده من الله نعمة إلا وجدت له حاسداً، ولو كان المرء
أقوم من القدح لوجدت له غامزاً، وما ضررت كلمة لم يكن لها خواطب».

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

حَسَدُوا الْفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ فَالْقَوْمُ أَنْدَادُ لَهُ وَخُصُومُ
كَضَرَّائِرِ الْحَسَنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا حَسَدًا وَبَغْيًا: إِنَّهُ لَدَمِيمٌ
وَتَرَى اللَّيِّبَ مُحْسَدًا لَمْ يَجْتَلِبْ شَتَمَ الرِّجَالَ وَعَرَضَهُ مَشْتُومُ

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، حدثنا
غسان بن المفضل، أخبرني محمد بن يزيد، عن يونس بن عبيد، قال: قال ابن
سيرين: ما حسدتُ أحداً على شيء من الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف
أحسده على شيء من الدنيا، وهو يصير إلى الجنة؟! وإن كان من أهل النار
فكيف أحسده على شيء من الدنيا، وهو يصير إلى النار؟!

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الحسد من أخلاق اللئام، وتركه من أفعال الكرام،
ولكل حريق مطفئ، ونار الحسد لا تطفأ.

ومن الحسد يتولد الحقد، والحقد أصل الشر، ومن أضمر الشر في قلبه،
أنبت له نباتاً مرّاً مذاقه، نماؤه الغيظ، وثمرته الندم.

والحسد هو اسم يقع على إرادة زوال النعم عن غيره، وحلولها فيه.
فأما من رأى الخير في أخيه، وتمنى التوفيق لمثله، أو الظفر بحاله، وهو
غير مرید لزوال ما فيه أخوه؛ فليس هذا بالحسد الذي ذمّ ونهى عنه.

ولا يكاد يوجد الحسد إلا لمن عظمت نعمة الله عليه، فكلما أتحفه الله بترداد النعم، ازداد الحاسدون له بالمكروه والنقم.

وقد كان داود بن علي -رحمة الله عليه- ينشد كثيرًا:

إِنِّي نَشَأْتُ وَحُسَّادِي ذَوُو عَدَدٍ يَا ذَا الْمَعَارِجِ لَا تَنْقُصْ لَهُمْ عَدَدًا
إِنْ يَحْسُدُونِي عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَسَنِ فَمِثْلُ خُلُقِي فِيهِمْ جَرٌّ لِي حَسَدًا

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق، أخبرنا عباد بن عباد المهلي قال: قال أبو جعفر المنصور لسفيان بن معاوية: ما أسرع الناس إلى قَدَمَتِكَ المدينة! فقال: يا أمير المؤمنين:

إِنَّ الْعَرَانِينَ تَلْقَاهَا مُحَسَّدَةٌ وَلَنْ تَرَى لِلنَّاسِ حُسَادًا
وَأُنْشِدُنِي الْكَرِيزِي: أُنْشِدُنِي مُحمَّد بن الحسين العمِّي:

حَسَدُوا النِّعْمَةَ لَمَّا ظَهَرَتْ فَرَمَوْهَا بِأَبَاطِيلِ الْكَلِمِ
وَإِذَا مَا اللَّهُ أَبَدَى نِعْمَةً لَمْ يَضُرَّهَا قَوْلُ حُسَادِ النِّعَمِ

سمعت أحمد بن مُحمَّد بن الأزهر يقول: سمعت أحمد بن سعيد الدارمي يقول: سمعت أبا إسحاق الطالقاني يقول: كنا نتعلم في الكتَّاب -كما نتعلم «أبو جاد»- جهل نيسابوري، وبُخل مروي، وحسد هروي، وكرم بلخي.

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا عمران بن موسى بن أيوب، حدثني أبي، عن مغلل بن الحسين، عن هشام، عن ابن سيرين قال: ما حسدت أحدًا على دين ولا دنيا.

قال أبو حاتم رحمته الله: لا يوجد من الحسود أمان أحرز من البعد منه؛ لأنه ما دام مُشرفًا على ما خُصِصَتْ به دونه لم يزد ذلك إلا وحشة وسوء ظن بالله، ونماء للحسد فيه.

فالعاقل يكون على إماتة الحسد بما قدَّر عليه أحرص منه على تربيته، ولا يجد

لإماتته دواء أنفع من البُعاد، فإن الحاسد ليس يحسدك على عيب فيك، ولا على خيانة ظهرت منك، ولكن يحسدك لما ترَكَّبَ فيه من ضد الرضا بالقضاء، كما قال العتبي:

أَفَكَّرُ مَا ذَنْبِي إِلَيْكَ؟ فَلَا أَرَى لِنَفْسِي جُزْماً غَيْرَ أَنَّكَ حَاسِدٌ
وَأُشَدُّنِي عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ سَلِيمَانَ الْأَبْرَشِ:

لَيْسَ لِلْحَاسِدِ إِلَّا مَا حَسَدَ وَلَهُ الْبَغْضَاءُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ
وَأَرَى الْوَحْدَةَ خَيْرًا لِلْفَتَى مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ فَانْهَضْ إِنْ قَعَدَ
وَأُشَدُّنِي مُحَمَّدَ بْنَ نَصِيرِ الْمَدِينِيِّ لِحَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حُسُودٍ
لَوْ لَا اشْتِعَالَ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ
لَوْ لَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ لِلْحَاسِدِ النُّعْمَى عَلَى الْمَحْسُودِ

أُنَبِّأُنا مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ، حَدَّثَنَا رُوحُ بْنُ عُبَادَةَ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ، عَنْ حَمِيدٍ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، هَلْ يَحْسَدُ الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: مَا أَنْسَاكَ بَنِي يَعْقُوبَ؟ لَا أَبَا لَكَ! حَيْثُ حَسَدُوا يَوْسُفَ، وَلَكِنْ غَمَّ الْحَسَدُ فِي صَدْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا لَمْ يَعُدْ لِسَانَكَ وَتَعْمَلَ بِهِ يَدُكَ.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: الْعَاقِلُ إِذَا خَطَرَ بِبَالِهِ ضَرْبٌ مِنَ الْحَسَدِ لِأَخِيهِ أَبْلَغُ الْمَجْهُودِ فِي كِتْمَانِهِ، وَتَرَكَ إِبْدَاءَ مَا خَطَرَ بِبَالِهِ.

وَأَكْثَرُ مَا يَوْجَدُ الْحَسَدَ بَيْنَ الْأَقْرَانِ، أَوْ مِنْ تَقَارُبِ فِي الشَّكْلِ؛ لِأَنَّ الْكَتَبَةَ لَا يَحْسَدُهَا إِلَّا الْكَتَبَةُ، كَمَا أَنَّ الْحَجَبَةَ لَا يَحْسَدُهَا إِلَّا الْحَجَبَةُ، وَلَنْ يَبْلُغَ الْمَرْءُ مَرْتَبَةً مِنْ مَرَاتِبِ هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا وَجَدَ فِيهَا مَنْ يَبْغِضُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَحْسَدُهُ فِيهَا، وَالْحَاسِدُ خَصْمٌ مُعَانِدٌ لَا يَجِبُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَجْعَلَهُ حَكَمًا عِنْدَ نَائِبَةِ تَحَدُّثٍ، فَإِنَّهُ إِنْ

حكم لم يحكم إلا عليه، وإن قصد لم يقصد إلا له، وإن حرم لم يحرم إلا حظّه،
وإن أعطى أعطى غيره، وإن قعد لم يقعد إلا عنه، وإن نهض لم ينهض إلا إليه،
وليس للمحسود عنده ذنب إلا النعم التي عنده.

فليحذر المرء ما وصفت من أشكاله وأقرانه وجيرانه وبني أعمامه.
ولقد أنبأنا عمرو بن مُحمّد، حدثنا الغلابي، حدثنا العباس بن بكار قال:
قال رجل لشبيب بن شبة: إني لأحبك. قال: صدقت. قال: وما علمك؟ قال:
لأنك لست بجارٍ، ولا ابن عم.

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل الحازم: أن يُوطّن نفسه على
تَحَمُّلِ مقاساة ألم الحسد من الحاسد فيه، وأكثر ما يوجد الحسد من الجيران
والإخوان - إذا تعرّوا عن الديانة ولزوم أسباب الصيانة -؛ ثم من الأقارب؛ إذ
الأقارب في الحقيقة عقارب - إلا من عصمه الله، وجاز به عن أمثالها -، ثم في
أهل الصناعة الذين لم يسلكوا مسلك ذوي الحجا، ولا راموا محلّ أولي النحل
في مجانبة الدين في الأقوال، ولزوم ضده بالأعمال.

وأنشدني مُحمّد بن عبد الله بن زنجي البغدادى:
أَنْتَ أَمْرٌ قَصُرَتْ عَنْهُ مُرْوَةٌ إِلَّا مِنَ الْغِشِّ لِلْإِخْوَانِ وَالْحَسَدِ
إِنْ تَرَانِي خَيْرًا مِنْكَ تَحْسُدْنِي إِنَّ الْفَضِيلَةَ لَا تَخْلُو مِنَ الْحَسَدِ
قال أبو حاتم رحمته الله: بئس الشعار للمرء الحسد؛ لأنه يورث الكمد، ويورث
الحزن، وهو داء لا شفاء له.

والحاسد إذا رأى بأخيه نعمة بُهت، وإن رأى به عثرة شمت، ودليل ما في
قلبه كمين على وجه مبین، وما رأيت حاسداً سالم أحدًا.
والحسد داعية إلى النكد، ألا ترى إبليس؟ حسد آدم فكان حسده نكداً على
نفسه، فصار لعيناً بعدما كان مكيناً، ويسهل على المرء ترصّي كل ساخط في الدنيا

حَتَّى يَرْضَى، إِلَّا الْحُسُودَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُ النِّعْمَةِ الَّتِي حَسَدَ مِنْ أَجْلِهَا.
ولقد حدثني مُحَمَّد بن عثمان العقدي، حدثنا مُحَمَّد بن زكريا الغلابي،
حدثنا ابن عائشة قال: قال بعض الحكماء: أَلَزَمُ النَّاسَ لِلْكَأَبَةِ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ حَدِيدٌ،
وَرَجُلٌ حُسُودٌ، وَخَلِيطٌ لِلْأَدْبَاءِ وَهُوَ غَيْرُ أَدِيبٍ، وَحَكِيمٌ مُحَقِّقٌ لَدَى الْأَقْوَامِ.
وأبعد الناس من الدخول في دين الحق والنصيحة لأهله: جاهل ورث
الضلالة عن أهله، ورأس أهل ملته حظي فيهم بفضل الضلالة، ومعظمٌ للعالم
يرى بهجتها دائمة محبوبه، ويرى ما رُجِّي من خيرها قريباً، وما صُرف من شرِّها
بعيداً، ليس يعقد قلبه على الإيمان، ورجل خالط النساء فانصرف عنهم لحرصه
وشهره، ودامجهم على مكر وخديعة... وبالله التوفيق.

ذكر الحث على مجانبة الغضب وكراهية العجلة

أُنْبَأَنَا عمر بن حفص البزاز بـ«جُنْدِيسَابُور»، حدثنا مُحَمَّد بن زياد الزياتي،
حدثنا الفضيل بن عياض، عن سليمان، عن أَبِي صَالِحٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ جَابِرٍ قَالَ:
«جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: عَلَّمَنِي شَيْئًا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَلَا تُكْثِرُ
عَلَيَّ، لَعَلِّي أَعْقِلُ، قَالَ: لَا تَغْضَبْ».

قال أبو حاتم رحمه الله: أحسن الناس عقلاً: من لم يحرد، وأحضر الناس جواباً:
من لم يغضب، وسرعة الغضب أنكى في العاقل من النار في يبيس العوسج؛ لأن
من غضب زايله عقله، فقال ما سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ، وَعَمِلَ مَا شَأْنُهُ وَأَرَادَهُ.

ولقد أُنْبَأَنَا مُحَمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا إسحاق بن زكرياء البناني،
حدثنا عبد الصمد بن حسان، حدثني وهيب قال: مكتوب في الإنجيل: ابن آدم،
اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق؛ وإذا ظلمت
فلا تنتصر، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك.

وأنشدني الكريزي:

وَلَمْ أَرْ فَضْلًا تَمَّ إِلَّا بِشِيمَةٍ وَلَمْ أَرْ عَقْلًا صَحَّ إِلَّا عَلَى الْأَدَبِ
وَلَمْ أَرْ فِي الْأَعْدَاءِ حِينَ اخْتَبَرْتُهُمْ عَدُوًّا لِعَقْلِ الْمَرْءِ أَعْدَى مِنَ الْغَضَبِ
قال أبو حاتم رحمته الله: سرعة الغضب من شيم الحمقى، كما أن مُجانِبته من زي العقلاء.

والغضب بذُر الندم، فالمرء على تركه قبل أن يغضب أقدر منه على إصلاح ما أفسده بعد الغضب.

ولقد أنبأنا مُحَمَّد بن إِسحاق الثقفي، حدثنا حاتم بن الليث الجوهري، حدثنا بكار بن مُحَمَّد قال: كان ابن عون لا يغضب، فإذا أغضبه إنسان قال: بارك الله فيك!

وأنشدني مُحَمَّد بن إِسحاق بن حبيب الواسطي:

لَمْ يَأْكُلِ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ مَا كَلِمِهِمْ أَحْلَى وَأَحْمَدَ عَاقِبَةً مِنَ الْغَضَبِ
وَلَا تَلَحَّفَ إِنْسَانٌ بِمَلْحَفَةٍ أَبْهَى وَأَزَيْنَ مِنْ دِينٍ وَمِنْ أَدَبٍ

أنبأنا كامل بن مكرم، حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ضمرة، عن أبي سعيد قال: كان عون بن عبد الله بن عتبة إذا غضب على غلامه قال: ما أشبهك بمولاك! أنت تعصيني وأنا أعصي الله، فإذا اشتد غضبه قال: أنت حُرُّ لوجه الله.

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل إذا ورد عليه شيء بضد ما تهواه نفسه أن يذكر كثرة عصيانه ربّه، وتواتر حلم الله عنه، ثُمَّ يسكن غضبه ولا يُزري بعقله بالخروج إلى ما لا يليق بالعقلاء في أحوالهم، مع تأمل وفور الثواب في العقبي بالاحتمال ونفي الغضب.

وأنشدني الأنصاري:

وَكُظْمِي الْغَيْظَ أَوْلَى مِنْ مُحَاوَلَتِي غَيْظَ الْعَدُوِّ بِإِضْرَارِي بِإِيْمَانِي

لَا خَيْرَ فِي الْأَمْرِ تُزِدْنِي مَغْبَتُهُ يَوْمَ الْحِسَابِ إِذَا مَا نَصَّ مِيرَانِي

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ زِيَادِ الْعَنْبَرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ سَلَمَ بْنَ مَيْمُونِ الْخَوَاصِ يَقُولُ:

سَكَتُ عَنِ السَّفِيهِ فَظَنُّ أَنْنِي
عَيَّيْتُ عَنِ الْجَوَابِ وَمَا عَيَّيْتُ
شَرَارُ النَّاسِ لَوْ كَانُوا جَمِيعًا
قَدَّيْتُ فِي جَوْفِ عَيْنِي مَا قَدَّيْتُ
فَلَسْتُ مُجَابِبًا أَبَدًا سَفِيهَا
خَزَيْتُ لِمَنْ يُجَاوِبُهُ خَزَيْتُ
إِذَا نَطَقَ السَّفِيهِ فَلَا تُجِبْهُ
فَخَيْرٌ مِنْ إِيَابَتِهِ السُّكُوتُ

وَأُنْشَدَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ سَلِيمَانَ الْأَبْرَشُ:

تَأَنَّ فِي أَمْرِكَ وَافْهَمْ عَنِّي
فَلَيْسَ شَيْءٌ يُعْدِلُ التَّأَنِّي
تَأَنَّ فِيهِ ثُمَّ قُلْ فَإِنِّي
أَرْجُو لَكَ الْإِرْشَادَ بِالتَّأَنِّي

أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ الْخَلَادِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرِ الزَّيْبَرِيِّ،
عَنْ سَعِيدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ، قَالَ: أُنْشَدَنِي يُونُسُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ
مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ لِمُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى بْنِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ:

فَلَا تَعْجَلْ عَلَى أَحَدٍ بِظُلْمٍ
فَإِنَّ الظُّلْمَ مَرَّتَعُهُ وَخِيمُ
وَلَا تَفْحَشْ وَإِنْ مُلِّيتَ غَيْظًا
عَلَى أَحَدٍ فَإِنَّ الْفُحْشَ لُومُ
وَلَا تَقْطَعْ أَخَالَكَ عِنْدَ ذَنْبٍ
فَإِنَّ الذَّنْبَ يَغْفِرُهُ الْكَرِيمُ
وَلَكِنْ دَاوِ عَوْجَاهُ بِرَفْقٍ
كَمَا قَدْ يُزْقَعُ الْخَلْقُ الْقَدِيمُ
وَلَا تَجْزَعْ لِرَيْبِ الدَّهْرِ وَاصْبِرْ
فَإِنَّ الصَّبْرَ فِي الْعُقْبَى سَلِيمُ
فَمَا جَزَعْ بِمُغْنٍ عَنْكَ شَيْئًا
وَلَا مَا فَاتَ تُرْجِعُهُ الْهُمُومُ

قال أبو حاتم رحمه الله: لو لم يكن في الغضب خصلة تدم إلا إجماع الحكماء قاطبة على أن الغضبان لا رأي له؛ لكان الواجب عليه الاحتيا ل لمفارقتة بكل سبب.

والغضبان لا يعذره أحد في طلاق ولا عتاق، ومن الفقهاء من عذّر السكران في الطلاق والعتاق، والخلق مجبولون على الغضب والحلم معاً، فمن غضب وحلم في نفس الغضب؛ فإن ذلك ليس بمذموم، ما لم يخرج غرضه إلى المكروه من القول والفعل، على أن مفارقتة في الأحوال كلها أحمد.

ولقد أنبأنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق، عن عطاء قال: قال عبد الملك بن مروان: إذا لم يغضب الرجل لم يحلم؛ لأن الحليم لا يعرف إلا عند الغضب.. وبالله التوفيق.

ذكر الزجر عن الطمع إلى الناس

أنبأنا محمد بن أحمد بن المستنير بـ «المصيبة»، حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم، حدثنا خالد بن عمرو، عن سفيان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، علّمني عملاً إذا أنا عملته أحبني الله، وأحبني الناس؛ فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس».

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل ترك الطمع إلى الناس كافة بكمال الإياس منهم؛ إذ الطمع فيما لا يشك في وجوده في الناس فقر حاضر، فكيف بما أنت شاك في وجوده أو عدمه؟
ولقد أحسن الذي يقول:

لَأَجْعَلَ نَسِيلَ الْيَأْسِ لِي سُبُلًا مَا عِشْتُ مِنْكَ وَدَارَ الْهَجْرِ أَوْطَانًا
وَالصَّبْرُ أَجْعَلُهُ غُرْمًا أَنَالُ بِهِ فِي النَّاسِ قُرْبَى وَعِنْدَ اللَّهِ رِضْوَانًا

فَالنَّفْسُ قَانِعَةٌ وَالْأَرْضُ وَاسِعَةٌ وَالْدَّارُ جَامِعَةٌ مُثْنَى وَوَحْدَانَا

وأنشدني عمرو بن مُحمَّد بن عبد الله النسائي قال: أنشدني الحسين بن أحمد ابن عثمان:

الْيَأْسُ أَذْنِي وَرَفَّعَ هِمَّتِي وَالْيَأْسُ خَيْرٌ مُؤَدِّبٌ لِلنَّاسِ
إِنِّي رَأَيْتُ مَوَاضِعَ الطَّمَعِ الَّذِي يَضَعُ الشَّرِيفَ مَوَاضِعَ الْأَخْسَاسِ

وأنشدني مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

فَأَجْمَعْتُ يَأْسًا لَا لُبَانَةَ بَعْدَهُ وَالْيَأْسُ أَذْنِي لِلْعَفَافِ مِنَ الطَّمَعِ
وَالنَّفْسُ تَطْمَعُ هَشَّةً إِنْ أُطِمِعَتْ وَتَنَالُ بِالْيَأْسِ السُّلُوَّ فَتَقْنَعُ

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا يزيد بن عبد الصمد، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن سعد بن عمار أنه قال لابنه: يا بني، أظهر اليأس فإنه غنى، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر.

قال أبو حاتم رحمته الله: أشرف الغنى ترك الطمع إلى الناس؛ إذ لا غنى لذي طمع، وتارك الطمع يجمع به غاية الشرف، فطوبى لمن كان شعار قلبه الورع ولم يُعمِّ بصره الطمع.

ومن أحب أن يكون حرًّا فلا يهوى ما ليس له؛ لأن الطمع فقر، كما أن اليأس غنى، ومن طمع ذل وخضع، كما أن من قنع عفا واستغنى. ولقد أنشدني الكريزي:

لَا خَيْرَ فِي عَزْمٍ بَغِيرِ رَوْيَةٍ وَالشُّكُّ عَجْزٌ إِنْ أَرَدْتَ سَرَاخًا
وَالْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً وَلَرُبَّ مَطْمَعَةٍ تَعُودُ ذُبَاخًا

وأنشدني علي بن مُحمَّد البسامي:

فَكُنْتُ لِي أَمَلًا دَهْرًا لِطَالِبِهِ فَعَبَّرَتْهُ صُرُوفُ الدَّهْرِ أَطْوَارًا

صَرَفْتُ بِالْيَأْسِ عَنْهُ النَّفْسَ فَانْصَرَفَتْ فَمَا أَبَالِي أَقَامَ الدَّهْرُ أَمْ سَارَا

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَهَاجِرِ الْمَعْدِلِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْوَانَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ هَانئِ الطَّائِي قَالَ: بَعَثَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدِّيْلِيُّ إِلَى جَارٍ لَهُ يَقْتَرِضُ مِنْهُ، فَلَمْ يَقْرِضْهُ وَاعْتَلَّ عَلَيْهِ، وَكَانَ حَسَنَ الظَّنِّ بِهِ، فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ:

لَا تُشْعِرَنَّ النَّفْسَ يَأْسًا فَإِنَّمَا يَعِيشُ بِجِدٍّ عَاجِزٌ وَجَلِيدٌ
وَلَا تَطْمَعَنَّ فِي مَالِ جَارٍ لِقُرْبِهِ فَكُلُّ قَرِيبٍ لَا يُنَالُ بِعَيْدٍ
وَفَوْضِ إِلَى اللَّهِ الْأُمُورَ فَإِنَّمَا تَرْوَحُ بِأَرْزَاقِ الْعِبَادِ جُدُودٌ

أُنْبَأَنَا الْقُطَانُ بـ«الرِّقَّة» ، حَدَّثَنَا الْمَرْوَزِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ السَّمَاكِ يَقُولُ: الرَّجَاءُ حَبْلٌ فِي قَلْبِكَ، وَقَيْدٌ فِي رَجْلِكَ، فَأَخْرَجَ الرَّجَاءُ مِنْ قَلْبِكَ يَنْفُكُ الْقَيْدُ مِنْ رَجْلِكَ.

قال أبو حاتم رحمه الله: الطمع غدة من قلب المرء له طرفان:

أحدهما: القيد في رجله.

والآخر: الطبع على لسانه، فما دامت العقدة قائمة لا تنفك رجلاه، ولا ينطق لسانه، فإذا أخرج الطمع من قلبه انفك القيد عن رجله، وزال الطبع عن لسانه فسعى إلى ما شاء، وقال ما أحب.

ودواء زوال الطمع عن القلب: هو رؤية الأشياء من مكوّنِها بدوام الخلوة، وترك الناس.

كما أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

كُنْ لِقَعْرِ الْبَيْتِ حُلَسَا وَارْضَ بِالْوَحْدَةِ أَنْسَا
لَسْتُ بِالْوَاكِدِ حُرًّا أَوْ تَرُدُّ الْيَوْمَ أَمْسَا
فَاغْرِسِ الْيَأْسَ بِأَرْضِ الْـ زُهِدٍ مَا عُمِّرَتْ غَرْسَا

وَلْيَكُنْ بِأُسُوكَ دُونَ الْ— طَمَعِ الْكَاذِبِ تُرْسًا

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل يَجْتَنِبُ الطَّمَعِ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ؛ فَإِنَّهُ مَذَلَّةٌ، وَيَلْزَمُ الْيَأْسَ عَنِ الْأَعْدَاءِ؛ فَإِنَّهُ مَنْجَاةٌ، وَتَرْكُهُ مَهْلَكَةٌ، وَالْإِيَّاسُ هُوَ بَذَرُ الرَّاحَةِ وَالْعِزِّ، كَمَا أَنَّ الطَّمَعِ هُوَ بَذَرُ التَّعَبِ وَالذَّلِّ، فَكَمْ مِنْ طَامِعٍ تَعَبَ وَذَلَّ وَلَمْ يَنْلِ بِغَيْتِهِ، وَكَمْ مِنْ آيسٍ اسْتَرَاحَ وَتَعَزَّزَ، وَقَدْ أَتَاهُ مَا أَمَّلَ وَمَا لَمْ يَأْمَلِ.

وَأُنْشِدُنِي الْأَبْرَشَ:

يَعْرِى وَيَغْرُثُ مَنْ أَمْسَى عَلَى طَمَعٍ مِنْ الْمَكَارِمِ وَهُوَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
إِنَّ الْمَطَامِعَ ذُلٌّ لِلرَّقَابِ وَلَوْ أَمْسَى أَخُوها مَكَانَ السَّيِّدِ الرَّاسِ

وَأُنْشِدُنِي مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ الْوَاسِطِي:

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي إِذَا النَّفْسُ أَشْرَفَتْ عَلَى طَمَعٍ لَمْ أَنْسَ أَنْ أَتَكَرَّمَا
وَلَسْتُ بِلَوَامٍ عَلَى الْأَمْرِ بَعْدَمَا يَفُوتُ وَلَكِنْ عَلَّ أَنْ أَتَقَدَّمَا

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ الْقَزَازِ، حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ يُونُسَ الْكُوفِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ جَبَلَةَ الْكِنَانِي، عَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَمَارٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ: الْيَأْسُ عِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ عِزٌّ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ حَاتِمِ الطَّائِي:

إِذَا مَا عَرَفْتَ الْيَأْسَ أَلْفَيْتَهُ الْغِنَى إِذَا عَرَفْتَهُ النَّفْسُ وَالطَّمَعُ الْفَقْرُ

ذَكَرَ الْحَثُّ عَلَى مُجَانِبَةِ الْمَسْأَلَةِ وَكَرَاهِيَتِهَا

حَدَّثَنَا أَبُو يَزِيدَ خَالِدُ بْنُ النُّضَرِ بْنِ عَمْرِو الْقُرَشِيُّ بِ«الْبَصْرَةِ»، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ الزَّيْبِرِ بْنِ الْعَوَّامِ رحمته الله: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله عليه قَالَ: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلًا، فَيَأْتِيَ بِحُرْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ فَيَبِيعَهَا؛ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ».

قال أبو حاتم رحمته الله: الْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ مُجَانِبَةُ الْمَسْأَلَةِ عَلَى الْأَحْوَالِ

كلها، ولزوم ترك التعرّض؛ لأن الإفكار في العزم على السؤال يورث المرء مهانة في نفسه، ويحطه رتوة عن مرتبته، وترك العزم على الإفكار في السؤال يورث المرء عزاً في نفسه، ويرفعه درجة عن مرتبته.

ولقد أنبأنا مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا الفيض بن الخضر التميمي، حدثنا عبد الله بن خُبَيْق قال: قال موسى بن طريف: إن الحاجة لتعرّض لي إلى الرجل، فيُخرج عزي من قلبي قطع الحاجة من ناحيته، فيرجع عزي إلى قلبي.

وأنشدني الكريزي قال: أنشدنا الحسين بن أحمد لعلّي بن الجهم:

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَلَتْهَا تَحْمَلُ وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تَجُورُ وَتَعْدِلُ
وَعَاقِبَةُ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلَةٌ وَأَفْضَلُ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ التَّفَضُّلُ
وَلَا عَارَ إِنْ زَالَتْ عَنِ الْحُرِّ نِعْمَةٌ وَلَكِنَّ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجَمُّلُ

أخبرنا زكرياء بن يَحْيَى الساجي، حدثنا عبد الواحد بن غياث، حدثنا خالد ابن عبد الله، حدثنا داود بن أَبِي هند، عن الشعبي، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «من سأل لِيُثْرِي ماله، فَإِنَّمَا هُوَ رَضْفٌ مِنَ النَّارِ يُلْقَمُهُ، فمن شاء استقلَّ، ومن شاء استكثر».

أنبأنا مُحَمَّد بن سليمان بن فارس الدلال، حدثنا الحسن بن مُحَمَّد بن الصباح، حدثنا أبو عباد يَحْيَى بن عباد، حدثنا شعبة، عن قتادة قال: سمعت مطرف بن عبد الله يحدث عن حكيم بن قيس بن عاصم، عن أبيه أنه أوصى بنيه عند موته، فقال: يَا بَنِيَّ، إِيَّاكُمْ وَمَسْأَلَةُ النَّاسِ؛ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ.

قال أبو حاتم رضي الله عنه: العاقل لا يسأل الناس شيئاً فيردوه، ولا يُلْحِفُ فِي الْمَسْأَلَةِ فِيحْرَمُوهُ، ويلزم التعفف والتكرم، ولا يطلب الأمر مُدْبِرًا، ولا يتركه مُقْبَلًا؛ لأن فَوْتَ الْحَاجَةِ خَيْرٌ مِنْ طَلْبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا، وإن من سأل غير المستحق حاجة حطَّ نفسه مرتبتين، ورفع المسئول فوق قدره.

أخبرني مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا أحمد بن مدرك المصري قال: سمعت حامد بن يحيى يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: من سأل نذلاً حاجة فقد رفعه عن قدره.

أنشدني ابن زنجي البغدادي:

ذُلُّ السُّؤَالِ شَجَى فِي الْخَلْقِ مُعْتَرِضٌ مِنْ دُونِهِ شَرُّ مَنْ خَلْفِهِ جَرَضٌ
مَا مَاءٌ كَفَكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَخِلَتْ مِنْ مَاءٍ وَجْهِي إِذَا أَفْنَيْتُهُ عَوْضُ

وأنشدني مُحَمَّد بن عبد الله المؤدب:

مَا اعْتَاضَ بِاذِلِّ وَجْهِهِ بِسُؤَالِهِ عَوْضًا وَإِنْ نَالَ الْغِنَى بِسُؤَالِ
وَإِذَا السُّؤَالُ مَعَ النَّوَالِ وَزَنْتُهُ رَجَحَ السُّؤَالُ وَخَفَّ كُلُّ نَوَالِ
وَإِذَا ابْتَلَيْتَ بِبَذْلِ وَجْهِكَ سَائِلًا فَاَبْذُلْهُ لِلْمُتَكَرِّمِ الْمِفْضَالِ

أنبأنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا أبو جعفر ابن ابنة أبي سعيد الثعلبي الدمشقي، حدثنا حاجب بن أبي علقمة العطاردي قال: سمعت أبي يقول: قال مطرف ابن عبد الله بن الشَّخِير لابن أخيه: يا ابن أخي، إذا كانت لك حاجة إِلَيَّ فاكتب بها إِلَيَّ في رقعة، فَإِنِّي أصون وجهك عن ذلِّ السُّؤَالِ وبذل الجِهَالِ.

وأنشدني في ذلك:

يَا أَيُّهَا الْمُتَعَبُ بِذُلِّ السُّؤَالِ وَطَالِبَ الْحَاجَاتِ مِنْ ذِي النَّوَالِ
لَا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَلَى وَإِنَّمَا الْمَوْتُ سُؤَالُ الرَّجَالِ
كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا أَعْظَمُ مِنْ ذَاكَ لِذُلِّ السُّؤَالِ

قال أبو حاتم رحمته الله: أعظم المصائب سوء الخلق، والمسألة من الناس والهمُّ بالسُّؤَالِ نصف الهرم، فكيف المباشرة بالسُّؤَالِ؟ ومن عزَّت عليه نفسه صغرت الدنيا في عينه، ولا يَنْبُلُ الرجلُ حَتَّى يَعِفَّ عما في أيدي الناس، ويتجاوز عما

يكون منهم، والسؤال من الإخوان مُلّال، ومن غيرهم ضدُّ النوال.

وأنشدني الأبرش:

انْبُلْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ حَرِيصَةً إِنَّ الْحَرِيصَ إِذَا يُلِحُّ يَهَانُ
مَنْ يَكْثُرُ التَّسْأَلُ مِنْ إِخْوَانِهِ يَسْتَنْقِلُوهُ وَحَظُّهُ الْحِرْمَانُ

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

أَتَيْتُ أَبَا عَمْرٍو أَرْجِي عَطَاءَهُ فَرَادَ أَبُو عَمْرٍو عَلَيَّ حُزْنِي حُزْنًا
فَكُنْتُ كَبَاغِي الْقَرْنِ أَسْلَمَ أُذُنُهُ فَبَاتَ بِلَا أُذُنٍ وَلَمْ يَسْتَفِدْ قَرْنًا

حدثنا مُحَمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندي، حدثنا عبد الله بن سليمان قال: كان أَكْثَم بن صَيْفِي يقول: السؤال وإن قلَّ أَثْمَنُ مِنَ النَّوَالِ وإن جَلَّ.

قال أبو حاتم رحمه الله: لا يَجِبُ للعاقل أن يبذل وجهه لمن يكرم عليه قدره، ويعظم عنده خطره، فكيف بمن يهون عليه رده، ولا يكرم عليه قدره؟ وأشدُّ اللقاء الموت، وأشدُّ منه الحاجة إلى الناس دون السؤال، وأشدُّ منه التكلف بالسؤال؛ لأن السؤال إذا كان بنجاح الحاجة مقرونًا لم يخلُ من أن يكون فيه ذل السؤال، وإذا الحاجة لم تُقَضَّ كان فيه ذلان موجودان: ذل السؤال، وذل الرد.

وأنشدني منصور بن مُحَمَّد الكريزي:

لَا يُحْسُ الصَّدِيقُ مِنْكَ بِفَقْرٍ لَا وَلَا وَالِدٌ وَلَا مَوْلُودٌ
ذَاكَ ذُلٌّ إِذَا سَأَلْتَ بِخِيَلَا أَوْ سَأَلْتَ الَّذِي عَلَيْكَ يَجُودُ

أُنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار بـ«بغداد»، حدثنا علي بن الجعد، أُنْبأنا شعبة، عن الأعمش قال: سمعت المَعْرُور بن سُويْد يحدث عن عبد الله قال: «إن في طلب الرجل الحاجة إلى أخيه فتنة، إذا أعطاه حمدَ غير الذي أعطاه، وإن منعه

ذم غير الذي منعه».

قال أبو حاتم رحمه الله: لو لم يكن في السؤال خصلة تُذمُّ إلا وجود التذلل في النفس عند الاهتمام بالسؤال وإبدائه؛ لكان الواجب على العاقل أن لو اضطره الأمر إلى أن يَسْتَفَّ الرمل ويمصَّ النوى ألا يتعرض للسؤال أبداً ما وجد إليه سبيلاً، فأما من دفعه الوقت إلى ذلك فسأل من يعلم أنه يقضي حاجته أو ذا سلطان لم يُحَرِّج في فعله ذلك، كما لم يُحرج في القبول إذا أعطي من غير مسألة، ومن استغنى بالله أغناه الله، ومن تعزز بالله لم يفقره، كما أن من اعتر بالعبيد أذله الله.

ولقد أنبأنا محمد بن سعيد القزاز، حدثنا أبو الهيثم الرازي خالد بن يزيد، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، عن معمر قال: قال أبو معاوية -رجل من ولد كعب بن مالك-: «لقد رأيتني أنضح أول النهار وأضرب آخر النهار على بطني بالمعول في المعدن، قال: قلت: لقد لقيت مثونة؟ قال: أجل، إنا طلبنا الدراهم من أيدي الرجال ومن الحجارة، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا».

ذكر الحث على لزوم القناعة

حدثنا حسن بن سفيان الشيباني، حدثنا مُحَمَّد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا مُحَمَّد بن عبد الرحمن الطفاوي، عن الأعمش، عن مُجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

قال أبو حاتم رحمه الله: قد مكثت برهة من الدهر مُتَوَهُماً أن الأعمش لم يسمع هذا الخبر من ليث بن أبي سليم، فدلسه، حتَّى رأيت علي بن المديني حدث بهذا الخبر عن الطفاوي عن الأعمش قال: حدثني مجاهد؛ فعلمت حينئذ أن الخبر صحيح لا شك فيه، ولا امتراء في صحته.

فقد أمر النبي ﷺ ابن عمر في هذا الخبر أن يكون في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل؛ فكأنه أمره بالقناعة باليسير من الدنيا؛ إذ الغريب وعابر السبيل لا يقصدان في الغيبة الإكثار من الثروة، بل القناعة إليهما أقرب من الإكثار من الدنيا.

ولقد أخبرني مُحَمَّد بن عثمان العقبِي، حدثني جعفر بن سنيْد بن داود،
 حدثني أبي، حدثني حجاج، حدثنا عتبة بن سنان قال: قال أكتُم بن صيفي لابنه:
 يَا بُنَيَّ، مَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى مَا فَاتَهُ وَزَعَّ بَدَنَهُ، وَمَنْ قَنَعَ بِمَا هُوَ فِيهِ قَرَّتْ عَيْنُهُ.
 وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

مِنْ تَمَامِ الْعَيْشِ مَا قَرَّتْ بِهِ عَيْنُ ذِي النِّعْمَةِ أَثَرِي أَوْ أَقْلُ
 وَقَلِيلٌ أَنْتَ مَسْرُورٌ بِهِ لَكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فِي دَغْلُ

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

أَقُولُ لِلنَّفْسِ صَبْرًا عِنْدَ نَائِبَةٍ فَعُسْرُ يَوْمِكَ مَوْصُولٌ بِيُسْرِ غَدِ
 مَا سَرَّنِي أَنَّ نَفْسِي غَيْرُ قَانِعَةٍ وَأَنَّ أَرْزَاقَ هَذَا الْخَلْقِ تَحْتَ يَدِي

أنبأنا أبو خليفة، حدثنا مُحَمَّد بن كثير، أنبأنا سفيان الثوري، عن عيسى بن عبد
 الرحمن، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود قال: «أربع قد فرغ
 منها: الخلق، والخلق، والرزق، والأجل، وليس أحد بأكسب من أحد».

قال أبو حاتم رحمه الله: من أكثر مواهب الله لعباده وأعظمها خطرًا: القناعة،
 وليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء، والثقة بالقاسم؛ ولو لم يكن في
 القناعة خصلة تُحمد إلا الراحة وعدم الدخول في مواضع السوء لطلب الفضل؛
 لكان الواجب على العاقل ألا يفارق القناعة على حالة من الأحوال.

ولقد أنبأنا عمر بن حفص بن عمرو البزاز، حدثنا أبو مسعود مُحَمَّد بن
 عبد الله بن عبيد بن عجيل، حدثنا عبد الله بن إبراهيم المدني، حدثنا أبو بكر بن
 مُحَمَّد بن المنكدر، عن أبيه قال: «القناعة مال لا ينفد».

سمعت مُحَمَّد بن المنذر يقول: سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول: قال
 مُحَمَّد بن حميد الأَكَّاف:

تَقَنِّعْ بِالْكَفَافِ تَعِشْ رَخِيًّا وَلَا تَتَّبِعِ الْفُضُولَ مِنَ الْكَفَافِ

فَفِي خُبْزِ الْقَفَّارِ بَغِيرِ أَدَمِ
وَفِي الثَّوْبِ الْمُرَقَّعِ مَا تَغْطِي
وَكُلُّ تَزَيْنٍ بِالْمَرْءِ زَيْنٌ

وَأُنْشِدُنِي الْكَرِيزِي:

لَعَمْرُكَ مَا طَوَّلَ التَّعَطُّلُ ضَائِرِي
إِذَا كَانَتْ الْأَرْزَاقُ فِي الْقُرْبِ وَالنَّوَى
وَأِنْ ضِغْتَ فَاصْبِرْ يُفَرِّجِ اللَّهُ مَا تَرَى

وَأُنْشِدُنِي مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ الْوَاسِطِي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا دَائِمًا أَبَدًا
لَا زَيْنَ إِلَّا لِرَاضٍ فِي تَقْلِيلِهِ

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل يعلم أن الأقسام لم توضع على قدر الأخطاء، وأن من عدم القناعة لم يزدده المال غنى، فتمكن المرء بالمال القليل مع قلة الهم أهناً من الكثير ذي التبعة، والعاقل يتنعم من الحرص بالقتوع، كما ينتصر من العدو بالقصاص؛ لأن السبب المانع رزق العاقل هو السبب الجالب رزق الجاهل.

وَأُنْشِدُنِي مُحَمَّدَ بْنَ سَعِيدِ الْقَزَازِ، أَنْشَدَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خَلْفِ التِّيمِي قَالَ:

أُنْشِدُنِي رَجُلًا مِنْ خِرَاعَةِ:

رَأَيْتُ الْغِنَى وَالْفَقْرَ حَظَّيْنِ قُسَّمَا
فَهَذَا مُلِحٌ دَائِبٌ غَيْرُ رَابِحٍ

وَأُنْشِدُنِي عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْأَبْرَشِ:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَقْنَعْ بِعَيْشٍ فَإِنَّهُ

وَفِي مَاءِ الْفُرَاتِ غِنًى وَكَافٍ
بِهِ مِنْ كُلِّ عُرِيٍّ وَانْكِشَافٍ
وَأَزَيْنُهُ التَّزَيْنُ بِالْعَفَافِ

وَلَا كُلُّ شُغْلٍ فِيهِ لِلْمَرْءِ مَنَفَعَةٌ
عَلَيْكَ سَوَاءٌ فَاعْتَنِمِ رَاحَةَ الدَّعَةِ
أَلَا رَبُّ ضَيْقٍ فِي عَوَاقِبِهِ سَعَةٌ

لَقَدْ تَزَيْنَ أَهْلُ الْحِرْصِ بِالشَّيْنِ
إِنَّ الْقُنُوعَ لَثَوْبُ الْعِزِّ وَالزَّيْنِ

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل يعلم أن الأقسام لم توضع على قدر الأخطاء، وأن من عدم القناعة لم يزدده المال غنى، فتمكن المرء بالمال القليل مع قلة الهم أهناً من الكثير ذي التبعة، والعاقل يتنعم من الحرص بالقتوع، كما ينتصر من العدو بالقصاص؛ لأن السبب المانع رزق العاقل هو السبب الجالب رزق الجاهل.

وَأُنْشِدُنِي مُحَمَّدَ بْنَ سَعِيدِ الْقَزَازِ، أَنْشَدَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خَلْفِ التِّيمِي قَالَ:

فَأُخْرِمَ مُحْتَالٌ وَذُو الْعِيِّ كَاسِبٌ
وَهَذَا مُرِيحٌ رَابِحٌ غَيْرُ دَائِبٍ

وَأُنْشِدُنِي عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْأَبْرَشِ:

وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ مِنَ الْفَقْرِ مُوقِرٌ

إِذَا كَانَ فَضْلُ النَّاسِ يُغْنِيكَ بَيْنَهُمْ فَأَنْتَ بِفَضْلِ اللَّهِ أَغْنَى وَأَيْسَرُ

أخبرنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسي، حدثنا مُحَمَّد بن الوليد بن أبان، حدثنا نعيم بن حماد قال: سمعت ابن المبارك يقول: «مروءة القناعة أفضل من مروءة الإعطاء».

قال أبو حاتم رحمته الله: القناعة تكون بالقلب، فمن غني قلبه غنيت يداه، ومن افتقر قلبه لم ينفعه غناه، ومن قنع لم يتسخط، وعاش آمناً مطمئناً، ومن لم يقنع لم يكن له في الفوائد نهاية لرغبته، والجد والحرمان كأنهما يصطرعان بين العباد. ولقد أحسن الذي يقول:

فَمَا كُلُّ مَا حَاَزَ الْفَتَى مِنْ تِلَادِهِ بِكَيسٍ وَلَا مَا فَاتَهُ بِتَوَانٍ
فَأَجْمِلْ إِذَا طَالَبْتَ أَمْرًا فَإِنَّهُ سَيَكْفِيكَه جَدَّانِ يَصْطَرِعَانِ

حدثنا عمرو بن مُحَمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا عبيد الله بن محمد العيشي، عن المدائني قال: كان يقال: مروءة الصبر عند الحاجة والفاقة بالتعفف والغنى أكثر من مروءة الإعطاء.

وأنشدني عمرو بن مُحَمَّد، أنشدنا الغلابي، أنشدني ابن عائشة:

غَنَى النَّفْسُ يُغْنِي النَّفْسَ حَتَّى يُعْفَهَا وَإِنْ مَسَّهَا حَتَّى يَضُرَّ بِهَا الْفَقْرُ
وَمَا شِدَّةُ فَاضِرٍ لَهَا إِنْ لَقِيَتْهَا بِدَائِمَةٍ إِلَّا سَيَتَّبِعُهَا يُسْرُ

وأنشدني مُحَمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

فَيَا رَبَّ كُرْهِ جَاءَ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَخَفْ وَمَسْرُورٍ أَمْرٍ بِالَّذِي أَنْتَ خَائِفُ
تَرَى النَّاسَ مَا لَمْ تُبَلِّ إِخْوَانَ ظَاهِرٍ وَإِنْ تُبَلِّ تُنَكِّرُ جُلًّا مَا أَنْتَ عَارِفُ

أنبأنا مُحَمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا إبراهيم بن مهدي الأبلي، حدثني مُحَمَّد ابن يحيى بن أبي عمر قال: سمعت سفيان بن عيينة - وذكر عنده الفضل

ابن الربيع وضرباؤه - فأنشأ سفيان يقول:

كَمْ مِنْ قَسِيٍّ قَسِيٍّ فِي تَقْلَبِهِ مُهَذَّبِ الرَّأْيِ عَنْهُ الرِّزْقُ مُنْحَرِفُ
وَمِنْ ضَعِيفِ ضَعِيفِ الْعَقْلِ مُخْتَلِطِ كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَغْتَرِفُ

قال أبو حاتم رحمته الله: مَنْ نَازَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى الْقُنُوعِ، ثُمَّ حَسَدَ النَّاسَ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ، فَلَيْسَ ذَلِكَ لِقَنَاعَةٍ وَلَا لِسَخَاوَةٍ، بَلْ لِعِجْزٍ وَفَشَلٍ؛ فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ حِمَارِ السَّوَاءِ الَّذِي يَفْرَجُ بِخَفَّةِ حِمْلِهِ، وَيَحْزَنُ إِذَا رَأَى الْعَلْفَ يُؤَثِّرُ بِهِ ذُو الْقُوَّةِ وَالْحِمْلُ الثَّقِيلُ، فَالْقَانِعُ الْكَرِيمُ أَرَاهُ قَلْبُهُ وَبَدَنُهُ، وَالشَّرُّهُ اللَّثِيمُ أَتَعَبَ قَلْبُهُ وَجِسْمُهُ، وَالْكَرَامُ أَصْبَرَ نَفُوسًا، وَاللَّثَامُ أَصْبَرَ أَجْسَادًا.

وأنشدني عمرو بن مُحمَّد قال: أنشدني الغلابي:

لَعَمْرُكَ مَا الْأَرْزَاقُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى وَلَا سَبَبٌ فِي سَاحَةِ الْحَيِّ ثَاقِبُ
وَلَكِنَّهَا الْأَرْزَاقُ تُقَسِّمُ بَيْنَهُمْ فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرُ مَا أَنْتَ شَارِبُ

وأنشدني مُحمَّد بن سعيد قال: أنشدني هلال بن العلاء الباهلي:

تَجَمَّلْ إِذَا مَا الدَّهْرُ أَوْلَاكَ غِلْظَةً فَإِنَّ الْغِنَى فِي النَّفْسِ لَا فِي التَّمَوَّلِ
يَزِينُ لِعَيْمِ الْقَوْمِ كَثْرَةُ مَالِهِ وَمَا زَيْنَ الْأَقْوَامِ مِثْلُ التَّجَمُّلِ

حدثنا الحسين بن سفيان، حدثنا عبد العزيز بن منيب، حدثنا مُحمَّد بن

يَحْيَى الصَّائِغُ قال: قال الخليل بن أحمد:

إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ لَحْمٌ كَفَاكَ خَلٌّ وَزَيْتُ
إِنْ لَا يَكُنْ ذَا وَهَذَا فَكِرْسَةٌ وَبَيْتُ
تُظَلُّ فِيهِ وَتَأْوِي حَتَّى يَحْيِيَنَّكَ مَوْتُ
هَذَا لَعْمَرِي كَفَافٌ فَلَا يَغْنُرَكَ «لَيْتُ»

أنبأنا كامل بن مكرم، حدثنا مُحَمَّد بن مروان البيروتي، حدثنا أبو مسهر،
حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن مُحَمَّد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ
حَيَوَةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. قال: القناعة.. وبالله التوفيق.

ذكر الحث على لزوم التوكل على من ضمن الأرزاق

أنبأنا زكريا بن يَحْيَى بن عبد الرحمن الساجي بـ«البصرة»، أنبأنا أبو الربيع
الزهراني، حدثنا المقرئ، حدثنا حيوة بن شريح وابن لهيعة قالوا: حدثنا أبو هانئ
حميد بن هانئ الخولاني قال: سمعت أبا عبد الرحمن الحُبلي يقول: سمعت
عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «قَدَّرَ اللهُ
الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم التوكل على من تكفل
بالأرزاق؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان، وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلى
نفي الفقر ووجود الراحة، وما تَوَكَّلَ أحد على الله - جل وعلا - من صحة قلبه
حَتَّى كَانَ اللهُ - جل وعلا - بِمَا تَضَمَّنُ مِنَ الكفالة أَوْثَقَ عنده بما حوته يده إلا لَمْ
يكله الله إلى عبادته، وآتاه رزقه من حيث لَمْ يحتسب.

وأنشدني منصور بن مُحَمَّد الكريزي:

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ	أَرَدْتَ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْضِي وَيُقَدِّرُ
مَتَى مَا يُرْذُؤُ الْعَرْشِ أَمْرًا يَعْْبُدُهُ	يُصْبِهِ وَمَا لِلْعَبْدِ مَا يَتَخَيَّرُ
وَقَدْ يَهْلِكُ الْإِنْسَانُ مِنْ وَجْهِ أَمْنِهِ	وَيَنْجُو - بِإِذْنِ اللَّهِ - مِنْ حَيْثُ يَحْذَرُ

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

أَحْسِنِ الظَّنَّ بِمَنْ قَدْ عَوَّدَكَ	كُلَّ إِحْسَانٍ وَسَوَّى أَوْدَكَ
إِنَّ مَنْ قَدْ كَانَ يَكْفِيكَ الَّذِي	كَانَ بِالْأَمْسِ سَيَكْفِيكَ غَدَكَ

أُنبأنا مُحَمَّد بن الحسن بن قتيبة بـ«عسقلان»، حدثنا أبو مروان الأزرق،
 حدثنا الوليد، عن ابن جابر، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن
 أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: «إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله».
 وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش لعلي بن أبي طالب عليه السلام:

لَوْ كَانَ فِي صَخْرَةٍ فِي الْبَحْرِ رَاسِيَّةٌ صَمَاءٌ مَلْمُومَةٌ مُلْسٍ حَوَالِيهَا
 رِزْقٌ لِعَبْدٍ بَرَاهُ اللَّهُ لَانْفَلَقَتْ حَتَّى تُؤَدِّيَ إِلَيْهِ كُلَّ مَا فِيهَا
 أَوْ كَانَ بَيْنَ طَبَاقِ السَّبْعِ مَطْلَبُهُ يَوْمًا لَسَهَّلَ فِي الْمَرْقَى مَرَايَهَا
 حَتَّى يَنَالَ الَّذِي فِي اللَّوْحِ خُطَّ لَهُ إِنَّ هِيَ أَتَتْهُ وَإِلَّا فَهُوَ آتِيهَا

وأنشدني منصور بن مُحَمَّد الكريزي، أنشدني مُحَمَّد بن الحسين العمي:
 سَلْ كُلَّ حَاجَاتِكَ مِنْ سَيِّدٍ لَيْسَ لَهُ سِتْرٌ وَلَا حَاجِبُ
 يُعْطِي عَطَايَاهُ إِذَا شَاءَهَا مِنْ غَيْرِ تَوْقِيعٍ إِلَى كَاتِبِ

حدثنا مُحَمَّد بن الحسين بن الخليل بـ«نَسَا»، حدثنا القطوانى، حدثنا
 سيار، حدثنا رباح القيسي قال: «إن الله ملائكة موكلين بأرزاق بني آدم، يحملون
 أرزاقهم على درجاتهم، ثُمَّ قال: أَيُّمَا عبد من عبادي جعل همُّه همًّا واحدًا؛
 فضمَّنوا السموات والأرضين وبني آدم رزقه، وأيُّ عبد طلب رزقه فأعطوه رزقه
 حيث أراد فإن تحرئ مكاسبه بالعدل فطيَّبوا له رزقه، وإن تعدى إلى الحرام
 فليأخذ من هواه إلى غاية درجته التي ليس فوقها، ثُمَّ حُولُوا بينه وبين سائر الدنيا؛
 فلا يأخذ من حلالها ولا من حرامها فوق الدرجة التي كُتِبَتْ له».

قال أبو حاتم عليه السلام: العاقل يعلم أن الأرزاق قد فُرِغَ منها، وتضمنها العليُّ
 الوفي على أن يوفرها على عباده في وقت حاجتهم إليها، والاشتغال بالسعي لِمَا
 تضمن وتكفل ليس من أخلاق أهل الحزم إلا مع انطواء صحة الضمير، على أنه

وإن لم يسع في قصده أتاها رزقه من حيث لم يحتسب.

وأنشدني مُحَمَّد بن إِسحاق بن حبيب الواسطي:

لَمَّا رَأَيْتُكَ قَاعِدًا مُسْتَقْبِلِي أَيْقَنْتُ أَنَّكَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ
فَارْغَضْ لَهَا وَتَعَرَّ عَنْ أَثْوَابِهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْقَضَاءِ يَقِينُ
هَوْنٌ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا فَأَخُو التَّوَكُّلِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ
طَرَحَ الْأَذَى عَنْ نَفْسِهِ فِي أَمْرِهِ مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَضْمُونُ

حدثنا أبو خليفة، حدثنا مُحَمَّد بن كثير، أنبأنا سفيان الثوري، عن أبي قيس، عن هذيل بن شرحبيل قال: «جاء سائلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ، وفي البيتِ تمرٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: هاك، لو لم تأتِها أَتَتْكَ».

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

فَنَحْنُ بِتَوْفِيقِ الْإِلَهِ وَأَمْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَمْرُنَا مُتَوَاسِعُ
عَطَاءٌ مَلِيكَ لَا يُمْنُ عَطَاؤُهُ خَيْرٌ بِمَا تُحْنِي عَلَيْهِ الْأَضَالُعُ

أنبأنا مُحَمَّد بن إبراهيم الشافعي، حدثنا داود بن أحمد الدمياطي، حدثنا عبد الرحمن بن عفان قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «ما اهتممت لرزق قط».

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل أن يعلم أن السبب الذي يُدرك به العاجز حاجته هو الذي يحول بين الحازم وبين مصادفته، فلا يجب أن يحزن العاقل لِمَا يهوى وليس بكائن، ولا لِمَا لا يهوى وهو لا محالة كائن؛ فما كان من هذه الدنيا للمرء أتاها من غير تعب فيه، وما كان عليه لم يدفعه بقوته، ولا يدرك بالطلب المحروم، كما لا يُحرم بالقعود المرزوق.

ولقد أحسن الذي يقول:

يَنَالُ الْغِنَى مَنْ لَيْسَ يَسْعَى إِلَى الْغِنَى وَيُحْرَمُ مَنْ يَسْعَى لَهُ وَيُدَاوِمُ
وَمَا الْعَجْزُ يَحْرِمُهُ وَلَا الْحِرْصُ جَالِبٌ وَمَا هُوَ إِلَّا حُظْوَةٌ وَمَقَاسِمٌ

وأنشدني عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، أنشدنا الغلابي قال: أنشدنا العتبي:
وَرَزَقُ الْخَلْقِ مَقْسُومٌ عَلَيْهِمْ مَقَادِيرٌ يُقَدِّرُهَا الْجَلِيلُ
فَلَا ذُو الْمَالِ يُزْرَقُهُ بِعَقْلِ وَلَا بِالْمَالِ تُقْتَسَمُ الْعُقُولُ

أنبأنا الهيثم بن خلف الدُّوري بـ«بغداد» قال: سمعت إسحاق بن موسى
الأنصاري يقول: سمعت يَمَان النجراني -وكان لا يدخر شيئاً- يقول: مررت
براهب في قارعة فلاة من الأرض وأنا جائع، فقلت: يا راهب، هل عندك من
فضل؟ فأدلى إِلَيَّ زُنْبِيلاً فيه فِلَقٌ من خبز فأكلت منها، ورميت إليه الباقي، فقال:
تزوده. قلت: الذي أطعمني في هذا الموضع -وليس فيه إنسي- يطعمني إذا
جعت ولا يكون معي شيء.

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

لَا تَتَّهِمْ رَبَّكَ فِيمَا قَضَى وَهَوْنُ الْأَمْرِ وَطِبُّ نَفْسَا
لِكُلِّ هَمٍّ فَارِجٌ عَاجِلٌ يَأْتِي عَلَى الْمُصْبِحِ وَالْمُمْسَى

قال أبو حاتم رحمه الله: التَّوَكَّلُ: هو قطع القلب عن العلائق برفض الخلائق،
وإضافته بالافتقار إلى مُحَوِّلِ الأحوال، وقد يكون المرء موسراً في ذات الدنيا
وهو متوكل صادق في توكله؛ إذا كان العدم والوجود عنده سَيِّئَيْنِ لا فرق عنده
بينهما، يشكر عند الوجود، ويرضى عند العدم، وقد يكون المرء لا يملك شيئاً
من الدنيا بحيلة من الحيل وهو غير متوكل؛ إذا كان الوجود أحبَّ إليه من العدم،
فلا هو في العدم يرضى حالته، ولا عند الوجود يشكر مرتبته.

وأنشدني الكريزي:

فَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تُنَالُ بِفِطْنَةٍ وَفَضْلِ عُقُولٍ نِلْتُ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ
وَلَكِنَّهَا الْأَرْزَاقُ حَظٌّ وَقِسْمَةٌ بِمَلِكٍ مَلِيكَ لَا بِحِيلَةٍ طَالِبِ

وأشدنا عمرو بن محمد الأنصاري، أشدنا الغلابي، أشدنا مهدي بن سابق:

أَلَا تَرَى الدَّهْرَ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ وَالْدَّهْرُ يَخْلِطُ مَيَسُورًا بِمَعْسُورِ
وَلَيْسَ لِلَّهِوَ إِلَّا كُلُّ صَافِيَةٍ كَأَنَّهَا دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِ مَهْجُورِ

أنبأنا علي بن سعيد العسكري، حدثنا إبراهيم بن الجعيد، حدثنا سهل بن عاصم، حدثنا نافع بن خالد قال: دخلنا على رابعة العدوية فذكرنا أسباب الرزق، فخصنا فيه وهي ساكتة، فلما فرغنا قالت رابعة: خيبة لمن يدعي حُبَّه، ثُمَّ يَتَّهِمُهُ فِي رِزْقِهِ!

قال أبو حاتم رحمته الله: قد ذكرت هذا الباب بالعلل والحكايات على التقصي في كتاب «التوكل»، فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

ذكر الحث على لزوم الرضا بالشدائد والصبر عليها

أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى بـ«الموصل»، حدثنا أحمد بن جميل المروزي، حدثنا ابن المبارك، أنبأنا رباح بن زيد، عن عمر بن حبيب، عن القاسم ابن أبي بزة، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ أَمَرَهُ فكَتَبَ مَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل أن يوقن أن الأشياء كلها قد فُرِغَ منها، فمنها ما هو كائن لا محالة، وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه، فإن دفعه الوقت إلى حال شدة يجب أن يتَّزِرَ بإزارٍ له طرفان:

أحدهما: الصبر. والآخر: الرضا.

ليستوفي كمال الذخر بفعله ذلك، فكم من شدة قد صعبت وتعذر زوالها على العالم بأسره، ثُمَّ فُرِجَ عنها السهل في أقل من لحظة.

ولقد أنشدني مُحَمَّد بن إِسحاق بن حبيب الواسطي:

كَمْ مِنْ أَمْرٍ قَدْ تَضَايَقَتْ بِهِ فَأَتَانِي اللَّهُ مِنْهُ بِالْفَرَجِ
وَبَعِيدٍ مُوَأْسٍ قَرَّبَهُ قَدَّرَ اللَّهُ فَعَادَ بِالنَّهْجِ
وَكَذَلِكَ اللَّهُ رَبُّ قَادِرٌ يُصْلِحُ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ عَوَجٌ
فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى ذِي سَرْمَدًا مَا أَضَاءَ الصُّبْحُ يَوْمًا أَوْ بَلَجٌ
وَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى آلائِهِ يَسْتَدِيمُ الْيُسْرَ مِنْهُ وَالْفَلَجُ

حدثنا أبو خليفة، حدثنا مُحَمَّد بن كثير، أنبأنا سفيان، عن أَبِي إِسحاق،
عن أَبِي الحجاج الأزدي قال: سألنا سلمان: ما الإيمان بالقدر؟ قال: إذا علم
العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.
وأنشدني الأبرش:

هَوْنٌ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ سَعِيهَا فَلَيْسَ مَا قُدِّرَ مَرْدُودُ
وَارِضٌ بِحُكْمِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ كُلُّ قَضَاءِ اللَّهِ مُحْمُودُ

أنبأنا عبد الله بن قحطبة الصلحي، حدثنا منصور بن قدامة الواسطي،
حدثنا مُحَمَّد بن كثير، عن معمر قال: لَمَّا حاصر الْحَجَّاجُ ابنَ الزبير بِمكة جعلت
الحجارة تضرب الحائط، فقليل له: إنا لا نأمن عليك أن يصيبك منها حجر، فقال
ابن الزبير:

هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ بِكَفِّ الْإِلَهِ مَقَادِيرُهَا
فَلَيْسَ بِآتِيكَ مِنْهُمْ يَهْأَ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْكَ مَأْمُورُهَا

أنبأنا عمرو بن مُحَمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا إبراهيم بن بشار
الرمادي، حدثنا سفيان، عن مسعر: أن رجلاً ركب البحر، فكسر به، فوقع في
جزيرة من جزائر البحر، فمكث فيها ثلاثاً لا يرى أحداً، ولا يأكل طعاماً، ولا يشرب

شرابًا، فأيس من الحياة، فتمثل:

إِذَا شَابَ الْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الْحَلِيبِ

فأجابه مُجِيبٌ يقول:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبٌ

فنظر، فإذا سفينة في البحر، فلوح لهم، فأتوه فحملوه، وأصاب معهم خيرًا، ورجع إلى أهله سالمًا.

وأنشدني مُحَمَّد بن جعفر الهمداني بـ«صور» على ساحل بحر الروم:

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأُمُورِ فَقَدْ تَكُ شَفُ غَمَاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالِ

رَبِّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ الْعَقَالِ

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلُّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ

عَسَى مَا تَرَى إِلَّا يَدُومُ وَأَنْ تَرَى لَهُ فَرَجًا مِمَّا أَلَحَّ بِهِ الْعُسْرُ

إِذَا اشْتَدَّ عُسْرٌ فَارْجُ يُسْرًا فَإِنَّهُ قَضَى اللَّهُ أَنَّ الْعُسْرَ يَتَّبِعُهُ الْيُسْرُ

أنبأنا مُحَمَّد بن صالح الطبري بـ«الصيمرة»، حدثنا مُحَمَّد بن عثمان

العجلي قال: لَمَّا حَدَّثَ شَرِيكَ بِحَدِيثِ الْأَعْمَشِ، عَنْ سَلْمَانَ، عَنْ ثَوْبَانَ: أَنَّ

النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْتَقِيمُوا لِقَرِيْشٍ مَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ، فَإِذَا خَالَفُوكُمْ فَضَعُوا سِيُوفَكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ، فَأَبِيدُوا خَضِرَاءَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا، فَكُونُوا زَرَاعِينَ أَشْقِيَاءَ».

فَسُعِيَ بِهِ إِلَى الْمَهْدِيِّ، فَبَعَثَ إِلَى شَرِيكَ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: حَدَّثَ بِهَا؟ قَالَ:

قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: عَمَّنْ رَوَيْتَهَا؟ قَالَ: عَنِ الْأَعْمَشِ. قَالَ: وَيْلِي عَلَيْهِ! لَوْ عَرَفْتُ مَكَانَ

قَبْرِهِ لَأَخْرَجْتَهُ فَأَحْرَقْتَهُ بِالنَّارِ. قُلْتُ: إِنْ كَانَ لِمَأْمُونًا عَلَى مَا رَوَى. قَالَ: يَا زَنْدِيقَ

لَأَقْتُلَنَّكَ. فَقُلْتُ: الزَنْدِيقُ مَنْ يَشْرَبُ الْخَمْرَ وَيَسْفِكُ الدَّمَ. قَالَ: وَاللَّهِ لَأَقْتُلَنَّكَ.

قلت: أو يكفي الله! قال: فخرجنا من عنده، فاستقبلني الفضل بن الربيع، فقال: ليس لك موضع تهرب إليه؟ قلت: بلى، قال: فإنه قد أمر بقتلك، قال: فخرجت إلى جبل، فخرجت يومًا أتجسس الخبر، فأقبل ملاح من بغداد، فاستقبله ملاح آخر من البصرة، فسأله: ما الخبر؟ قال: مات أمير المؤمنين، قلت: يا ملاح قُرب، فقرب.

وأنشدني منصور بن مُحمَّد الكريزي:

تَجْرِي الْمَقَادِيرُ إِنْ عُسْرًا وَإِنْ يُسْرًا وَلِلْمَقَادِيرِ أَشْبَابٌ وَأَبْوَابٌ
مَا اشْتَدَّ عُسْرٌ وَلَا انْسَدَّتْ مَذَاهِبُهُ إِلَّا تَفَتَّحَ مِنْ مِيسُورِهِ بَابٌ

وأنشدني مُحمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

أَلَا رَبَّ عُسْرٍ قَدْ أَتَى الْيُسْرُ بَعْدَهُ وَغَمْرَةٌ كَرْبٍ فُرِّجَتْ لِكَظِيمٍ
هُوَ الدَّهْرُ يَوْمٌ يَوْمٌ بُؤْسٍ وَشِدَّةٍ وَيَوْمٌ سُرُورٍ لِلْفَتَى وَنَعِيمٍ

أنبأنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم، حدثنا مُحمَّد بن عبد الوهاب النيسابوري حدثنا بشر بن الحكم، عن علي بن عثمان قال: روي إبراهيم بن أدهم متفط الرجلين، رافعهما على ميل، وهو يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ [مُحمَّد: ٣١].

أنبأنا القطان بـ«الرقعة»، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا عبد العزيز بن عمير، عن عطاء الأزرق، عن عبد الواحد بن زيد قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، من أين أتى هذا الخلق؟ قال: من قلة الرضا عن الله، قلت: ومن أين أوتوا من قلة الرضا عن الله؟ قال: من قلة المعرفة بالله.

قال أبو حاتم رحمته الله: يجب على العاقل إذا كان مبتدئًا أن يلزم عند ورود الشدة عليه سلوك الصبر، فإذا تمكن منه حينئذ يرتقي من درجة الصبر إلى درجة الرضا، فإن لم يُرزق صبرًا فليلزم التصبر؛ لأنه أول مراتب الرضا، ولو كان الصبر من الرجال لكان رجالًا كريمًا؛ إذ هو بذر الخير، وأساس الطاعات.

ولقد أخبرني مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا طاهر بن الفضل بن سعيد،
حدثنا سفيان بن عيينة قال: سمعت رجلاً من أهل الكتاب أسلم، قال: أوحى الله
إلى داود: يا داود، اصبر على المئونة، تأتلك مني المعونة.

وأنشدني عبد الله بن الأحوص بن عمار القاضي:

صَبْرًا جَمِيلًا عَلَى مَا نَابَ مِنْ حَدَثٍ وَالصَّبْرُ يَنْفَعُ أَقْوَامًا إِذَا صَبَرُوا
الصَّبْرُ أَفْضَلُ شَيْءٍ تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الزَّمَانِ إِذَا مَا مَسَّكَ الضَّرُّ

وأنشدني إبراهيم بن مُحَمَّد بن سهل قال: أنشدني أبو يعلى الموصلي:

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِي الْأَيَّامِ تَجَرِبَةً لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مُحْمُودَةً الْأَثَرِ
وَقُلَّ مَنْ جَدَّ فِي شَيْءٍ يُحَاوِلُهُ فَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

أَتَاكَ الرَّوْحُ وَالْفَرْجُ الْقَرِيبُ وَسَاعَدَكَ الْقَضَاءُ فَلَا تَخِيبُ
صَبَرْتَ فَنِلْتَ عُقْبَى كُلِّ خَيْرٍ كَذَاكَ لِكُلِّ مُصْطَرٍّ عَقِيبُ

أنبأنا عمرو بن مُحَمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا مُحَمَّد بن علي
قال: سمعت مضر أبا سعيد يقول: قال عبد الواحد بن زيد: ما أحببت أن شيئاً
من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أشرف ولا أرفع من الرضا،
وهو رأس المحبة.

قال أبو حاتم رحمه الله: الصبر جماع الأمر، ونظام الحزم، ودِعامَة العقل، وبذر
الخير، وحيلة من لا حيلة له.

وأول درجته الاهتمام، ثُمَّ التيقظ، ثُمَّ الثبوت، ثُمَّ التصبر، ثُمَّ الصبر، ثُمَّ
الرضا، وهو النهاية في الحالات.

ولقد أنبأنا مُحَمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا شعيب بن عبد الله البزار،

حدثنا علي بن معبد، عن أبي المليلح، عن ميمون بن مهران قال: «ما نال عبد شيئاً من
جسيم الخير من نبي أو غيره إلا بالصبر».

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

فَمَا شِدَّةُ يَوْمًا وَإِنْ جَلَّ خَطْبُهَا بِنَازِلَةٍ إِلَّا سَيَتَّبِعُهَا يُسْرُ
وَإِنْ عَسُرَتْ يَوْمًا عَلَى الْمَرْءِ حَاجَةٌ وَضَاقَتْ عَلَيْهِ كَانَ مَفْتَاحَهَا الصَّبْرُ

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ وَلَيْسَ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ مَعُولُ
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ بِنُعْمَى وَبُؤْسَى وَالْحَوَادِثُ تَفْعَلُ
فَمَا لَيْنَتْ مِنَّا قَنَاءَ صَلِيبَةٍ وَلَا ذَلَّلَتْنَا لِلَّذِي لَيْسَ يَجْمَلُ
وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نُفُوسًا كَرِيمَةً تُحْمَلُ مَا لَا تَسْتَطِيعُ فَتَحْمَلُ

وأنشدنا عمرو بن مُحَمَّد الأنصاري قال: أنشدنا الغلابي:

إِنِّي رَأَيْتُ الْخَيْرَ فِي الصَّبْرِ مُسْرِعًا وَحَسْبُكَ مِنْ صَبْرٍ تَحُوزُ بِهِ أَجْرًا
عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ تُصِيبُ بِهِ ذُخْرًا

أخبرنا عمر بن محمد الهمداني: ثنا زيد بن أخزم: ثنا سليمان بن حرب:
ثنا حماد بن زيد قال: قال أيوب: «إذا لم يكن ما تريد، فأرد ما يكون».

قال أبو حاتم رحمته الله: الصبر على ضروب ثلاثة: فالصبر عن المعاصي،
والصبر على الطاعات، والصبر عند الشدائد المصيبات.

فأفضلها الصبر عن المعاصي.

فالعاقل يدبر أحواله بالتثبت عند الأحوال الثلاثة الَّتِي ذكرناها، بلزوم
الصبر على المراتب الَّتِي وصفناها قبل، حتى يرتقي بها إِلَى درجة الرضا عن الله
-جل وعلا- فِي حال العسر واليسر معاً، نسأل الله الوصول إِلَى تلك الدرجة بِمَنِّهِ.

ولقد أنشدني عبد الله بن الأحوص:

تَعَزَّ بِحُسْنِ الصَّبْرِ عَنْ كُلِّ هَالِكٍ فَفِي الصَّبْرِ مَسْلاَةُ الْهُمُومِ اللَّوَاظِمِ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسْأَلِ اضْطِبَّارًا وَحِسْبَةً سَلَوْتَ عَلَى الْآيَّامِ مِثْلَ الْبَهَائِمِ
وَلَيْسَ يَذُودُ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا كُلُّ مَاضِي الْعَزَائِمِ

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

غَايَةُ الصَّبْرِ لَذِيذُ طَعْمُهَا وَبَدِي الصَّبْرِ مِنْهُ كَالصَّبْرِ
إِنْ فِي الصَّبْرِ لَفَضْلًا بَيْنَنَا فَاحْمِلِ النَّفْسَ عَلَيْهِ تَضْطَبِرْ

وأنشدني الكريزي:

صَبَرْتُ وَمَنْ يَصْبِرْ يَجِدْ غَبَّ صَبْرِهِ أَلَدَّ وَأَحْلَى مِنْ جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ
وَمَنْ لَا يَطْبُ نَفْسًا وَيَسْتَبِقِ صَاحِبًا وَيَغْفِرُ لِأَهْلِ الْوُدِّ يُضْرَمُ وَيُصْرَمِ

أنبأنا مُحَمَّد بن زنجويه القشيري، حدثنا عبد الأعلى بن حماد النرسي، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن معاذة - امرأة صِلَة بن أشيم - قالت: لما أتاها نعي زوجها وابنها؛ جاءها النساء، فقالت: «إِنْ كُنْتُ جِئْتُ لْتَهْنِئَتِنَا بِمَا أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ، وَإِلَّا فَارْجِعْنَ».

قال ثابت: وكان صِلَة يأكل يومًا فأتاه رجل، فقال: مات أخوك، قال: هيهات، قد نُعي إليّ، اجلس فكل، قال الرجل: ما سبقني إليك أحد، فقال: قال الله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

حدثنا عمرو بن مُحَمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة قال: كتب بعض الحكماء إلى أخ له يعزيه عن ابن له يقال له مُحَمَّد:

اضْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
وَإِذَا ذَكَرْتَ مُحَمَّدًا وَمُصَابَهُ فَادْكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

وَأُنْشِدْنِي مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ الْوَاسِطِي:

يُعَزِّي الْمُعَزِّي ثُمَّ يَمْضِي لِشَأْنِهِ وَيَبْقَى الْمُعَزَّى فِي أَحَرِّ مِنَ الْجَمْرِ
وَيُزَمِّي الْمُعَزَّى بَعْدَ ذَلِكَ بِسَلْوَةٍ وَأُنْشِدْنِي الْمُتَصَرِّحَ بْنَ بِلَالٍ:

مَنْ يَسْبِقِ السَّلْوَةَ بِالصَّبْرِ فَازَ بِفَضْلِ الْحَمْدِ وَالْأَجْرِ
يَا عَجَبِي مَنْ هَلَعَ جَاوِزِ يُضْبِحُ بَيْنَ الدِّمِّ وَالْوِزْرِ
مُصِيبَةُ الْإِنْسَانِ فِي دِينِهِ أَعْظَمُ مِنْ جَائِحَةِ الدَّهْرِ

وَأُنْشِدْنِي عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنِ سَلِيمَانَ الْأَبْرَشَ:

تَجْرِي الْمَقَادِيرُ إِنْ عُسِرَ وَإِنْ يُسِّرَ حَازَرَتْ وَاقِعَهَا أَوْ لَمْ تَكُنْ حَذِرًا
وَالْعُسْرُ عَنْ قَدَرٍ يَجْرِي إِلَى يُسْرِ وَالصَّبْرُ أَفْضَلُ شَيْءٍ وَافَقَ الظَّفَرَ

سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ أَحْمَدَ الْقَطَانَ الْبَغْدَادِيَّ بِ«تُسْتَر» يَقُولُ: كَانَ لَنَا جَارٌ بِبَغْدَادٍ كُنَّا نَسْمِيهِ: طَيْبُ الْقِرَاءِ، وَكَانَ يَتَفَقَدُ الصَّالِحِينَ وَيَتَعَاهَدُهُمْ، فَقَالَ لِي: دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، فَإِذَا هُوَ مَغْمُومٌ مَكْرُوبٌ، فَقُلْتُ: مَا لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: خَيْرٌ، قُلْتُ: وَمَا الْخَيْرُ؟ قَالَ: امْتَحَنْتَ بِتِلْكَ الْمَحَنَةِ، حَتَّى ضُرَبْتُ، ثُمَّ عَالَجُونِي وَبَرَّاتُ، إِلَّا أَنَّهُ بَقِيَ فِي صُلْبِي مَوْضِعٌ يُوجِعُنِي، هُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ الضَّرْبِ، قَالَ: قُلْتُ: اكْشِفْ لِي عَنْ صُلْبِكَ، قَالَ: فَكَشَفَ لِي، فَلَمْ أَرِ فِيهِ إِلَّا أَثَرَ الضَّرْبِ فَقَطْ، فَقُلْتُ: لَيْسَ لِي بِذِي مَعْرِفَةٍ، وَلَكِنْ سَأَسْتَخْبِرُ عَنْ هَذَا.

قَالَ: فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ، حَتَّى أَتَيْتُ صَاحِبَ الْحَبْسِ، وَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَضْلُ مَعْرِفَةٍ، فَقُلْتُ لَهُ: أَدْخُلُ الْحَبْسَ فِي حَاجَةٍ؟ قَالَ: ادْخُلْ، فَدَخَلْتُ وَجُمِعْتُ فِتْيَانَهُمْ، وَكَانَ مَعِيَ دَرِيهَمَاتٌ فَرَقَتْهَا عَلَيْهِمْ، وَجَعَلْتُ أَحَدَهُمْ حَتَّى أَنْسُوا بِي، ثُمَّ قُلْتُ: مَنْ مِنْكُمْ ضُرِبَ أَكْثَرُ؟ قَالَ: فَأَخَذُوا يَتَفَاخَرُونَ حَتَّى اتَّفَقُوا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ

أنه أكثرهم ضربًا، وأشدّهم صبرًا، قال: فقلت له: أسألك عن شيء؟ فقال: هات، فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ضُرب على الجوع للقتل سياطًا يسيرة، إلا أنه لم يَمِت، وعالجوه وبرًا، إلا أن موضعًا في صلبه يوجعه وجعًا ليس له عليه صبر، قال: فضحك، فقلت: ما لك؟ قال: الذي عالجوه كان حائكا، قلت: أيش الخبر؟ قال: ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها، قلت: فما الحيلة؟ قال: يُبَطُّ صلبه، وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها، وإن تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته.

قال: فخرجت من الحبس، فدخلت على أحمد بن حنبل فوجدته على حالته، فقصصت عليه القصة، قال: ومن يبطُّه؟ قلت: أنا، قال: أو تفعل؟ قلت: نعم، قال: فقام، فدخل البيت، ثم خرج ويده مخدتان، وعلى كتفه فوطة، فوضع إحداهما لي والأخرى له، ثم قعد عليها، وقال: استخر الله، فكشفت الفوطة عن صلبه، وقلت: أين موضع الوجع. فقال: ضع إصبعك عليه، فإني أخبرك به، فوضعت إصبعي، وقلت: هاهنا موضع الوجع. قال: هاهنا أحمدُ الله على العافية، فقلت: هاهنا؟ قال: هاهنا أحمدُ الله على العافية، فقلت: هاهنا موضع الوجع، قال: فوضعت المِبْضَع عليه، فلما أحس بحرارة المِبْضَع وضع يده على رأسه، وجعل يقول: اللهم اغفر للمعتصم، حتّى بَطَطْتُهُ، فأخذت القطعة الميتة ورميت بها، وشدت العصابة عليه، وهو لا يزيد على قوله: اللهم اغفر للمعتصم، قال: ثم هداً وسكن، ثم قال: كأنّي كنت مُعلّقاً فأُصدّرت، قلت: يا أبا عبد الله، إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم، ورأيتك تدعو للمعتصم؟ قال: إنّي فكرت فيما تقول، وهو ابن عم رسول الله ﷺ، فكرهت أن آتي يوم القيامة، وبينى وبين أحد من قرابته خصومة هو منّي في حل.

ذكر الحث على العفو عن الجاني

حدثنا الفضل بن الحباب الجمحي بـ«البصرة»، حدثنا القعنبي، حدثنا عبد العزيز بن مُحمّد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال: «أَتَى رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَيُسَيِّئُونَ إِلَيَّ، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَئِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ: فَكَأَنَّمَا تُسْفَهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مِنَ اللَّهِ مَعَكَ ظَهِيرٌ مَا زِلْتَ عَلَى ذَلِكَ».

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج بمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهيجها أشد من الاستعمال بمثلها.

ولقد أنشدني منصور بن محمد الكريزي:

سَأَلَرِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ	وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ إِلَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ:	شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلٌ مُقَاوِمٌ
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي: فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ	وَأَتَّبِعُ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لَازِمٌ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي: فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ	إِجَابَتِهِ عَرْضِي وَإِنْ لَمْ لَأَيْمٌ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي: فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا	تَفَضَّلْتُ إِنَّ الْحِلْمَ لِلْفَضْلِ حَاكِمٌ

أنبأنا محمد بن عثمان العقبي، حدثنا محمد بن عامر الأنطاكي، حدثنا أبو توبة، حدثنا محمد بن مهاجر، عن يونس بن ميسرة بن حلبس قال: ثلاثة يُحِبُّهم الله: من كره سوءاً يأتيه إلى أخيه وصاحبه، فذلك قَمِينٌ أن يستحي من الله، ومن كان ذا رفعة من الناس فتواضع لله، فذلك الذي عرف عظمة الله، فيخاف مقتته، ومن كان عفوه قريباً من إساءته، فذلك الذي تقوم به الدنيا.

قال أبو حاتم رحمه الله: من أراد الثواب الجزيل، واسترهان الودِّ الأصيل، وتوقُّع الذكر الجميل؛ فليتحمل من ورود ثقل الردى، ويتجرع مرارة مخالفة الهوى، باستعمال السنة التي ذكرناها في الصلة عند القطع، والإعطاء عند المنع، والحلم عند الجهل، والعفو عند الظلم؛ لأنه من أفضل أخلاق أهل الدين والدنيا.

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا إبراهيم بن

مُحَمَّدُ بْنُ مَيْمُونٍ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الزُّبَيْرَانَ قَالَ: قَالَ أَيُّوبُ: «لَا يَنْبُلُ الرَّجُلُ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خَصْلَتَانِ: الْعِفَّةُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُمْ».

وَأَنْشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَنْجِي الْبَغْدَادِي:

وَإِذَا مُذْنِبٌ أَتَاهُ بِهِ الْحَقُّ فَعَطَّاهُ عَفْوُهُ فِي سُتُورِهِ
رَاجِعًا لِلثَّوَابِ فِي كُلِّ رُزْءٍ مِنْ خَفِيِّ الْأُمُورِ أَوْ مَشْهُورِهِ
فَهُوَ فِي عَاجِلِ الْحَيَاةِ كَرِيمٌ وَمِنَ الْفَائِزِينَ يَوْمَ نُشُورِهِ
خَصْلَةٌ جَزَلَةٌ بِهَا خَصَّهُ اللَّهُ لِرِزْنِ الدُّنْيَا وَيَوْمِ كُرُورِهِ

أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ خَزِيمَةَ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ الشَّيْبَانِيُّ، حَدَّثَنَا سَفْيَانٌ، عَنْ رَجُلٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ: «أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: الْعَفْوُ فِي الْقُدْرَةِ، وَالْقَصْدُ فِي الْجَدَةِ، وَالرَّفْقُ فِي الْعِبَادَةِ، وَمَا رَفَقَ أَحَدٌ بِأَحَدٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَفَقَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أَنْبَأَنَا عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيِّ، حَدَّثَنَا الْغَلَابِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَائِشَةَ قَالَ: كَتَبَ الْحِجَاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ: «إِنَّكَ أَعَزُّ مَا تَكُونُ أَحَوْجُ مَا تَكُونُ إِلَى اللَّهِ، فَإِذَا تَعَزَّزْتَ بِاللَّهِ فَاعْفُ، فَإِنَّكَ بِهِ تَعَزُّ، وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: الْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ لَزُومُ الصَّفْحِ عِنْدَ وَرُودِ الْإِسَاءَةِ عَلَيْهِ مِنَ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِمْ، رَجَاءُ عَفْوِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- عَنْ جُنَايَاتِهِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا فِي سَالِفِ أَيَّامِهِ؛ لِأَنَّهُ صَاحِبُ الصَّفْحِ إِنَّمَا يَتَكَلَّفُ الصَّفْحَ بِإِثَارَةِ الْجَزَاءِ، وَصَاحِبُ الْعِقَابِ وَإِنْ انْتَقَمَ إِلَى النَّدَمِ أَقْرَبُ، فَأَمَّا مَنْ لَهُ أَخٌ يَوَدُّهُ فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ عَنْهُ الدَّهْرَ كُلَّهُ زَلَاتِهِ.

وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدَ التَّمَارِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ مَرْدُوِيَةَ الصَّائِغَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الْفَضِيلَ بْنَ عِيَّاضٍ يَقُولُ: اغْفِرْ لِأَخِيكَ إِلَى سَبْعِينَ زَلَةً، قِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا أَبَا عَلِيٍّ؟ قَالَ: لِأَنَّ الْأَخَ الَّذِي أَخِيْتَهُ فِي اللَّهِ لَيْسَ يَزِلُ سَبْعِينَ زَلَةً.

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

إِذَا لَمْ تُجَاوِزْ عَنْ أَخٍ لَكَ عَثْرَةً فَلَسْتَ غَدًا عَنْ عَثْرَتِي مُتَجَاوِزًا
وَكَيْفَ يُرَجِّكَ الْبَعِيدُ لِنَفْعِهِ إِذَا كَانَ عَنْ مَوْلَاكَ بِرُّكَ عَاجِزًا

أنبأنا مُحَمَّد بن صالح الطبري، حدثنا الرمادي، حدثنا الجعفي يحيى بن سليمان، حدثنا ابن أبجر، حدثني أبي قال: «أقبل الشعبي يومًا، فإذا هو برجلين من قومه من وراء جدار قصير، قال: فاستمع عليهما، فإذا هما يقعان فيه ويشتمان، ويستنقصانه حتَّى أكثرا، فلما أطلاا أشرف عليهما الشعبي، فقال:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ لِعِزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
فقالا: والله يا أبا عمرو، لا نَقْعُ فِيكَ بعدَ اليومِ».

وأنشدني بعض أهل العلم:

وَلَرُبَّمَا ابْتَسَمَ الْوُقُورُ مِنَ الْأَذَى وَضَمِيرُهُ مِنْ حَرِّهِ يَتَأَوُّهُ
وَلَرُبَّمَا خَزَنَ الْحَلِيمُ لِسَانَهُ حَذَرَ الْجَوَابِ وَإِنَّهُ لَمَفْؤُهُ

وأنبأنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم، أنبأنا عبد الله بن الحسين المصيبي، أنبأنا يعقوب بن أبي عباد، قال: قال الفضيل بن عياض: مَنْ طَلَبَ أَخًا بَلَا عَيْبَ بَقِيَ بَلَا أَخٍ.

قال أبو حاتم رحمته الله: أَغْنَى النَّاسُ عَنِ الْحَقْدِ: مَنْ عَظُمَ عَنِ الْمَجَازَاةِ، وَأَجَلُّ النَّاسِ مَرْتَبَةً: مَنْ صَدَّ الْجَهْلُ بِالْحِلْمِ، وَمَا الْفَضْلُ إِلَّا لِمَنْ يَحْسَنُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ، فَأَمَّا مُجَازَاةُ الْإِحْسَانِ إِحْسَانًا فَهُوَ الْمَسَاوَاةُ فِي الْأَخْلَاقِ، فَلَرُبَّمَا اسْتَعْمَلَهَا الْبِهَائِمُ فِي الْأَوْقَاتِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الصَّفْحِ وَتَرَكَ الْإِسَاءَةَ خَصْلَةً تُحْمَدُ إِلَّا رَاحَةُ النَّفْسِ وَوَدَاعُ الْقَلْبِ؛ لَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَلَّا يَكْدُرَ وَقْتَهُ بِالْدُخُولِ فِي أَخْلَاقِ الْبِهَائِمِ، بِالْمَجَازَاةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ إِسَاءَةً، وَمَنْ جَازَى بِالْإِسَاءَةِ إِسَاءَةً فَهُوَ الْمَسِيءُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَادِئًا.

كما أنشدني الكريزي:

أَسَأْتُ وَأَنْكَرْتُ أَنِّي أَسَأْتُ فَافْضِلْ وَلَا تَكُ عَيْنَ الْمُسِي
لَكَ الْفَضْلُ بِالْعَفْوِ عَمَّا عَفَوْتُ وَإِلَّا فَأَنْتَ الْقَرِينُ السَّوِي
وَعَفْوُكَ مُقْتَدِرًا نِعْمَةً وَعَفْوُ الْمُنْدِدِ غَيْرُ الْهَنِي

سمعت مُحَمَّد بن عثمان العقبي، قال: سمعت هلال بن العلاء الباهلي يقول: جعلت على نفسي منذ أكثر من عشرين سنة ألا أكافئ أحدا بسوء، وذهبت إلى هذه الأبيات:

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ أَرَحْتُ قَلْبِي مِنْ غَمِّ الْعَدَاوَاتِ
إِنِّي أَحْيِي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤَيْتِهِ لِأَدْفَعِ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ
وَأُظْهِرُ الْبَشَرَ لِلْإِنْسَانِ أَبْغَضُهُ كَأَنَّمَا قَدْ حَشَا قَلْبِي مَحَبَّاتِ

أنبأنا ابن قتيبة، حدثنا ابن أبي السري، قال: سمعت أبا عمر الصنعاني يقول: حدثنا زيد بن أسلم قال: قال لقمان لابنه: «كذب من قال: إن الشر يطفى الشر، فإن كان صادقا فليوقد نارا إلى جنب نار، فلينظر هل تطفى إحداهما الأخرى، وإلا فإن الخير يطفى الشر، كما يطفى الماء النار».

حدثني مُحَمَّد بن أَبِي علي الخلادي، حدثنا مُحَمَّد بن خلف البسامي، حدثنا مُحَمَّد بن عبيد الداري، حدثنا مُحَمَّد بن عمران الضبي، قال: قال ابن السماك: لئن لمن يعفو، فقل من يصفو.

وأنشدني الأبرش:

تَوَخَّ مِنَ السُّبُلِ أَوْسَاطَهَا وَعَدَّ عَنِ الْجَائِرِ الْمُشْتَبِهَ
وَسَمِعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ الْقَبِيحِ كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقَبِيحِ شَرِيكَ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِهْ

فَكَمْ أَرْعَجَ الْحِرْصُ مِنْ طَالِبٍ فَوَافَى الْمَنِيَّةَ فِي مَطْلَبِهِ

أُنْبَأَنَا عمر بن حفص البزاز بـ«جنديسابور»، حدثنا جعفر بن مُحَمَّد بن حبيب الذارع، حدثنا عبد الله بن رشيد، حدثنا مُجَاعَة بن الزبير، قال: «قال لقمان الحكيم لابنه: أي بني، أي شيء أقل؟ وأي شيء أكثر؟ وأي شيء أحلى؟ وأي شيء أبرد؟ وأي شيء آنس؟ وأي شيء أوحش؟ وأي شيء أقرب؟ وأي شيء أبعد؟ قال: أما أقل شيء: فاليقين، وأما أي شيء أكثر: فالشك، وأما أي شيء أحلى: فَرَوْحُ الله بين العباد يتحابون بها، وأما أي شيء أبرد: فَعَفْوُ الله عن عباده، وعفو الناس بعضهم عن بعض، وأي شيء آنس: حبيبك إذا أُغْلِقَ عليك وعليه باب واحد، وأي شيء أوحش: جسد إذا مات، فليس شيء أوحش منه، وأي شيء أقرب: فالآخرة من الدنيا، وأي شيء أبعد: فالدنيا من الآخرة».

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل يُحَسِّنُ عند الجفوة، ويغضي عن المجازاة عليها

بمثلها.

وقد قيل: إن من لَمْ يَغْضَبْ من الجفوة لَمْ يشكر النعمة، وهو عندي -والله أعلم- غضب لا يخرج به إِلَى المعاصي، ولا إِلَى الانتقام من الجاني، كأنه في نفسه يعلم محل الجفوة منه، كما يعقل ورود النعمة عليه، وما أقبح قدرة اللئيم إذا قدر، ومن أساء سَمْعًا أساء إجابة، ومن أتى المكروه إِلَى أحد فبنفسه بدأ؛ لأن الشرور تبدو صغارًا ثُمَّ تعود كبارًا.

ولقد أُنْبَأَنَا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا مُحَمَّد بن إدريس الرازي، حدثنا عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل بن عبيد الله المخزومي، حدثنا عبد الأعلى ابن مسهر، عن سعيد بن عبد العزيز قال: سمعت إسماعيل بن عبيد الله يقول لبنيه: «يا بني أكرموا من أكرمكم، وإن كان عبدًا حبشيًّا، وأهينوا من أهانكم، وإن كان رجلًا قرشيًّا».

قال أبو حاتم رحمته الله: هذا الذي قال إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر:

إن استعمله العاقل في الأحوال كلها مع الجاهل فلا ضير، فأما من ارتفع عن حد الجاهل، واتضع عن حد العقلاء، فالإغضاء عن مثله في الأوقات أحمد مخافة الازدياد منه؛ ولأن يصبر المرء على حرارة الجفاء ومرارتها أولى من الانتقام مما يستجلب عليه بما هو أحرّ وأمرّ -أيضاً- مما مضى؛ لأن من الكلام ما هو أشد من الحجر، وأنفذ من الإبر، وأمر من الصبر.

ولقد أحسن الذي يقول:

لَقَدْ أَسْمَعُ الْقَوْلَ الَّذِي كَادَ كُلَّمَا
تُذَكِّرُنِيهِ النَّفْسُ قَلْبِي يُصْذَعُ
فَأُبْدِي لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّي بِشَاشَةً
كَأَنِّي مَسْرُورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
وَمَا ذَاكَ عَنْ عَجْزٍ بِهِ غَيْرَ أَنَّنِي
أَرَى أَنْ تَرْكَ الشَّرَّ لِلشَّرِّ أَقْطَعُ

أنبأنا مُحَمَّد بن صالح الطبري بـ«الصيمرة»، حدثنا أحمد بن مقدم العجلي، حدثنا مُحَمَّد بن عبد الرحمن الطفاوي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أبي عمر في هذه الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. قال: «أمر النبي ﷺ بالعفو عن أخلاق الناس».

ذكر صفة الكريم والنييم

أنبأنا مُحَمَّد بن الحسن بن الخليل بـ«نسا»، حدثنا أبو كريب، حدثنا عبدة ابن سليمان، عن عبيد الله بن عمر، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاهُمْ. قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ؟ قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَنِي؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقَهُوا».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: أكرم الناس من اتقى الله، والكريم: التقى.

والتقوى: هي العزم على إتيان المأمورات، والانزجار عن جميع المزجورات، فمن صح عزمه على هاتين الخصلتين، فهو التقى الذي يستحق اسم الكرم، ومن

تَعَزَّى عَنْ اسْتِعْمَالِهِمَا، أَوْ أَحَدَهُمَا، أَوْ شَعْبَةً مِنْ شَعْبَهُمَا، فَقَدْ نَقَصَ مِنْ كَرَمِهِ
مِثْلَهُ.

ولقد أنبأنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَهَاجِرِ، حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ سَهْلٍ الْأَزْدِيُّ،
عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الْمَدَائِنِيِّ، قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: «ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا تَجْتَمِعُ إِلَّا فِي
كَرِيمٍ: حُسْنُ الْمُحَضَّرِ، وَاحْتِمَالُ الرِّزَّةِ، وَقِلَّةُ الْمُلَالَةِ».

وَأُنْشِدُنِي ابْنَ زَنْجِي الْبَغْدَادِي:

رَأَيْتُ الْحَقَّ يَعْرِفُهُ الْكَرِيمُ لِصَاحِبِهِ وَيُنْكِرُهُ اللَّئِيمُ
إِذَا كَانَ الْفَتَى حَسَنًا كَرِيمًا فَكُلُّ فِعَالٍ لَهُ حَسَنٌ كَرِيمٌ
وَإِنْ أَلْفَيْتُهُ سَمِجًا لئِيمًا فَكُلُّ فِعَالٍ لَهُ سَمِجٌ لئِيمٌ

قال أبو حاتم رحمته الله: الكريم لا يكون حقودًا، ولا حسودًا، ولا شامتًا، ولا باغيًا،
ولا ساهيًا، ولا لاهيًا، ولا فاجرًا، ولا فخورًا، ولا كاذبًا، ولا ملولًا، ولا يقطع إلفه،
ولا يؤذي إخوانه، ولا يضيع الحفاظ، ولا يجفو في الوداد، يعطي من لا يرجو،
ويؤمن من لا يخاف، ويعفو عن قدرة، ويصل عن قطيعة.

أخبرني مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ الْخَلَادِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الذَّهَلِيُّ، عَنْ
عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَدَائِنِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْعَبَّاسِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَجَّاجِ
-مَوْلَى الْمَهْدِيِّ-، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ شَكْلَةَ، قَالَ: «إِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ حَيَاةٌ وَمَوْتًا، وَإِنْ
مِمَّا يُحْيِي الْكَرَمَ: مُوَاصَلَةُ الْكَرَمَاءِ، وَمِمَّا يُحْيِي اللَّؤْمَ: مُعَاشَرَةُ اللَّئَامِ».

وَأُنْشِدُنِي الْكَرِيزِي:

وَمَا بَالُ قَوْمٍ لئَامٍ لَيْسَ عِنْدَهُمْ عَهْدٌ وَلَيْسَ لَهُمْ دِينَ إِذَا اتَّمَنُوا
إِنْ يَسْمَعُوا رَيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مِنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا

قال أبو حاتم عليه السلام: الكريم يلين إذا استعطف، واللثيم يقسو إذا أطف، والكريم يُجل الكرام، ولا يُهين اللثام، ولا يؤذي العاقل، ولا يُمازح الأحمق، ولا يعاشر الفاجر، مؤثراً لإخوانه على نفسه، باذلاً لهم ما ملك، إذا اطلع على رغبة من أخ لم يدع مكافأتها، وإذا عرف منه المودة لم ينظر في ملكِ العداوة، وإذا أعطاه من نفسه الإخاء لم يقطعه بشيء من الأشياء.

كما أنشدني الخلادي قال: أنشدنا أحمد بن أبي علي القاضي، قال: أنشدنا مُحَمَّد بن مقيس الأزدي:

فَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ عَشِيرَتِي	وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلِفٍ جَدًّا
إِذَا قَدَحُوا لِي نَارَ حَرْبٍ بِزَنْدِهِمْ	قَدَحْتُ لَهُمْ فِي كُلِّ مَكْرَمَةٍ زَنْدًا
وَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لُحُومُهُمْ	وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ	وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدًا
وَأُعْطِيهِمْ مَالِي إِذَا كُنْتُ ذَا غِنَى	وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْلَفْهُمْ رِفْدًا

أنبأنا ابن جَوْصَا، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضمرة، عن إبراهيم ابن أبي عبله قال: رأيت سالم بن عبد الله ومُحَمَّد بن عبد العزيز يتسايران بأرض الروم، فأبال أحدهما دابته، فأمسك عليه الآخر حَتَّى لحقه.

أنبأنا مُحَمَّد بن المهاجر، حدثنا أحمد بن بكر بن خالد اليزيدي، عن قطبة بن العلاء بن المنهال، قال: سمعت المبارك بن سعيد يقول: سمعت الأعمش يقول: قال الشعبي: «إِنْ كِرَامَ النَّاسِ: أَسْرَعُهُمْ مَوْدَّةً، وَأَبْطَوْهُمْ عِدَاوَةً، مِثْلُ الْكُوبِ مِنَ الْفُضَّةِ؛ يُبْطِئُ الْانْكَسَارُ، وَيُسْرِعُ الْانْجِبَارُ، وَإِنْ لَثَامَ النَّاسِ أَبْطَوْهُمْ مَوْدَةً، وَأَسْرَعَهُمْ عِدَاوَةً، مِثْلُ الْكُوبِ مِنَ الْفَخَارِ؛ يَسْرِعُ الْانْكَسَارُ، وَيُبْطِئُ الْانْجِبَارُ».

قال أبو حاتم عليه السلام: الكريم مَنْ أعطاه شَكَرَهُ، وَمَنْ مَنَعَهُ عَذَرَهُ، وَمَنْ قَطَعَهُ وَصَلَهُ، وَمَنْ وَصَلَهُ فَضَّلَهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ ابْتَدَاهُ، وَإِذَا اسْتَضَعَفَ

أحدًا رحمه، وإذا استضعفه أحد رأى الموت أكرم له منه، واللئيم بضد ما وصفنا من الخصال كلها.

ولقد أنبأنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم بن مُحَمَّد الذهلي، حدثنا أحمد بن الخليل، حدثنا يَحْيَى بن أيوب، عن أَبِي عيسى قال: كان إبراهيم بن أدهم كريم النفس، يخالط الناس بأخلاقهم، ويأكل معهم، قال: فربما اتَّخذَ لَهُم الشَّواءَ والجُذبات والخبيص، وربَّما خلا هو وأصحابه الذين يَأْنَسُ بِهِم فيتصارعون، قال: وكان يعمل عمل رجلين، وكان إذا صار إلى نفسه أكل عجينًا.

قال أبو حاتم رحمته الله: أجمع أهل التجارب للدهر، وأهل الفضل في الدين، والراغبون في الجميل: على أن أفضل ما اقتنى الرجل لنفسه في الدنيا، وأجل ما يدَّخر لها في العقبى هو لزوم الكرم، ومعاشرة الكرام؛ لأن الكرم يحسن الذكر، ويشرف القدر، وهو طباع ركبها الله في بني آدم، فمن الناس من يكون أكرم من أبيه، وربَّما كان الأب أكرم من ابنه، وربَّما كان المملوك أكرم من مولاه، وربَّما كان مولى أكرم من مملوكه.

ولقد أحسن الذي يقول:

رُبَّ مَمْلُوكٍ إِذَا كَشَفْتُهُ	كَانَ مِنْ مَوْلَاهُ أَوْلَى بِالْكَرَمِ
فَهُوَ مَمْدُوحٌ عَلَى أَحْوَالِهِ	وَتَرَى مَوْلَاهُ يُهْجَى وَيُذَمُّ
وَتَرَاهُ كَيْفَ يَعْلُو دَائِبًا	وَتَرَى مَوْلَاهُ مِنْ تَحْتِ الْقَدَمِ
وَفَتَّى تَلْقَى أَبَاهُ دُونَهُ	وَأَبَا تَلْقَاهُ أَعْلَى وَأَتَمُّ
مِنْ بَنِيهِ ثُمَّ لَا يَعْتَلُّ إِنْ	طَلِبَ الْمَعْرُوفُ مِنْهُ بِالصَّمِّ
وَكَذَلِكَ النَّاسُ فَأَعْلَمَ رَبَّنَا	قَدَرَ الْأَخْلَاقِ فِيهِمْ وَقَسَمُ

وأنشدني الأبرش:

رَأَيْتُ اللَّيْنَ لَا يَرْضَى بِضَيْمٍ لِأَنَّ الضَّيْمَ يَسْخَطُهُ الْكَرِيمُ
وَأَنَّ اللَّيْنَ أَكْرَمُ كُلِّ شَيْءٍ فَلَيْسَ يُحِبُّهُ خُلُقٌ لَّيِّمٌ
فَإِنَّ نَزَلَ الْأَذَى وَاللَّيْنَ قَلْبًا فَإِنَّ اللَّيْنَ يَرْحَلُ لَا يُقِيمُ
وَيَبْقَى لِلْأَذَى فِي الْقَلْبِ صَحْبٌ مِنَ الْبَغْضَاءِ يَلْبَثُ لَا يَرِيمُ

حدثنا القطان بـ«الرقعة»، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، قال: سمعت أبي يقول: ما من أحد إلا وله توبة، إلا سيئ الخلق؛ فإنه لا يتوب من ذنب إلا دخل في شر منه.

قال أبو حاتم رحمه الله: الكريم محمود الأثر في الدنيا، مرضي العمل في العقبى، يُحبه القريب والقاصي، ويألفه المتسخط والراضي، يفارقه الأعداء واللائم، ويصحبه العقلاء والكرام.

وما رأيت شيئاً أكثر عملاً في نقص كرم الكريم من الفقر، سواء كان ذلك بالقلب أو بالوجود.

ولقد أنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَالَ قَدْ يَجْعَلُ الْفَتَى نَسِيبًا وَإِنَّ الْفَقْرَ بِالْمَرْءِ قَدْ يُزْرِي
وَلَا رَفَعَ النَّفْسَ الدُّنْيَا كَالْغِنَى وَلَا وَضَعَ النَّفْسَ الْكَرِيمَةَ كَالْفَقْرِ

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حميد بن عبد الرحمن، عن زكريا بن أبي زائدة، عن علي بن الأقرم، عن أبي جحيفة قال: «جالسوا الكبراء، وخالطوا الحكماء، وسألو العلماء».

ذكر الزجر عن قبول قول الوُشَاة

أنبأنا أبو يعلى، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد بن أسماء، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا واصل الأحذب، عن أبي وائل، عن حذيفة رضي الله عنه: أنه بلغه أن رجلاً يَنِمُّ

الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ».

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على الناس كَافَّةً: مُجَانِبَةُ الْإِفْكَارِ فِي السَّبَبِ الذي يؤدي إِلَى الْبَغْضَاءِ وَالْمُشَاحَنَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَالسَّعْيِ فِيمَا يَفْرُقُ جَمْعَهُمْ وَيَشْتَتِ شَمْلَهُمْ، وَالْعَاقِلُ لَا يَخْوُضُ فِي الْإِفْكَارِ فِيمَا ذَكَرْنَا، وَلَا يَقْبَلُ سَعَايَةَ الْوَاشِي بِحِيلَةٍ مِنَ الْحِيلِ، لَعَلَّمَهُ بِمَا يَرْتَكِبُ الْوَاشِي مِنَ الْإِثْمِ فِي الْعَقَبَى بِفَعْلِهِ ذَلِكَ.

ولقد أنبأنا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ الْقَرَّازُ، حَدَّثَنَا عَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ مَزِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: قَالَ سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ لَابْنَهُ: «يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ، فَإِنَّهَا أَحَدُ مِنَ السَّيْفِ».

وَأَنشَدَنِي الْكَرِيزِيُّ:

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ
كَالسَّيْلِ بِاللَّيْلِ لَا يَذْرِي بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ جَاءَ وَلَا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ
فَالْوَيْلُ لِلْعَهْدِ مِنْهُ كَيْفَ يَنْقُضُهُ وَالْوَيْلُ لِلْوُدِّ مِنْهُ كَيْفَ يُفْنِيهِ

أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ النَّاقِدُ بـ«وَاسِطُ»، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عِيَّاشٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: «لَمَّا تَعَجَّلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ إِلَى رَبِّهِ رَأَى رَجُلًا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَغَبَطَهُ بِمَكَانِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِاسْمِهِ، قَالَ: [لَا أَخْبِرُكَ بِاسْمِهِ، وَ] لَكِنِّي أَخْبِرُكَ مِنْ عَمَلِهِ بِثَلَاثِ خِصَالٍ: كَانَ لَا يُحْسَدُ النَّاسُ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَلَا يَعْقُ وَالِدِيهِ، وَلَا يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ».

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَهَاجِرِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الرَّبِيعِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الْمَعْدَلِيُّ، عَنْ الْعَتَبِيِّ قَالَ: «سَمِعْتُ أَعْرَابِيَّةً تُوصِي ابْنًا لَهَا، فَقَالَتْ: عَلَيْكَ بِحِفْظِ السِّرِّ، وَإِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ، فَإِنَّهَا لَا تَتْرَكَ مَوْدَةً إِلَّا أَفْسَدَتْهَا، وَلَا جَمَاعَةً إِلَّا بَدَدَتْهَا، وَلَا ضَغِينَةً إِلَّا أَوْقَدَتْهَا».

[قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمه الله: ثُمَّ لَا بَدَ لِمَنْ عُرِفَ بِهَا، وَنُسِبَ إِلَى مُقَارَفَتِهَا مِنْ أَنْ

يُحْتَرَسُ مِنْ مُجَالَسَتِهِ، وَالْأَى يُوَثَّقُ بِمُودَتِهِ، وَأَنْ يُزْهَدَ فِي مَوَاصِلَتِهِ وَمَعَاشَرَتِهِ.
ولذلك يقول أخو ربيعة:

تَمَشَّيْتُ فِيْنَا بِالنَّمِيمِ وَإِنَّمَا تَفَرَّقَ بَيْنَ الْأَصْفِيَاءِ النَّمَائِمُ
وَمَا زِلْتَ مَنْسُوبًا إِلَى كُلِّ آفَةٍ وَمَا زَالَ مَنْسُوبًا إِلَيْكَ الْمَلَائِمُ
لِأَنَّكَ لَمْ تَنْدَمْ لِشَرِّ فَعَلْتَهُ وَمَا تَأْتِ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ نَادِمُ

أُنْبَأَنَا عمرو بن مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا الْغَلَابِيُّ، حَدَّثَنَا عبيد الله بن محمد العيشي، حَدَّثَنَا علي بن مُحَمَّدٍ المَدَائِنِيُّ قَالَ: «وَشَيْءٌ وَاشٍ بَعْدَ اللَّهِ بَنَ هَمَامِ السَّلُولِيِّ إِلَى زِيَادٍ، قَالَ: فَبَعَثَ زِيَادٌ إِلَى ابْنِ هَمَامٍ، فَجَاءَ فَأَدْخَلَ الرَّجُلَ بَيْتًا، فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ: يَا ابْنَ هَمَامٍ، بَلَّغْنِي أَنَّكَ هَجَوْتَنِي، فَقَالَ لَهُ: كَلَّا، أَصْلَحَكَ اللَّهُ! مَا فَعَلْتُ، وَمَا أَنْتَ لَذَلِكَ أَهْلٌ، قَالَ: فَإِنْ هَذَا أَخْبَرَنِي - وَأَخْرَجَ الرَّجُلَ - فَأَطْرَقَ ابْنُ هَمَامٍ هَنِيهَةً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ، فَقَالَ:

وَأَنْتَ أَمْرٌ وَإِنَّمَا ائْتَمَنْتُكَ خَالِيًّا فَخُنْتَ وَإِنَّمَا قُلْتَ قَوْلًا بِلاَ عِلْمٍ
فَأَنْتَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا بِمَنْزِلَةِ بَيْنِ الْخِيَانَةِ وَالْإِثْمِ
قَالَ: فَأَعْجَبَ زِيَادٌ بِجَوَابِهِ، وَأَدْنَاهُ، وَأَقْصَى السَّاعِي، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ.

وَأَنشَدَنِي ابْنُ زَنْجِي الْبَغْدَادِيُّ:

يَمْشُونَ فِي النَّاسِ يَغْنَوْنَ الْعُيُوبَ لِمَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ لِكَيْ يُسْتَشْرَفَ الْعَطْبُ
إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ يُخْفُوهُ وَإِنْ عَلِمُوا شَرًّا أَذَاعُوا وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ أَبُو جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ ابْنُ صَالِحٍ قَالَ: سَمِعْتُ حُجَّيْنَ بْنَ الْمُثَنَّى يَقُولُ: «سَعَى رَجُلٌ بِاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ إِلَى الْوَالِيِّ مِصْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فِدْعَاهُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْحَارِثِ، إِنَّ هَذَا أَبْلَغْنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ لَهُ اللَّيْثُ: سَلْهُ - أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! - عَمَّا أَبْلَغَكَ: أَهْوِ

شيء ائتمناه عليه فخاننا فيه؟! فما ينبغي لك أن تقبل من خائن، أو شيء كذب علينا فيه؟! فما ينبغي لك أن تقبل من كاذب. فقال الوالي: صدقت يا أبا الحارث».

أخبرنا ابن جوصا، حدثنا عبد الله بن هانئ بن عبد الرحمن بن أبي عبله، عن أبيه، عن عمه إبراهيم بن أبي عبله قال: «كنت جالسا مع أم الدرداء، فأتاها آت، فقال: يا أم الدرداء، إن رجلا نال منك عند عبد الملك بن مروان، فقالت: إن نؤبّن بما ليس فينا فطالما زكّينا بما ليس فينا».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل لزوم الإغضاء عما ينقل الوشاة، وصرف جميعها إلى الإحسان، وترك الخروج إلى ما لا يليق بأهل العقل، مع ترك الأفكار فيما يُزري بالعقل؛ لأن من وشى بالشيء إلى إنسان بعينه يكون قصده إلى المخبر أكثر من قصده إلى المخبر به؛ لمشافهته إياه بالشيء الذي يشق عليه علمه وسماعه».

ولقد أحسن الذي يقول:

مَنْ يُخْبِرُكَ بِشْتَمٍ عَنْ أَخٍ	فَهُوَ الشَّاتِمُ لَا مَنْ شَتَمَكَ
ذَاكَ شَيْءٌ لَمْ يُوَاجِهْكَ بِهِ	إِنَّمَا اللَّوْمُ عَلَى مَنْ أَعْلَمَكَ
كَيْفَ لَمْ يَنْصُرْكَ؟ إِنْ كَانَ أَخًا	ذَا وَفَاءٍ عِنْدَ مَنْ قَدْ ظَلَمَكَ
إِنَّمَا رَامَ بِإِبْلَاحِ الَّذِي	نَمَّ فِيهِ فَاعْلَمْ أَنْ يُرْغِمَكَ
فَأَهْنُهُ إِنَّهُ مِنْ لُؤْمِهِ	إِنْ تَهَنَّهُ بِهِ هَوَانٍ أَكْرَمَكَ
لَكِنْ الْحُرُّ إِذَا أَجْلَلْتَهُ	لَمْ يُصْغَرْ وَلَكِنْ فَخَّمَكَ

أنبأنا مُحَمَّد بن المهاجر، حدثنا مُحَمَّد بن عبد الله السويدي قال: سمعت العباس بن ميمون يقول: شَيَّع المأمون الحسن بن سهل ذا الوزارتين، فلما بلغا غاية التشيع، قال له المأمون: يا حسن، ألك حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، تحفظ

عَلَيَّ مِنْ قَبْلِكَ مَا لَا أُسْتَطِيعُ إِدْرَاكَهُ إِلَّا بِكَ، وَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَوْلُ كَثِيرٍ عَزَّةَ:
وَكُونِي عَلَى الْوَاشِينَ لَدَاءَ شَغْبَةٍ كَمَا أَنَا لِلْوَاشِي أَلَدُّ شَغُوبُ

أخبرنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا مُحَمَّد بن خزيمة البصري، حدثنا
أبو حذيفة، حدثنا عكرمة بن عمار، عن يَحْيَى بن أَبِي كثير قال: «الذي يعملُه
النَّمَامُ فِي سَاعَةٍ لَا يَعْمَلُهُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ».

أخبرنا مُحَمَّد بن عثمان العقيبي، حدثنا مُحَمَّد بن الحسن الهاللي أبو عوانة
البصري، حدثنا داود بن شبيب، حدثنا حماد بن سلمة قال: «باع رجل من رجل
غلامًا له، وقال: أبرأ إليك من النميمة، فاشتراه على ذلك، فجاء إلى مولاته،
فقال: إن زوجك ليس يُحبك، وهو يتسرَّى عليك ويتزوج، أفتريدن أن يعطف
عليك؟ قالت: نعم، قال: خذي موسى فاحلقي به شعيرات من باطن لحيته
وبخريه بها، وجاء إلى الرجل، فقال: إن امرأتك تبغي، وتصادق، وهي قاتلتك،
أفتريد أن يبين لك ذلك؟ قال: نعم، قال: تناوم لها، قال: فتناوم لها، فجاءت
بموسى تحلق الشعر، فأخذها فقتلها، فأخذه أولياؤها فقتلوه».

قال أبو حاتم رحمته الله: هذا وأمثاله من ثمرة النميمة؛ لأنها تهتك الأستار،
وتفشي الأسرار، وتورث الضغائن، وترفع المودة، وتجدد العداوة، وتبدد الجماعة،
وتهيج الحقد، وتزيد الصد، فمن وُشي إليه عن أخ كان الواجب عليه معاتبته على
الهفوة إن كانت، وقبول العذر إذا اعتذر، وترك الإكثار من العتب، مع توطين
النفس على الشكر عند الحفاظ، وعلى الصبر عند الضياع، وعلى المعاتبة عند
الإساءة.

وأنشدني منصور بن مُحَمَّد الكريزي:

كَافِ الْخَلِيلَ عَلَى الْمَوَدَّةِ مِثْلَهَا وَإِذَا أَسَاءَ فَكَافِهِ بِعِتَابِهِ
وَإِذَا عَتَبْتَ عَلَى امْرِئٍ آخِيَتَهُ فَتَوَقَّ ظَاهِرَ عَيْبِهِ وَسَبَابِهِ

وَأَلِنْ جَنَاحَكَ مَا اسْتَغْلَانِ لِدُودِهِ وَأَجِبْ أَخَاكَ إِذَا دَعَا بِجَوَابِهِ

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

أَعَاتِبُ إِخْوَانِي وَأُبْقِي عَلَيْهِمْ وَلَسْتُ لَهُمْ بَعْدَ الْعِتَابِ بِقَاطِعِ

وَأَغْفِرُ ذَنْبَ الْمَرْءِ إِنْ زَلَّ زَلَّةً إِذَا مَا أَنَا هَا كَارِهًا غَيْرَ طَائِعِ

وَأَجْزَعُ مِنَ لَوْمِ الْحَكِيمِ وَعَذْلِهِ وَمَا أَنَا مِنْ جَهْلِ الْجَهْلُولِ بِجَازِعِ

أخبرني محمد بن أبي علي الخلادي، أخبرني محمد بن يزيد النحوي، عن العتيبي، عن أبيه قال: عتب ابن الزبير على معاوية في شيء، فدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين: اسمع أحياناً أعتبك فيها، قال: هات، فأنشده:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ عَلَى أَيُّنَا تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ

وَإِنِّي عَلَى أَشْيَاءَ مِنْكَ تُرِيْبُنِي كَثِيرًا لَدُو صَفْحٍ عَلَى ذَاكَ مُجْمَلُ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الْهَجْرَانِ لَوْ كَانَ يَعْقِلُ

فقال له معاوية: لقد شعرت بعدي يا أبا بكر، فدخل عليه معن بن أوس المزني بعد ذلك، فقال له معاوية: هل أحدثت بعدنا شيئاً؟ قال: نعم، ثم أنشده.

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ

فقال: عَلَيَّ بَابِنِ الرَّبِيرِ، فقال: أليس هذا لك فيما زعمت؟ قال: أنا ألفت المعنى، وهو ألفت القوافي، وهو بعدُ ظئري، ومهما قال من شيء فأنا قلته، فضحك معاوية، وكان معن بن أوس مسترضعاً في مزينة.

سمعت الحسين بن إسحاق الأصفهاني يقول: كتب علي بن حجر السعدي

إلي بعض إخوانه:

أَحِنُّ إِلَيْ عِتَابِكَ غَيْرَ أَنِّي أَجِلُّكَ عَنْ عِتَابٍ فِي كِتَابِ

وَنَحْنُ إِذَا التَّقَيْنَا قَبْلَ مَوْتٍ شَفِيتُ غَلِيلَ صَدْرِي مِنْ عِتَابِي
وَإِنْ سَبَقَتْ بِنَا أَيْدِي الْمَنَايَا فَكَمْ مِنْ عَاتِبٍ تَحْتَ التُّرَابِ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

صَحَائِفُ عِنْدِي لِلْعِتَابِ طَوْنُهَا سَتُنَشْرُ يَوْمًا وَالْعِتَابُ يَطُولُ
كِتَابٌ لَعْمَرِي لَا بَنَانٌ يَخْطُهُ وَسَوْفَ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ رَسُولُ
سَأَكْتُبُ إِنْ لَمْ يَجْمَعْ اللَّهُ بَيْنَنَا وَإِنْ نَجْتَمِعُ يَوْمًا فَسَوْفَ أَقُولُ

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل ألا يقصر عن معاتبة أخيه على زلته؛ لأن من لم يعاتب على الزلة لم يكن بحافظ لخلّة، ومن أعتب لم يذنب، كما أن من اغتفر لم يعاقب، وظاهر العتاب خير من مكتوم الحقد، ورُبَّ عتب أنفع من صفح؛ ولذلك أنشدني مُحَمَّد بن إسحاق الواسطي:

إِذَا مَا امْرُؤٌ سَاءَتْكَ مِنْهُ خَلِيقَةٌ فَكَاتَمْتَهُ فَالْوَهْنُ فِي ذَاكَ تَرْكَبُ
لَعَلَّكَ لَوْ عَاتَبْتَهُ ثُمَّ لُمْتَهُ لَسَرَّكَ حَتَّى لَمْ تَكُنْ تَتَعَتَّبُ

وأنشدني الكريزي:

فَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَأَهْلًا وَمَرْحَبًا وَحُقَّ لَهَا الْعُتْبَى لَدَيْنَا وَقَلَّتِ
وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى فَإِنَّ وَرَاءَنَا مَفَاوِزَ لَوْ سَارَتْ بِهَا الْعَيْسُ كُلَّتِ

قال أبو حاتم رحمه الله: لا يجب على العاقل أن يناقش على تصحيح الإعتاب بالإكثار مخافة أن يعود المعاتب إلى ما عوتب عليه؛ لأنه من عاتب على كل ذنب أخاه، فحقيق أن يمله ويقلاه، وإن من سوء الأدب كثرة العتاب، كما أن من أعظم الجفاء ترك العتاب، والإكثار في المعاتبة يقطع الود ويورث الصد.

ولقد أنشدني عبد الله بن أحمد النقيب البغدادي لابن المعتز:

مُعَاتِبَةُ الْإِلْفَيْنِ تَحْسُنُ مَرَّةً فَإِنْ أَكْثَرُوا إِدْمَانَهَا أَفْسَدَ الْحَبَا
 إِذَا شِئْتَ أَنْ تُقْلَى فَرُزْ مُتَابِعًا وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حُبًّا فَرُزْ غِبًّا
 وأنشدني مُحَمَّد بن أَبِي علي الصيداوي:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبًا خَلِيلَكَ لَمْ تَلَقِ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ
 فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ

أخبرنا مُحَمَّد بن المهاجر، حدثنا مُحَمَّد بن الحسن الذهلي، عن أَبِي السائب
 قال: قال علي بن أَبِي طالب عليه السلام: «لا تكثر العتاب، فإن العتاب يُورث الضَّغينة
 والبغضة، وكثرته من سوء الأدب».

قال أبو حاتم عليه السلام: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات في كتاب «مراعاة
 الإخوان» فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

ذكر استحباب قبول الاعتذار من المعتذر

أنبأنا علي بن الحسين بن عبد الجبار بـ«نصيبين»، حدثنا علي بن حرب
 الطائي، حدثنا وكيع، عن الثوري، عن ابن جريج، عن العباس بن عبد الرحمن
 بن مينا، عن جودان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ اعْتَذَرَ إِلَى أَخِيهِ فَلَمْ يَقْبَلْ كَانَ
 عَلَيْهِ مِثْلُ خَطِيئَةِ صَاحِبِ مَكْسٍ».

قال أبو حاتم عليه السلام: أنا خائف أن يكون ابن جريج -رحمة الله ورضوانه
 عليه- دلَّس هذا الخبر فإن كان سمعه من العباس بن عبد الرحمن فهو حديث
 حسن غريب.

فالواجب على العاقل: إذا اعتذر إليه أخوه لجرم مضى، أو لتقصير سبق،
 أن يقبل عذره، ويجعله كمن لم يُذنب؛ لأن من تنصَّل إليه فلم يقبل أخاف ألا

يَرِدُ الْحَوْضَ عَلَى الْمِصْطَفَى ﷺ، وَمَنْ فَرَطَ مِنْهُ تَقْصِيرٌ فِي سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ
يَجِبُ عَلَيْهِ الْإِعْتَذَارُ فِي تَقْصِيرِهِ إِلَى أَخِيهِ.

وَلَقَدْ أَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَنْجِي الْبَغْدَادِي:

إِذَا اعْتَذَرَ الصَّدِيقُ إِلَيْكَ يَوْمًا مِنْ التَّقْصِيرِ عُذْرَ أَخٍ مُقَرَّرُ
فَضْلُهُ عَنْ جَفَائِكَ وَاعْفُ عَنْهُ فَإِنَّ الصَّفْحَ شِيمَةُ كُلِّ حُرٍّ

وَأَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقِ الْوَاسِطِي:

شَفِيعُ مَنْ أَسْلَمَهُ جُرْمُهُ إِقْرَارُهُ بِالْجُزْمِ وَالذَّنْبِ
وَتَوْبَةُ الْمُذْنِبِ مِنْ ذَنْبِهِ إِعْتَابُ مَنْ أَصْبَحَ ذَا عَتَبٍ

أَنْبَأَ عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْغَلَائِي، حَدَّثَنَا ابْنُ عَائِشَةَ، قَالَ: غَضِبَ سَلِيمَانُ
ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،
الْقُدْرَةُ تَذْهَبُ الْحَفِيزَةَ، وَأَنْتَ تُجَلُّ عَنْ الْعُقُوبَةِ، فَإِنْ تَعَفَّ فَأَهْلُ ذَاكَ أَنْتَ، وَإِنْ
تَعَاقَبَ فَأَهْلُ ذَاكَ أَنَا، قَالَ: فَعَفَا عَنْهُ.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: لَا يَجِبُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْتَذِرَ بِحِيلِهِ إِلَى مَنْ لَا يُحِبُّ أَنْ يَجِدَ
لَهُ عُذْرًا، وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكْثُرَ مِنَ الْإِعْتَذَارِ إِلَى أَخِيهِ؛ فَإِنَّ الْإِكْثَارَ مِنَ الْإِعْتَذَارِ هُوَ السَّبَبُ
الْمُؤْدِي إِلَى التَّهْمَةِ، وَإِنِّي لَأَسْتَحِبُّ الْإِقْلَالَ مِنَ الْإِعْتَذَارِ عَلَى الْأَحْوَالِ كُلِّهَا؛ لِعِلْمِي
أَنَّ الْمَعَاضِيرَ يَعْتَرِيهَا الْكَذِبُ، وَقَلَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا اعْتَذَرَ إِلَّا شَابَّ اعْتِدَارَهُ بِالْكَذِبِ، وَمَنْ
اعْتَرَفَ بِالزَّلَّةِ اسْتَحَقَّ الصَّفْحَ عَنْهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْإِعْتَذَارَ عَنِ الزَّلَّةِ يُوْجِبُ تَسْكِينَ الْغَضَبِ
عَنْهَا، وَالْمَعْتَذِرُ إِذَا كَانَ مُحَقَّقًا خُضَعَ فِي قَوْلِهِ، وَذَلِكَ فِي فِعْلِهِ.

كَمَا أَنشَدَنِي الْمُتَصَرِّ بْنُ بِلَالٍ:

أَيَا رَبِّ قَدْ أَحْسَنْتَ عَوْدًا وَبَدَأَةً إِلَيَّ فَلَمْ يَنْهَضْ بِإِحْسَانِكَ الشُّكْرُ
فَمَنْ كَانَ ذَا عُدْرٍ إِلَيْكَ وَحُجَّةٍ فَعُدْرِي إِقْرَارِي بِأَنْ لَيْسَ لِي عُذْرُ

وَأَنشَدَنِي الْكَرِيزِيُّ:

وَإِنِّي وَإِنْ أَظْهَرْتَ لِي مِنْكَ جَفْوَةً وَالزَّمْتَنِي ذَنْبًا وَإِنْ كُنْتُ مُجْرِمًا
لَرَاضٍ لِنَفْسِي مَا رَضِيتَ لَهَا بِهِ أَرَاكَ بِهَا مِنِّي أَبَرَّ وَأَرْحَمًا

أَنبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَثْمَانَ الْعَقْبِيُّ، حَدَّثَنَا الْفَيْضُ بْنُ الْخَضِرِ التَّمِيمِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُبَيْقٍ قَالَ: كَانَ يَقَالُ: احْتَمَلَ مِنْ دَلِّ عَلَيْكَ، وَاقْبَلَ مِمَّنْ اعْتَذَرَ إِلَيْكَ.
أَنبَأَنَا بَكْرُ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْقَزَّازُ بِ«الْبَصْرَةِ»، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَبُو بَشَرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا مَبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ، عَنْ حُمَيْدِ الطَّوِيلِ، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ، قَالَ: إِذَا بَلَغَكَ عَنْ أَخِيكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ فَالْتَمَسْ لَهُ عَذْرًا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عَذْرًا فَقُلْ: لَعَلَّ لَهُ عَذْرًا لَا أَعْلَمُهَا.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: لَا يَجِبُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَعلَنَ عَقُوبَةَ مَنْ لَمْ يَعلَنَ ذَنْبَهُ، وَلَا يَخْلُوَ الْمُعْتَذِرُ فِي اعْتِذَارِهِ مِنْ إِحْدَى حَالَتَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ صَادِقًا فِي اعْتِذَارِهِ، أَوْ كَاذِبًا؛ فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْعَفْوُ؛ لِأَنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ لَمْ يُقِلَّ الْعَثَرَاتِ، وَلَا يَسْتَرْ الزَّلَاتِ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمَرْءِ إِذَا عَلِمَ مِنَ الْمُعْتَذِرِ إِثْمَ الْكَذِبِ وَرَيْبَتَهُ، وَخُضُوعَ الْاعْتِذَارِ وَذِلَّتَهُ؛ أَلَّا يَعاقِبَهُ عَلَى الذَّنْبِ السَّالِفِ بَلْ يَشْكُرَ لَهُ الْإِحْسَانَ الْمَحْدُثَ الَّذِي جَاءَ بِهِ فِي اعْتِذَارِهِ، وَلَيْسَ يَعيِبُ الْمُعْتَذِرَ أَنْ ذَلَّ وَخَضَعَ فِي اعْتِذَارِهِ إِلَى أَخِيهِ.

وَأَنشَدَنِي الْأَبْرَشُ:

هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا زَعَمُ تَ فَأَيْنَ عَاطِفَةُ الْأُخُوَّةِ؟
أَوْ إِنْ أَسَأْتُ كَمَا أَسَأُ تَ فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمُرُوءَةُ؟

وَأَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ الصِّرْفِيُّ:

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ أَذْنَيْتَ مَجْلِسِي وَوَجْهَكَ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَةِ يَقْطُرُ
فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً إِلَيَّ بِهَا -نَفْسِي فِدَاؤُكَ- تَنْظُرُ

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

فَهَبْنِي مُسِيئًا كَالَّذِي قُلْتَ ظَالِمًا فَعَفَوْ جَمِيلٌ كَيَّ يَكُونُ لَكَ الْفَضْلُ
فَإِنْ لَمْ أَكُنْ لِلْعَفْوِ مِنْكَ لِسُوءِ مَا أَتَيْتُ بِهِ أَهْلًا فَأَنْتَ لَهُ أَهْلُ

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

هَبْنِي أَسْأْتُ وَكَانَ جُرْمِي مِثْلَ جُرْمِ أَبِي لَهَبٍ
فَأَنَا أَتُوبُ كَمَا أَسَأْتُ تُمْ وَكَمْ أَسْأْتُ فَلَمْ تَتُبْ

وأنشدني مُحَمَّد بن أَبِي علي، أنشدنا الربيعي، عن الأصمعي:

أَتَيْتُكَ تَائِبًا مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ أَخْطَأَ فَتَابَا
أَلَيْسَ اللَّهُ يُسْتَعْفَى فَيَعْفُو وَقَدْ مَلَكَ الْعُقُوبَةُ وَالْثَوَابَا

وأنشدني مُحَمَّد بن إِسْحَاق الواسطي:

عَصَيْتُ وَتُبْتُ كَمَا قَدْ عَصَيْتُ وَتَابَ إِلَيَّ رَبُّهُ آدَمُ
فَقُلْ قَوْلَ يُوسُفَ: لَا تَثْرِبَا لَكُمْ يَغْفِرُ الْغَافِرُ الرَّاحِمُ

أنبأنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحَمَّد بن عبد الله الجزري، عن حميد بن سنان الخالدي - وكان نديمًا لأبي دُلف - قال: دخلت على أبي دُلف يومًا، وبين يديه كتاب وهو يضحك، فقال لي: هذا كتاب عبد الله بن طاهر، وفيه أبيات أحبُّ أن أنشدك إياها، وذلك أنني كنت استبطأته في بعض المؤامرات، فكتبت إليه:

أَرَى وَدُّكُمْ كَالْوَرْدِ لَيْسَ بِدَائِمٍ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَدُومُ لَهُ عَهْدُ
وَوُدِّي بِكُمْ كَالْأَسِّ حُسْنًا وَبَهْجَةً لَهُ نَضْرَةٌ تَبْقَى إِذَا فَنِيَ الْوَرْدُ

فكتب إليَّ بهذه الأبيات:

شَبَّهَتْ وَدِّيَ الْوَرْدَ فَهُوَ مُشَاكِلي وَهَلْ زَهْرٌ إِلَّا وَسَيِّدُهَا الْوَرْدُ
وَشَبَّهَتْ مِنْكَ الْوُدَّ بِالْأَسْرِ فِي الْبَقَا وَلَمْ تُخْلِفِ التَّشْبِيهَ فِيكَ وَلَمْ تَعُدْ
فَوْدُكَ كَالْأَسْرِ الْمَرِيرِ مَذَاقُهُ وَلَيْسَ لَهُ فِي الرِّيحِ قَبْلٌ وَلَا بَعْدُ

أخبرنا عبد الكبير بن عمر الخطابي بـ«البصرة»، حدثنا أبو حاتم السجستاني،
عن الأصمعي قال: حدثنا عيسى بن عمر قال: كان لأبي الأسود الدؤلي صديق،
فرأى منه بعض ما يكره، فقال أبو الأسود:

رَأَيْتُ امْرَأَةً كُنْتُ لَمْ أَبْلُهُ أَنَانِي فَقَالَ اتَّخِذْنِي خَلِيلًا
فَخَالَلتُهُ ثُمَّ صَافَيْتُهُ فَلَمْ يَنْقُصِ الْوُدُّ مِنْهُ فَتِيلًا
فَرَأَجَعْتُهُ ثُمَّ عَاتَبْتُهُ عِتَابًا رَفِيقًا وَقَوْلًا جَمِيلًا
فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ وَلَا ذَاكَ رَأَى اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا
أَلَسْتُ حَقِيقًا بِتَوْدِيعِهِ وَأَتَّبِعُ ذَلِكَ هَجْرًا طَوِيلًا

قال أبو حاتم رحمته الله: الاعتذار يُذهب الهموم، ويُجلي الأحزان، ويدفع الحقد،
ويُذهب الصد، والإقلال منه تُستغرق فيه الجنایات العظيمة والذنوب الكثيرة،
والإكثار منه يؤدي إلى الاتهام وسوء الرأي، فلو لم يكن في اعتذار المرء إلى
أخيه خصلة تُحمد إلا نفي العجب عن النفس في الحال؛ لكان الواجب على
العاقل ألا يفارقه الاعتذار عند كل زلة.

ولقد أنشدني الكريزي:

فَانْظُرْ إِلَيَّ بِطَرْفٍ غَيْرِ ذِي مَرَضٍ فَطَالَ مَا صَحَّ لِي مِنْ طَرْفِكَ النَّظَرُ
أَدْرِكَ بِفَضْلِكَ عَظْمًا كُنْتُ تَجْبُرُهُ وَاجْمَعْ بِرَفْقِكَ مَا قَدْ كَادَ يَنْشُرُهُ

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق،

حدثنا عطاء بن مصعب قال: قدم عبد الرحمن بن عَنبَسَة بن سعيد على معن بن زائدة باليمن، وكانت بينهما عداوة، فلما رآه قال له: يا عبد الرحمن، بأي وجه أتيتني؟ ولأي خير أملتني؟ قال: أصلح الله الأمير! اسمع مني حتى أنشدك بيتين قالهما نَصِيب في عبد العزيز بن مروان، قال: وما هما؟ فأنشده:

وَلَوْ كَانَ فَوْقَ الْأَرْضِ حَيٌّ فِعَالُهُ كَفَعْلِكَ أَوْ لِلْفِعْلِ مِنْكَ مُقَارِبُ
لَقُلْتُ لَهُ هَذَا وَلَكِنْ تَعَذَّرْتُ سِوَاكَ عَلَى الْمُسْتَعْتَبِينَ الْمَذَاهِبُ

فقال: أقم، فإنني لا أواخذك فيما مضى، ولا أعفك فيما بقي.

أنبأنا الخلاذي، حدثنا مُحَمَّد بن موسى السَّمَرِي، عن حماد بن إسحاق، قال ابن السماك لِمحمد بن سليمان -أو حماد بن موسى لِكَاتبه- ورآه كالمعرض عنه: ما لي أراك كالمعرض عني؟ قال: بلغني عنك شيء كرهته، قال: إذن لا أبالي، قال: ولم؟ قال: لأنه إن كان ذنبًا غفرته، وإن كان باطلاً لم تقبله، قال: فعاد إلى المؤانسة.

قال أبو حاتم رحمته الله: قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات في كتاب «مراعاة العشرة» فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

ذكر العث على لزوم كتمان السر

أنبأنا مُحَمَّد بن سليمان بن فارس الدلال، حدثنا مُحَمَّد بن إبراهيم بن سعيد العبدي، حدثنا الهيثم بن أيوب العطار السلمي، حدثنا سهل بن عبد الرحمن، عن مُحَمَّد بن مطرف أبي غسان، عن مُحَمَّد بن المنكدر، عن عروة، عن أبي هريرة رحمته الله قال: قال رسول الله صلوات الله عليه: «اسْتَعِينُوا عَلَى الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ لِكُلِّ نِعْمَةٍ حَاسِدًا».

قال أبو حاتم رحمته الله: هذا إسناد حسن، وطريق غريب، إن كان عروة هذا هو ابن الزبير بن العوام، وسعيد بن سلام ما أرى حفظ حديثه؛ فلذلك تنكبت عن ذكره.

فألواجب علي من سلك سبيل ذوي الحجى: لزوم ما انطوى عليه الضمير
بتركه إبداء المكنون فيه، لا إلى ثقة ولا إلى غيره؛ فإن الدهر لا بد من أن يضرب
ضرباته، فيوقع ضد الوصل بينهما بحالة من الأحوال فيخرجه وجود ضد ما
انطوى عليه قديماً من وفائه إلى صحة الخروج بالكلية إلى جفائه، بإبداء مكنوناته،
والكشف عن مخبأته.

ولقد أنبأنا مُحَمَّد بن عثمان العقبي، حدثني مُحَمَّد بن عبد الكريم
العبدى، حدثنا بكر بن يونس بن بكير، حدثني موسى بن علي، عن أبيه، عن
عمرو بن العاص أنه قال: عجبت من الرجل يفر من القدر، وهو موافقه، ومن
الرجل يرى القذاة في عين أخيه، ويدع الجذع في عينه، ومن الرجل يُخرج
الضغن من موضع ويدع الضغن في نفسه، وما ندمت على أمر قط فلمت نفسي
على تندي عليه، وما وضعت سري عند أحد فلمته على أن يفشي، كيف ألومه
وقد ضقت به؟

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

تُبِيحُ بِسِرِّكَ ضَيْقًا بِهِ وَتَبْغِي لِسِرِّكَ مَنْ يَكْتُمُ
وَكِثْمَانُكَ السَّرِّ مِمَّنْ تَخَافُ وَمَنْ لَا تَخَافُنَّ أَحْزَمُ
إِذَا ذَاعَ سِرُّكَ مِنْ مُخْبِرٍ فَأَنْتَ - وَإِنْ لُمْتَهُ - أَلْوَمُ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان:

إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْمَرْءِ عَنْ بَعْضِ سِرِّهِ فَالْقَاهُ فِي صَدْرِي فَصَدْرِي أَضْيَقُ
وَإِنْ لَأَمْنِي فِي أَنْ أُضَيِّعَ سِرَّهُ وَضَيِّعُهُ قَبْلِي فَذُو السَّرِّ أَخْرَقُ

أخبرنا مُحَمَّد بن المهاجر المعدل، حدثنا أحمد بن مُحَمَّد الصيداوي،
حدثنا حماد بن إسحاق، عن المدائني قال: كان يقال: أصبر الناس الذي لا يفشي
سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شيء فيفشي.

وأنشدني البغدادي:

صُنِ السِّرَّ بِالْكَيْمَانِ يُرْضِيكَ غِبُّهُ فَقَدْ يُظْهِرُ الْمَرْءُ الْمُضِيعُ فَتَنْدُمُ
وَلَا تُلْجِئَنَّ سِرًّا إِلَى غَيْرِ حَرْزِهِ فَيُظْهِرُ حِرْزُ السُّوءِ مَا كُنْتَ تَكْتُمُ

وأنشدني مُحَمَّد بن إِسْحَاق الواسطي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْفَظْ سَرِيرَةَ نَفْسِهِ وَكَانَ لِسِرِّ الْأَخِ غَيْرَ كَثُومِ
فَبُعْدًا لَهُ مِنْ ذِي أَخٍ وَمَوَدَّةٍ وَلَيْسَ عَلَى وَدَّ لَهُ بِمُقِيمِ

قال أبو حاتم رحمته الله: من حصَّن بالكتمان سره تم له تدبيره، وكان له الظفر بما يريد، والسلامة من العيب والضرر، وإن أخطأه التمكن والظفر، فالحازم يجعل سره في وعاء، ويكتمه عن كل مستودع، فإن اضطره الأمر وغلبه؛ أودعه العاقل الناصح له؛ لأن السر أمانة، وإفشاؤه خيانة، والقلب له وعاءه، فمن الأوعية ما يضيق بما يودع، ومنها ما يتسع لما استودع.

وأنشدني الكريزي:

اجْعَلْ لِسِرِّكَ مِنْ فُؤَادِكَ مَنْزِلًا لَا يَسْتَطِيعُ لَهُ اللِّسَانُ دُخُولًا
إِنَّ اللِّسَانَ إِذَا اسْتَطَاعَ إِلَى الَّذِي كَتَمَ الْفُؤَادُ مِنَ الشُّنُونِ وَصُولًا
أَلْفَيْتَ سِرَّكَ فِي الصَّدِيقِ وَغَيْرِهِ مِنْ ذِي الْعَدَاوَةِ فَاشِيًّا مَبْذُولًا

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

سَأَكْتُمُهُ سِرِّي وَأَكْتُمُ سِرَّهُ وَلَا غَرْوَبِي أَنِّي عَلَيْهِ كَرِيمُ
حَلِيمٌ فَيُفْشِي أَوْ جَهُولٌ يَذِيعُهُ وَمَا النَّاسُ إِلَّا جَاهِلٌ وَحَلِيمُ

أخبرني مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا إبراهيم بن الجعيد، حدثني علي بن عيسى، عن مُحَمَّد بن زياد بن الأعرابي قال: كان يقال: العاقل مَنْ حَذَرَ صَدِيقَهُ.

وأنشدني بعض إخواننا:

لَعَمْرُكَ كَيْثَمَانُ الْفَتَى سِرًّا نَوَى
وَأَجْمَلُ مَنْ بَثَّ الْحَدِيثَ مَقَالَةً
أَعَفُّ وَأَذْنَى لِلرَّشَادِ وَأَكْرَمُ
وَأَحْسَنُ فِي الْأَخْلَاقِ دَوْمًا وَأَحْزَمُ

وأنشدني الكريزي:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْفَظْ لِنَفْسِكَ سِرَّهَا
وَيَضْحَكُ فِي وَجْهِي إِذَا مَا لَقِيْتُهُ
فَأَنْتَ إِذَا حَمَلْتَهُ النَّاسَ أَضْيَعُ
وَيَنْهَشُنِي بِالْغَيْبِ سِرًّا وَيَلْسَعُ

قال أبو حاتم رحمه الله: الإفراط في الاسترسال بالأسرار عجز، وما كتبه المرء من عدوه فلا يجب أن يظهر لصديقه، وكفى لذوي الألباب عبرًا ما جربوا، ومن استودع حديثًا فليستر، ولا يكن مهتاكًا، ولا مشياعًا؛ لأن السر إنما سمي سرًّا؛ لأنه لا يُفشي.

فيجب على العاقل: أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره بآلًا يفشيه.

ولقد أنبأنا مُحَمَّدُ بن المهاجر المعدل، حدثنا مُحَمَّدُ بن إسماعيل بن يعقوب الأعمى قال: أنشدني مُحَمَّدُ بن سلام الجمحي لرجل من عبد شمس:

إِذَا مَا ضَاقَ صَدْرُكَ عَنْ حَدِيثٍ
إِذَا عَاتَبْتُ مَنْ أَفْشَى حَدِيثِي
فَأَفْشَاهُ الرَّجَالُ فَمَنْ تَلُومُ
وَسِرِّي عِنْدَهُ فَأَنَا الظَّلُومُ
وَإِنِّي يَوْمَ أَسَامُ حَمَلَ سِرِّي
وَقَدْ ضَمَّتْهُ صَدْرِي سَأُومُ
فَلَسْتُ مُحَدِّثًا سِرِّي خَلِيلِي
وَلَا نَفْسِي إِذَا حَضَرَتْ هُمُومُ
وَأَطْوَى السَّرِّ دُونَ النَّاسِ إِنِّي
لِمَا اسْتُودِعْتُ مِنْ سِرٍّ كَثُومُ

وأنشدني علي بن حيدة الكاتب، قال: أنشدنا عبد الرحمن بن بندار لشیطان

الطاق.

أَمِيتِ السِّرَّ بِكِتْمَانٍ وَلَا يُسْمَعَنَّ مِنْكَ إِذَا اسْتُودِعْتَ سِرًّا
فَإِذَا ضِغَّتْ بِهِ ذُرْعَا فَلَا تَضَعَنَّ سِرَّكَ إِلَّا عِنْدَ حُرِّ
أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ الْقَزَازِ، حَدَّثَنَا الرَّمَادِيُّ، حَدَّثَنَا مَسَدَّدٌ قَالَ: سَمِعْتُ
ابْنَ دَاوُدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الْأَعْمَشَ يَقُولُ: يَضِيقُ صَدْرُ أَحَدِهِمْ بَسْرَهُ، حَتَّى يَحْدُثَ
بِهِ: ثُمَّ يَقُولُ: اكْتَمَهُ عَلَيَّ.

وَأَنْشَدَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَلِيٍّ الظُّفَرِيُّ، أَنْشَدَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ:
لَا يَكْتُمُ السِّرَّ إِلَّا مَنْ لَهُ شَرَفٌ وَالسِّرُّ عِنْدَ كِرَامِ النَّاسِ مَكْتُومٌ
السِّرُّ عِنْدِي فِي بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ ضَلَّتْ مَفَاتِيحُهُ وَالْبَابُ مَخْتُومٌ
أَنْبَأَنَا الْخِلَادِيُّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَجَاعٍ الْبِيَّانِيُّ، قَالَ: أَنْشَدَنَا
عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ:

إِنِّي لَأَنْسَى السِّرَّ كَيْمَا أَصُونُهُ فَيَا مَنْ رَأَى شَيْئًا يُصَانُ بِأَنْ يَنْسَى
مَخَافَةَ أَنْ يَجْرِيَ بِبَالِي ذِكْرُهُ فَيَخْلِسُهُ قَلْبِي إِلَى مَنْطِقِي خَلَسَا
قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمه الله: الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصيل
الأسرار، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم
وأذاعوها، ومن لم يكتم السر استحق الندم، ومن استحق الندم صار ناقص
العقل، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل.
فتحصيل السر للعاقل أولى به من التلief بالندم بعد خروجه منه.

ولقد أحسن الذي يقول:

خَشِيتُ لِسَانِي أَنْ يَكُونَ خَتُونَا فَأَوْدَعْتُهُ قَلْبِي فَكَانَ أَمِينَا
فَقُلْتُ لِيَخْفَى دُونَ شَخْصِي وَنَظِيرِي أَيَا حَرَكَاتِي كُنَّ فِي سَكُونَا
فَمَا أَبْصَرْتُ عَيْنِي لِعَيْنِي عَبْرَةً وَلَا سَمِعْتُ أُذْنَائِي فِي أُنِينَا

لَقَدْ أَحْسَنْتَ أَحْشَايَ تَرْبِيَةَ الْحَجَا فَهَا هُوَ ذَا كَهْلًا وَكَانَ جَنِينًا

وأنشدني عبد الله بن أحمد البغدادي لعبد الله بن المعتز:

عَلَيَّ لِلسَّرِّ حَقٌّ لَا أَضِيعُهُ أَسِيرُ صَدْرِي وَإِنْ أَفْشَاهُ مُودِعُهُ
خَلَى لَهُ مُخَدَعًا قَلْبِي فغَيَّبَهُ حَتَّى نَسِيتُ بِأَنَّ الْقَلْبَ مَخْدَعُهُ
بَلْ أَقْذِفُ السَّرَّ فِي جَوْفِ الضَّمِيرِ فَمَا تَذَرِي خَوَاطِرُ فِكْرِي أَيْنَ مَوْضِعُهُ

أخبرني عمرو بن محمد: ثنا الغلابي، عن ابن عائشة قال:

سمعت أبي يحدث قال: «قيل للأحنف بن قيس: ما أحلمك، قال: ما فعلته إلا
تعلمًا من عمومتي، ولقد قلت ذات يوم لأحدهم: أي عم، ماذا لقيت من ضرر
البارحة؟ فقال: إيها، الآن قد ذهبت عينُ عمك منذ سنة، ما شعر بها أحد».

ذكر المشورة في أوقات الضرورة

أخبرنا الحسن بن سفيان: ثنا أبو بكر بن أبي شيبة: ثنا الأسود بن عامر: ثنا
شريك، عن الأعمش، عن أبي عمرو الشيباني:

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: لا بد لصاحب السرِّ الكاتم له -على ما وصفنا- أن
يضيق صدره، فيستهي إذاعة ما به، فإذا كان كذلك، اختار إفشاءه بالاستشارة مع
الدين العاقل الودود.

ولا يستشير إلا مَنْ وجد فيه الخصال الثلاث التي ذكرنا:

١- فإنه إن لم يكن دينًا، خانه.

٢- وإن لم يكن عاقلًا، أخطأ موضع الإصابت.

٣- وإن لم يكن وادًا، ربما لم ينصحه.

ولقد أنشدني ابن زنجي:

سَائِلُ ذَوِي الْعِلْمِ عَمَّا أَنْتَ جَاهِلُهُ
لَا تَسْتَشِيرَنَّ مَنْ تَخْشَى غَوَائِلَهُ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ إِنْ شَاوَرْتَ بَعْضَهُمْ
إِذَا أَشْرْتَ بِأَمْرٍ أَوْ هَمَمْتَ بِهِ
انْظُرْ بِعَيْنِكَ فِيمَا أَنْتَ شَاهِدُهُ
إِنَّ السُّؤَالَ شِفَاءُ الْعِيِّ وَالْهَذَرُ
وَالْأَحْمَقَ الرَّأْيُ الْغَائِبِي عَنِ الْخَبَرِ
شَاوَرْتَهُ مُشْرِفًا مِنْهُ عَلَى خَطَرٍ
فَالرَّأْيُ: طُولُ اتِّهَامِ النَّاسِ وَالْحَذَرُ
وَأَجْعَلْ فُؤَادَكَ فِيمَا غَابَ لِلنَّظَرِ

أخبرنا عبد الله بن قحطبة: ثنا محمد بن عبد الملك الدقيقي: ثنا الهيثم بن عبيد الصيد: حدثني أبي:

عن الحسن قال: «الناس ثلاثة: رجلٌ تامٌّ، ورجلٌ نصفٌ رجلٌ، ورجلٌ لا شيء؛ فأما التام فله تجربة، ولا يدعُ المشاورة في الأمر، وأما النصف فرجلٌ ليس له رأي، ولا يَقْطَعُ أمرًا حتى يشاور، وأما الذي ليس هو بشيء، فرجلٌ ليس له رأي، ولا يشاور أحدًا».

وأنشدني الأبرش:

إِذَا الْأَمْرُ أَشْكَلُ إِقْبَالُهُ
فَشَاوِرْ بِأَمْرِكَ فِي شِدَّةٍ
وَلَا تُفْشِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْهِ
وَلَمْ تَرَ فِيهِ سَبِيلًا فَسِيحًا
أَخَاكَ [أَخَاكَ] الشَّفِيقَ النَّصِيحًا
فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا

أنبأنا إبراهيم بن إسحاق الأنماطي، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْمَصِصِي، حدثنا ابن عيينة، عن ابن شُبْرَمَةَ، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. قال: ما كان يحتاج إليهم [ﷺ]، ولكن أحب أن يستنَّ به مَنْ بعده.

قال أبو حاتم رحمته الله: المستشار مؤتمن، وليس بضامن، والمستشير متحصن من السقط، متخير للرأي.

والواجب على العاقل السالك سبيل ذوي الحجى: أن يعلم أن المشاورة

تفشي الأسرار، فلا يستشير إلا اللبيب الناصح الودود الفاضل في دينه، وإرشاد
المُشير المستشير قضاء حق النعمة في الرأي، والمشورة لا تخلو من البركة إذا
كانت مع مثل من وصفنا نعتَه.

ولقد أنبأنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة، قال: قال
الحسن ما حزب قومًا قط أمر فاجتمعوا فتشاوروا فيه إلا أرشدهم الله لأصوبه.
وأنشدني الكريزي:

دَبَّرَ إِذَا مَا رُمْتَ أَمْرًا بِفِكْرَةٍ لَتَعْلَمَ مَا تَأْتِي وَمَا تَجَنَّبُ
وَشَاوِرْ نَقِيَّ الرَّأْيِ عِنْدَ التَّبَاسِهِ لِكَيْ يَصِحَّ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ أَصُوبُ
وأنشدني المنتصر بن بلال:

لَا تَسْبِقَنَّ النَّاسَ بِالرَّأْيِ وَاتَّئِدْ فَإِنَّكَ إِنْ تَعَجَّلَ إِلَى الْقَوْلِ تَزُلْ
وَلَكِنْ تَصَفَّحْ رَأْيَ مَنْ كَانَ حَاضِرًا وَقُلْ بَعْدَهُمْ رَسُولًا وَبِالْحَقِّ فَاعْمَلْ

أنبأنا مُحمَّد بن عثمان العقبي، حدثني يحيى بن زيد بن مُحمَّد الأبلي،
حدثني إسماعيل بن حبيب أبو حميد الأبلي، عن عبد الله بن الديلمي، عن وهب
ابن منبه أنه قال: في التوراة أربعة أحرف مكتوبة: من لَمْ يشاور يندم، ومن
استغنى استأثر، والفقر: الموت الأحمر، وكما تدين تُدان.

قال أبو حاتم رحمته الله: لا أنس أنس من استشارة عاقل ودود، ولا وحشة أوحش
من مُخالفته؛ لأن المشاورة والمناظرة بابا بركة ومفتاحا رحمة، من استشير فليشر
بالنصيحة، وليجتهد بالرأي، وليلزم الحق وقصد السبيل، وليجعل المستشير كنفه
بترك الخيانة، وبذل النصيحة، وليكن كما أنشدني علي بن مُحمَّد البسامي:

وَمِنَ الرِّجَالِ إِذَا زَكَتْ أَحْلَامُهُمْ مَنْ يُسْتَشَارُ إِذَا اسْتُشِيرَ فَيُطْرَقُ
حَتَّى يَجُولَ بِكُلِّ وَادٍ قَلْبُهُ فَيَرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ وَيَنْطِقُ

إِنَّ الْحَلِيمَ إِذَا تَفَكَّرَ لَمْ يَكْذُ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْأَوْفَقُ

أنبأنا أبو يعلى، حدثنا غسان بن الربيع، حدثنا ثابت بن يزيد، عن إياس بن دغفل، عن الحسن: أن رسول الله ﷺ قال: «مَا شَاوَرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا هُدُوا إِلَى رُشْدِهِمْ».

أخبرني مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا أحمد بن خالد السيرافي، حدثنا شيبان، حدثنا أبو الأشهب قال: قال الحسن: لا يندم من شاور مرشداً.

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل إذا استشير قوم هو فيهم أن يكون آخر من يشير؛ لأنه أمكن من الفكر، وأبعد من الزلل، وأقرب من الحزم، وأسلم من السقط، ومن استشار فلينفذ الحزم بالألّا يستشير عاجزاً، كما أن الحازم لا يستعين كسلاً، وفي الاستشارة عين الهداية، ومن استشار لم يعدم رشداً، ومن ترك المشاورة لم يعدم غياً، ولا يندم من شاور مرشداً.

ولقد أشدني الواسطي:

الْهَمُّ مَا لَمْ تُمْضِهِ لِسَبِيلِهِ سَقَمُ الْقُلُوبِ وَآفَةُ الْأَبْدَانِ
وَمَعْوَلُ الرَّجُلِ الْمُؤَفَّقِ رَأْيُهُ عِنْدَ اعْتِرَاضِ طَوَارِقِ الْأَحْزَانِ
وَإِذَا الْحَوَادِثُ سَدَّدَتْ أَسْبَابَهُ كَانَ التَّبَصُّرُ أَنْجَدَ الْأَعْوَانِ
وَإِذَا أَضَلَّ سَبِيلَهُ تَذْيِيرُهُ طَلَبَ الْهُدَى بِشَاوِرِ الْإِخْوَانِ

أنبأنا مُحَمَّد بن عثمان العقبى، حدثنا مطروح بن شاكر، حدثنا أصبغ، عن ابن وهب، عن إبراهيم بن نسيط، عن ابن أبي حسين قال: كان يقال: ما هلك امرؤ عن مشورة، ولا سَعِدَ بتوحد.

قال أبو حاتم رحمه الله: إن من شيم العاقل عند النائية تنوّه: أن يشاور عاقلاً ناصحاً ذا رأي ثم يطيعه، وليعترف للحق عند المشورة، ولا يتمادى في الباطل بل يقبل الحق ممن جاء به، ولا يحقر الرأي الجليل إذا أتاه به الرجل الحقير؛ لأن اللؤلؤة الخطيرة لا يشينها قلة خطر غائصها الذي استخرجها، ثم ليستخر الله،

وليمض فيما أشار عليه.

وقد أشدني البغدادي:

أَطِيعِ الْحَلِيمَ إِذَا الْحَلِيمُ عَصَاكَ إِنَّ الْحَلِيمَ إِذَا عَصَاكَ هَذَاكَ
وَإِذَا اسْتَشَارَكَ مَنْ تَوَدُّ فَقُلْ لَهُ: أَطِيعِ الْحَلِيمَ إِذَا الْحَلِيمُ نَهَاكَ
وَلَيْنُ أَبَيْتَ لَتَلْقَيْنَ خِلَافَهُ أَرَبَّا يُحْوَطُكَ أَوْ يَكُونُ هَلَكََا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَنْ تَسُودَ وَلَنْ تَرَى سُبُلَ الرَّشَادِ إِذَا أَطَعْتَ هَوَاكَ

أنبأنا أبو مُحَمَّد عبد الرحمن بن عبد المؤمن بـ«جرجان»، حدثنا مُحَمَّد ابن حميد الرازي، حدثنا جرير، عن ابن المقفع، عن وزير كسرى قال: ثلاثة ليس لهم رأي فلا تستشيروهم: صاحبُ الخفِّ الضيق، وحاقدُ البول، وصاحب المرأةِ السوءِ السليطة... وبالله التوفيق.

ذكر الحث على لزوم النصيحة للمسلمين كافة

أنبأنا الحسين بن مُحَمَّد بن أَبِي معشر بـ«حران»، حدثنا عبد الرحمن بن عمر البجلي، حدثنا زهير بن معاوية، عن سهيل بن أَبِي صالح، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قِيلَ: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَتِهِمْ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم النصيحة للمسلمين كافة، وترك الخيانة لهم بالإضرار والقول والفعل معاً؛ إذ المصطفى ﷺ كان يشترط على من بايعه من أصحابه «النَّصْحُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وأخبرني مُحَمَّد بن أَبِي علي الخلاذي، حدثنا مُحَمَّد بن الحسن الذهلي، عن أَبِي السائب قال: قال علي بن أَبِي طالب رضي الله عنه: «لا تعمل بالخدعة، فإنَّها خلُق اللئام، وامحَض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة، وزُل معه حيث زال».

وأنشدني الكريزي:

قُلْ لِلنَّصِيحِ الَّذِي أَهْدَى نَصِيحَتُهُ سِرًّا إِلَيْنَا وَسَامَتْهُ التَّكَالِيفُ
النُّصْحُ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَتَعْرِفَهُ وَالنُّصْحُ مُسْتَوْحَشٌ مِنْهُ وَمَأْلُوفُ
حَتَّى إِذَا صَرَّحْتَ عَنَّا عَوَاقِبُهُ كَانَتْ لَنَا عِظَةً مِنْهُ وَتَعْنِيفُ
لَوْ كَانَ لِلنُّصْحِ حَدٌّ يُسْتَبَانُ بِهِ مَا نَالْنَا خَسْرَةً مِنْهُ وَتَلْهِيفُ
لَكِنْ لَهُ سُبُلٌ شَتَّى مُخَالَفَةُ بَعْضُ لِبَعْضٍ فَمَجْهُولٌ وَمَعْرُوفُ
وَالنَّاسُ غَاوٍ وَذُو رُشْدٍ وَمُخْتَلِطُ وَالنُّصْحُ مُمَضًى وَمَرْدُودٌ وَمَوْقُوفُ

قال أبو حاتم رحمه الله: خير الإخوان: أشدهم مبالغة في النصيحة، كما أن خير الأعمال: أحملها عاقبة، وأحسنها إخلاصًا، وضرب الناصح خير من تحية الشانيء.

ويجب أن يكون للعاقل نصيحة مبذولة للعامة مكتومًا من العام والخاص ما قدر عليه، وليس الناصح بأولئ بال نصيحة من المنصوح له.

وأنبأنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا مُحمَّد بن عبد الرحمن بن القاسم التيمي، حدثني أبي قال: «لما قدم عليَّ الكوفة لقيه المغيرة بن شعبة، فقال له: إني أشير عليك برأي فأقبله، قال: هات، قال: أقرر معاوية على الشام، يُسمح لك طاعته، فإن أهل الشام قد ذاقوه فاستعذبوه، ووليهم عشرين سنة لم يعيبوا عليه، ولم يُعتبوه في عرض ولا مال، فقال: والله لو سألتني قرية ما وليته إياها، قال: فقال المغيرة: أراه سيكلي أرضين وقرىات».

وأنبأنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ابن المبارك، عن معمر، عن يحيى بن المختار، عن الحسن قال: «إن المؤمن شعبة من المؤمن، وهو مرآة أخيه، إن رأى منه ما لا يعجبه سدَّده وقَّومه ونصحه في السرِّ والعلانية».

وَأُنْشِدْنِي عَلَيَّ بِنِ مُحَمَّدٍ الْبَسَامِي:

أَمِنْتُ عَلَى السِّرِّ أَمْرًا غَيْرَ حَازِمٍ وَلَكِنَّهُ فِي النَّصْحِ غَيْرُ مُرِيبٍ
فَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى كَانَمَا بَعْلَيَاءَ نَارٍ أَوْ قَدْتُ بِثَقُوبٍ
فَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتَبِكِ نَصَحَهُ وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نَصَحَهُ بِلَبِيبٍ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ وَاحِدٍ فَحَقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بَنَصِيبٍ

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ نَصْرِ بْنِ نُوْفَلٍ الْمُرُوزِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ السِّنْجِي يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ: قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «اِثْنَانِ ظَالِمَانِ: رَجُلٌ أَهْدَيْتَ لَهُ النَّصِيحَةَ فَاتَّخَذَهَا ذَنْبًا، وَرَجُلٌ وَسَّعَ لَهُ فِي مَكَانٍ ضَيْقٍ فَجَلَسَ مُتَرَبِّعًا».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: النَّصِيحَةُ مُحَاطَةٌ بِالتَّهْمَةِ، وَلَيْسَتْ إِلَّا لِمَنْ قَبْلَهَا، كَمَا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ إِلَّا لِمَنْ تَرَكَهَا، وَلَا الْآخِرَةُ إِلَّا لِمَنْ طَلَبَهَا، وَلَيْسَ عَلَى كُلِّ ذِي نَصْحٍ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ نَصَحَائِهِ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ لَمْ يَحْمَدْ غَيْبًا رَأَيْهِ، وَمُشَاوَرَةَ الْأَصْمِ أَحْمَدُ مِنَ النَّاصِحِ الْمَعْرُضِ عَنْهُ، وَمَنْ بَذَلَ نَصِيحَةً لِمَنْ لَا يَشْكُرُ كَانَ كَالْبَاذِرِ فِي السَّبَاحِ، وَأَكْثَرُ مَا يُوْجَدُ تَرْكُ قَبُولِ النَّصِيحَةِ مِنَ الْمَعْجَبِ بِرَأْيِهِ. وَأُنْشِدْنِي الْأَبْرَشَ:

إِذَا نَصَحْتَ لِذِي عُجْبٍ لِيُتَرَشِّدَهُ فَلَمْ يُطِعْكَ فَلَا تَنْصَحْ لَهُ أَبَدًا
فَإِنَّ ذَا الْعُجْبِ لَا يُعْطِيكَ طَاعَتَهُ وَلَا يُجِيبُ إِلَيَّ إِرْشَادِهِ أَحَدًا
وَمَا عَلَيْكَ وَإِنْ غَاوِ غَوَى حِقَبًا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ قُرْبَى أَوْ يَكُنْ وَلَدًا

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: النَّصِيحَةُ تَجِبُ عَلَى النَّاسِ كَافَةً عَلَى مَا ذَكَرْنَا قَبْلَ، وَلَكِنْ إِبْدَاؤُهَا لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا سِرًّا؛ لِأَنَّ مِنْ وَعَظَ أَخَاهُ عَلَانِيَةً فَقَدْ شَانَهُ، وَمَنْ وَعَظَهُ سِرًّا فَقَدْ زَانَهُ، فِإِبْلَاغِ الْمَجْهُودِ لِلْمُسْلِمِ فِيمَا يَزِينُ أَخَاهُ أُخْرَى مِنْ الْقَصْدِ فِيمَا يَشِينُهُ.

ولقد أنبأنا مُحَمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا الرمادي، حدثنا علي بن
المديني، حدثنا سفيان قال: قلت: لمِسرَ: «تُحب أن يخبرك رجل بعيوبك؟
قال: أما أن يجيء إنسان فيؤبِّخني بها فلا، وأما أن يجيء ناصح فنعم».

أخبرنا مُحَمَّد بن أبي علي الخلادي، حدثنا مُحَمَّد بن المغيرة النوفلي،
حدثنا مُحَمَّد بن علي الشقيقي، حدثنا أبي، عن ابن المبارك قال: «كان الرجل إذا
رأى من أخيه ما يكره أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره، ويؤجر في
نَهيهِ، فأما اليوم فإذا رأى أحد من أحد ما يكره استغضب أخاه، وهتك ستره».

أخبرنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا أحمد بن منصور، حدثني علي بن
المديني، عن سفيان قال: جاء طلحة إلى عبد الجبار بن وائل -وعنده قوم- فسأره
بشيء، ثم انصرف، فقال: أتدرون ما قال لي؟ قال: رأيتك التفتَ أمس وأنت تصلي».
قال أبو حاتم رحمته الله: النصيحة إذا كانت على نعت ما وصفنا تقيم الألفة،
وتؤدي حق الأخوة.

وعلامة الناصح إذا أراد زين المنصوح له: أن ينصحه سرًا، وعلامة من
أراد شينه: أن ينصحه علانية، فليحذر العاقل نصيحة الأعداء في السر والعلانية.

ولقد أنشدني ابن زنجي البغدادي:

فَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ مُعْلِنٍ لَكَ نُصْحُهُ	عَلَانِيَةً وَالْغِشُّ تَحْتَ الْأَضَالِغِ
وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُرْشِدٍ قَدْ عَصَيْتُهُ	فَكُنْتُ لَهُ فِي الرُّشْدِ غَيْرَ مُطَاوِعِ
وَمَا الْأَمْرُ إِلَّا بِالْعَوَاقِبِ إِنَّهَا	سَيَبْدُو عَلَيْهَا كُلُّ سِرٍّ وَذَائِعِ

وأنشدني منصور بن مُحَمَّد الكريزي:

وَصَاحِبْ غَيْرَ مَأْمُونٍ غَوَائِلُهُ	يُبْدِي لِي النُّصْحَ مِنْهُ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ
عَلَى خِلَافِ الَّذِي يُبْدِي وَيُظْهِرُهُ	وَقَدْ أَحَطْتُ بِعِلْمِي أَنَّهُ دَغْلٌ

عَفَوْتُ عَنْهُ أَنْتَظَرَا أَنْ يَثُوبَ لَهُ عَقْلٌ إِلَيْهِ مِنَ الزَّلَّاتِ يَنْتَقِلُ
 دَهْرًا فَلَمَّا بَدَأَ إِلَيَّ أَنْ شِيمَتْهُ غِشٌّ وَلَيْسَ لَهُ عَنْ ذَاكَ مُنْتَقِلُ
 تَرَكْتُهُ تَرْكَ قَالٍ لَا رُجُوعَ لَهُ إِلَيَّ مَوَدَّتِهِ مَا حَنَّتِ الْإِبِلُ

أخبرنا عبد الله بن مُحَمَّد القيراطي، حدثنا مُحَمَّد بن يزيد -الملقب
 مَحْمَش-، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا أبو حيان، عن أبيه قال: كتب الربيع بن
 خُثيم وصية: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الربيع بن خُثيم، وأشهد
 عليه وكفى بالله شهيدًا وجازيًا لعباده الصالحين مثيبًا، إني رضيت بالله ربًّا،
 وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، وأن نعبد الله -ومن أطاعني- في العابدين،
 ونحمده في الحامدين، وننصح لجماعة المسلمين».

والله المستعان وعليه التكلان.

وصية الخطَّاب بن المعلَّى المخزومي ابنه

أخبرني مُحَمَّد بن المنذر بن سعيد، حدثنا أبو حاتم مُحَمَّد بن إدريس
 الحنظلي، حدثني عبد الرحمن بن أبي عطية الحمصي، عن الخطَّاب بن المعلَّى
 المخزومي القرشي أنه وعظ ابنه، فقال:

«يا بُنَيَّ، عليك بتقوى الله وطاعته، وتجنب مَحَارِمَهُ باتِّباعِ سِنتِهِ ومَعَالِمِهِ
 حَتَّى تَصِحَّ عِيوبُكَ، وتَقَرَّ عَيْنُكَ، فَإِنَّهَا لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ خَافِيَةٌ، وَإِنِّي قَدْ وَسَمْتُ
 لَكَ وَسْمًا، وَوَضَعْتُ لَكَ رَسْمًا، إِنَّ أَنْتَ حَفَظْتَهُ وَوَعَيْتَهُ وَعَمَلْتَ بِهِ مَلَأْتَ أَعْيُنَ
 الْمُلُوكِ، وَانْقَادَ لَكَ بِهِ الصُّعْلُوكُ، وَلَمْ تَزَلْ مَرْتَجِي مُشْرِفًا يُحْتَاجُ إِلَيْكَ، وَيُرْغَبُ
 إِلَيَّ مَا فِي يَدَيْكَ:

فَأَطْعَ أَبَاكَ، وَاقْتَصِرْ عَلَى وَصِيَّةِ أَبِيكَ، وَفَرِّغْ لَذَلِكَ ذَهْنَكَ، وَاشْغُلْ بِهِ
 قَلْبَكَ وَلُبَّكَ، وَإِيَّاكَ وَهْذِرِ الْكَلَامَ، وَكَثْرَةَ الضَّحْكَ وَالْمَزَاحَ، وَمَهَازِلَةَ الْإِخْوَانِ،
 فَإِنَّ ذَلِكَ يَذْهَبُ الْبِهَاءَ، وَيُوقِعُ الشَّحْنَاءَ، وَعَلَيْكَ بِالرِّزَانَةِ وَالتَّوَقُّرِ، مِنْ غَيْرِ كِبَرٍ

يوصف منك، ولا خِيلاء تُحكى عنك، والَقَّ صديقك وعدوك بوجه الرضا، وكفَّ الأذى من غير ذلَّة لَهم، ولا هيبة منهم، وكن في جميع أموركَ في أوسطها؛ فإن خير الأمور أوسطها، وقلل الكلام، وأفش السلام، وامشِ متمكناً قصداً، ولا تخطَّ برجلك، ولا تسحب ذيلك، ولا تلوِّ عُنقك ولا ردائك، ولا تنظر في عطفك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، ولا تتخذ السوق مَجلساً، ولا الحوانيت مُتَحَدِّثاً، ولا تكثر المراء، ولا تنازع السفهاء، فإن تكلمت فاختصر، وإن مزحت فاقتصر، وإذا جلست فتريع، وتحفظ من تشبيك أصابعك وتفقيعها، والعَبَث بلحيتك وخاتمك، وذوابة سيفك وتخليل أسنانك، وإدخال يديك في أنفك، وكثرة طرد الذباب عن وجهك، وكثرة التثاؤب والتمطي، وأشباه ذلك ممَّا يستخفه الناس منك، ويغتمزون به فيك.

وليكن مَجلسك هادياً، وحديثك مقسوماً، وأصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك، بغير إظهار عَجَب منك، ولا مسألة إعادة، وغُضَّ من الفكاهات من المضاحك والحكايات، ولا تُحدث عن إعجابك بولدك، ولا جاريتك، ولا عن فرسك، ولا عن سيفك، وإياك وأحاديث الرؤيا، فإنك إن أظهرت عجباً بشيء منها طمع فيها السفهاء، فوَلَدُوا لَكَ الأحلام، واغتمزوا في عقلك.

ولا تصنع تصنع المرأة، ولا تبدل تبدل العبد، ولا تهلب لحيتك ولا تُبطنها، وتوق كثرة الحف، ونتف الشيب، وكثرة الكحل، والإسراف في الدهن، وليكن كحلِكَ غباً، ولا تلح في الحاجات، ولا تخشع في الطلبات، ولا تُعلم أهلك وولدك -فضلاً عن غيرهم- عدد مالك، فإنَّهم إن رأوه قليلاً هُنتَ عليهم، وإن كان كثيراً لم تبلغ به رضاهم، وأخفهم في غير عُنف، ولين لَهم في غير ضعف، ولا تُهازل أمتك وعبدك.

وإذا خاصمت فتوقرَّ، وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في حُجَّتِكَ، وأرِ الحاكم شيئاً من حلمك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تحفز على

ركبتك، وتوقَّ حمرة الوجه، وعرق الجبين، وإن سَفِه عليك فاحلم، وإذا هو أغضبك فتحلم، وأكرم عرضك، وألق الفضول عنك، وإن قربك سلطان فكن منه على حد السنان، وإن استرسل إليك فلا تأمن من انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهي، ولا يحملنك ما ترى من إطفاه إياك، وخاصته بك أن تدخل بينه وبين أحد من ولده وأهله وحشمه، وإن كان لذلك منك مستمعًا، وللقول منك مطيعًا، فإن سقطت الداخل بين الملك وأهله صرعةً لا تنهض، وزلةً لا تُقال.

وإذا وعدت فحقق، وإذا حدثت فاصدق، ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم، ولا تخافت به كتخافت الأخرس، وتخير محاسن القول بالحديث المقبول، وإذا حدثت بسماع فانسبه إلى أهله، وإياك والأحاديث العابرة المشنعة التي تُنكرها القلوب وتَقِفُ لها الجلود، وإياك ومضعف الكلام مثل: نعم، نعم، ولا، لا، وعجل عجل، وما أشبه ذلك.

وإذا توضأت من الطعام فأجد عَزَكَ كفيك، وليكن وضعك الحُرْض من الأُسْنان في فيك كفعلك بالسواك، ولا تنخع في الطست، وليكن طرحك الماء من فيك مترسلًا، ولا تَمُجَّ فتنضح على أقرب جلسائك، ولا تعض نصف اللقمة، ثم تعيد ما بقي منها منصبغًا، فإن ذلك مكروه، ولا تكثر الاستسقاء على مائدة الملك، ولا تعبت بالمشاش، ولا تعب شيئًا مما يقرب إليك على مائدة بقلة خل أو تابل أو عسل، فإن السحابة قد صيرت لنفسها مهابة.

ولا تمسك إمساك المشبور، ولا تُبذِّر تبذير السفية المغرور، واعرف في مالك واجب الحقوق، وحرمة الصديق، واستغن عن الناس يحتاجوا إليك، واعلم أن الجشع يدعو إلى الطمع، والرغبة كما قيل تدق الرقبة، ورب أكلة تمنع أكالات، والتعفف مال جسيم، وخلق كريم.

ومعرفة الرجل قدره تزيد عِزَّه، ومن تعدى القدر، هوى في بعيد القعر، والصدق زين، والكذب شين، ولصدق يصرع عطب صاحبه أحسن عاقبة من

كذب يسلم عليه قائله، ومعاداة الحليم خير من مصادقة الأحمق، ولزوم الكريم على الهوان خير من صحبة اللئيم على الإحسان، ولقرب ملك جواد، خير من مُجاورة بحر طراد، وزوجة السوء الداء العُضال، ونكاح العجوز يذهب بِماء الوجه، وطاعة النساء تزري بالعقلاء.

تشبه بأهل العقل تكن منهم، وتصنع للشرف تدركه.
واعلم أن كل امرئ حيث وضع نفسه، وإنَّما يُنسب الصانع إلى صناعته، والمرء يُعرف بقرينه، وإياك وإخوان السوء فإنَّهم يَخونون من رافقهم، ويُحزنون من صادقهم، وقربُهم أعدى من الجرب، ورفضهم من استكمال الأدب، واستخفار المستجير لؤم، والعجلة شؤم، وسوء التدبير وهن.

والإخوان اثنان: فمحافظ عليك عند البلاء، وصديق لك في الرخاء، فاحفظ صديق البلاء، وتجنب صديق العافية، فإنَّهم أعدى الأعداء.
ومن اتبع الهوى، مال به إلى الرَّدئ، ولا يعجبك الجَهَم من الرجال، ولا تحقر ضئيلاً كالخلال فإنَّما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانه، ولا ينتفع به بأكثر من أصغريه.

وتوق الفساد، وإن كنت في بلاد الأعادي، ولا تفرش عرضك لمن دونك، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك، ولا تكثر الكلام فتثقل على الأقوام، وامنع البِشْر جليسك، والقبول ممن لا فاك.

وإياك وكثرة التبريق والتزليق، فإن ظاهر ذلك ينسب إلى التأنيث، وإياك والتصنع لمغازلة النساء، وكن متقرباً، متعزّزاً، منتهزاً في فرصتك، رقيقاً في حاجتك، مثبتاً في حملتك، والبس لكل دهر ثيابه، ومع كل قوم شكلهم.

واحذر ما يُلزمك اللائمة في آخرتك، ولا تعجل في أمر حتّى تنظر في عاقبته، ولا ترد حتّى ترى وجه المصدر.

وعليك بالنُّورة في كل شهر مرة، وإياك وحلاق الإبط بالنُّورة، وليكن

السواك من طبيعتك، وإذا استكّت فعرضاً، وعليك بالعمارة، فإنّها أنفع التجارة، وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع، ومنازعتك اللثيم تطمعه فيك، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس، وذم الجاهل إياك أفضل من ثنائه عليك، ومعرفة الحق من أخلاق الصدق، والرفيق الصالح ابن عم، ومن أيسر أُكبر، ومن افتقر احتقر، قصر في المقالة مخافة السامة، والساعي إليك غالب عليك.

وطول السفر ملالة، وكثرة المنى ضلالة، وليس للغائب صديق، ولا على الميت شفيق، وأدب الشيخ عناء، وتأديب الغلام شقاء، والفاحش أمير، والوقاح وزير، والحليم مطية الأحق، والحمق داء لا شفاء له، والحلم خير وزير، والدين أزين الأمور، والسماجة سفاهة، والسكران شيطان، وكلامه هذيان، والشعر من السحر، والتهدد هجر، والشح شقاء، والشجاعة بقاء.

والهدية من الأخلاق السرية، وهي تورث المحبة، ومن ابتدأ المعروف صار ديناً، ومن المعروف ابتداء من غير مسألة، وصاحب الرياء يرجع إلى السخاء، ولرياء بخير خير من معالنة بشر، والعرق نزاع، والعادة طبيعة لازمة: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ومن حل عقداً احتمل حقداً، ومراجعة السلطان خرق بالإنسان، والفرار عار، والتقدم مخاطرة، وأعجل منفعة يسار في دعة، وكثرة العلل من البخل، وشر الرجال: الكثير الاعتلال - يعني: في القول -، وحسن اللقاء: يذهب بالشحناء، ولين الكلام: من أخلاق الكرام.

يا بُني، إن زوجة الرجل سكنه، ولا عيش له مع خلافها، فإذا هممت بنكاح امرأة فسل عن أهلها، فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة. واعلم أن النساء أشد اختلافاً من أصابع الكف، فتوقّ منهن كل ذات بدّا مَجبولة على الأذى.

فمنهن: المعجبة بنفسها، المزرية ببعلها، إن أكرمها رأته لفضلها عليه، لا تشكر على جميل، ولا ترضى منه بقليل، لسانها عليه سيف صقيل، قد كشفت

القُحَّةُ ستر الحياء عن وجهها، فلا تستحي من إعوازاها، ولا تستحي من جارها، كَلْبَةُ
هَرَّارَة، مُهَارِشَة عَقَّارَة، فوجه زوجها مكلوم، وعرضه مشتوم، ولا ترعى عليه لدين
ولا لدنيا، ولا تحفظه لصحبة ولا لكثرة بنين، حجابها مهتوك، وستره منشور، وخيره
مدفون، يصبح كئيِّبًا، ويُمسي عاتِبًا، شرابه مر، وطعامه غيظ، وولده ضياع، وبيته
مستهلك، وثوبه وسخ، ورأسه شعث، إن ضحك فواهن، وإن تكلم فمتكاره، نَهَارُه
ليل، وليله ويل، تلدغه مثل الحية العقارة، وتلسعه مثل العقرب الجرارة.

ومنهن: شَفْشَلِيقُ شَعَشَعُ سَلْفَع، ذات سم مُنْقَع، وإِبراق واختلاق، تَهَب
مع الرياح، وتطير مع كل ذي جناح، إن قال: لا، قالت: نعم، وإن قال: نعم،
قالت: لا، مُولِدَةٌ لمخازيه، مُحْتَقَرَةٌ لِمَا فِي يَدَيْهِ، تضرب له الأمثال، وتقصر به دون
الرجال، وتنقله من حال إِلَى حال، حَتَّى قلا بيته، ومَلَّ ولده، وغث عيشه، وهانت
عليه نفسه، حَتَّى أَنْكَرَهُ إِخْوَانَهُ، ورحمه جيرانه.

ومنهن: الْوَرَهَاءُ الْحَمَقَاءُ، ذات الدَّلَّ فِي غير موضعها، الماضغة للسانها،
الآخذة فِي غير شأنها، قد قنعت بحبه، ورضيت بكسبه، تأكل كالحمار الراتع، تنتشر
الشمس ولَمَّا يُسْمَع لَهَا صوت، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بيت، طعامها بائت، وإناؤها
وَضِرٌّ، وعجينها حامض، وماؤها فاتر، ومتاعها مزروع، وماعونها ممنوع، وخادمها
مضروب، وجارها محروب

ومنهن: الْعَطُوفُ الْوَدُودُ، المباركة الولود، المأمونة على غيبها، المحبوبة
فِي جيرانها، المحمودَة فِي سرها وإعلانها، الكريمة التبعل، الكثيرة التفضل،
الخافضة صوتًا، النظيفة بيتًا، خادمها مسمن، وابنها مزين، وخيرها دائم، وزوجها
ناعم، مرموقة مألوفة، وبالعفاف والخيرات موصوفة.

جعلك الله يا بُنَيَّ ممن يقتدي بالهدى، ويأتم بالتقى، ويجتنب السُّخْطَ،
ويحب الرضا، والله خليفتي عليك، والمتولي لأمرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم، وصلى الله على مُحَمَّدٍ نبي الهدى، وعلى آلِه وسلم تسليمًا كثيرًا.

ذكر الزجر عن تهاجر المسلمين كافة

حدثنا أبو يعلى الموصلي، حدثنا وهب بن بقية الواسطي، حدثنا خالد بن عبد الله، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن الزهري، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ».

قال أبو حاتم رحمته الله: لا يَحِلُّ التباغض، ولا التنافس، ولا التحاسد، ولا التدابر بين المسلمين، والواجب عليهم أن يكونوا إخوانًا كما أمرهم الله ورسوله، فإذا تألم واحد منهم تألم الآخر بألمه، وإذا فرح فرح الآخر بفرحه، و[يجب] نفْي الغش والدغل، مع استسلام الأنفس لله تعالى، مع الرضا بما يوجب القضاء في الأحكام كلها.

ولا يجب الهجران بين المسلمین عند وجود زلة من أحدهما، بل يجب عليهما صرفها إلى الإحسان، والعطف عليه بالإشفاق، وترك الهجران. ولقد حدثني مُحَمَّد بن المهاجر، حدثني موسى بن مُحَمَّد الأُخباري، عن النميري، حدثني مُحَمَّد بن يحيى الكِنَاني قال: أنشدني أبو غزية لمعاوية بن عبد الله ابن جعفر:

لَا يُزْهِدَنَّكَ فِي أَخٍ	لَكَ أَنْ تَرَاهُ زَلَّ زَلَّهُ
وَالْمَرْءُ يَطْرَحُهُ الَّذِي	سَنَ يُلُونَهُ فِي شَرِّ أَلَّةٍ
وَيَخُونُهُ مِنْ مَأْمِنٍ	أَهْلُ الْبِطَانَةِ وَالِدِخْلِهِ
وَالْمَوْتُ أَعْظَمُ حَادِثٍ	مِمَّا يَمُرُّ عَلَى الْجَبِلَةِ

أنشدني مُحَمَّد بن الحسن بن قتيبة، أنشدني حميد بن عياش:

وَلَا تَكُ فِي حُبِّ الْأَخِلَاءِ مُفْرِطًا فَإِنْ أَنْتَ أَبْغَضْتَ الْبَغِيضَ فَأَجْمِلِ

فَإِنَّكَ لَا تَذَرِي مَتَى أَنْتَ مُبْغِضٌ حَبِيبَكَ أَوْ تَهْوَى الْبَغِیْضَ فَاعْقِلِ

وَأُنْشِدْنِي عَمْرُو بْنَ مُحَمَّدٍ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ النَّسَوِي لثَعْلَبِ:

إِنِّي لِأَصْبِرُ مِنْ عَوْدٍ بِهِ جُلْبٌ عِنْدَ الْمُلِمَّاتِ إِلَّا عِنْدَ هَجْرَانِ

وَمَا صُدُودُ ذَوَاتِ الدَّلِّ يُزِمُّنِي لَكِنَّمَا الْمَوْتُ عِنْدِي صَدٌّ إِخْوَانِي

إِذَا رَأَيْتُ أَزُورَارًا مِنْ أَخِي ثَقَةٍ ضَاقَتْ عَلَيَّ بِرُحْبِ الْأَرْضِ أَوْطَانِي

وَأُنْشِدْنِي الْأَبْرَشَ:

ابْلُ الرِّجَالِ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّسَ مَنْ أُمُورَهُمْ وَتَفَقَّدَ

فَإِذَا ظَفِرَتْ بِذِي اللَّبَابَةِ وَالثَّقَى فِيهِ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدْ

فَمَتَى يَزِلُّ - وَلَا مَحَالَةَ - زَلَّةٌ فَعَلَى أَخِيكَ بِفَضْلِ رَأْيِكَ فَارْدُدْ

وَإِذَا الْخَنَى نَقَضَ الْحُبَّ فِي مَجْلِسٍ وَرَأَيْتَ أَهْلَ الطَّيْشِ قَامُوا فَاقْعُدْ

قال أبو حاتم رحمته الله: لا يجب للمرء أن يدخل في جملة العوام والهمج،

بإحداث الود لإخوانه، وتكديره لهم بالخروج بالسبب الذي يؤدي إلى الهجران

الذي نهى المصطفى صلوات الله عليه عنه بينهم، بل يقصد قصد الإغضاء عند ورود الزلات،

ويتحرى ترك المناقشة على الهفوات، ولا سيما إذا قيل في أحدهم الشيء الذي

يحتمل أن يكون حقًا وباطلاً معًا، فإن الناس ليس يخلو وصلهم من رشق أسهم

العدال فيه.

ولقد سمعت مُحَمَّدَ بْنَ عَثْمَانَ الْعَقْبِي يَقُولُ: سمعت عبد العزيز بن عبد

الله يقول: قال مُحَمَّدُ بْنُ حَمِيدٍ:

وَمَنْ ذَا مَنْ عُيُوبِ النَّاسِ نَاجٍ بِحَقِّ قِيلٍ فِيهِ أَوْ قَرَأَ

قَبِيحٌ بِي إِذَا خَالَلتُ خِلًا وَلَا زَمَ خُلَّتِي إِلَّا أَكْفَانِي

وَكُلُّ مَوَدَّةٍ لَا خَيْرَ فِيهَا إِذَا لَمْ تَحْتَمِلْ حَقَّ الْمُصَافِي
فَأَمَّا فِي الْكَلَامِ فَكَمْ وَفِي وَلَكِنْ فِي الشَّدَائِدِ لَا يُوَافِي
إِذَا أَحْبَبْتُ لَمْ أَنْقُضْ إِخَائِي وَلَمْ أَبْنِ الْإِخَاءَ عَلَى اغْتِسَافِ
وَلَكِنْ أَمْنَحُ الْكُرْمَاءَ وَدًّا وَلَا أَدْعُو اللَّئِمَّ إِلَى الْعُطَافِ
مَتَى تَقْطَعْ صَدِيقَكَ بَعْدَ وَضَلِ وَلَا تَثْبُتْ فَعَهْدَكَ غَيْرُ وَافٍ
إِذَا مَا الْمَرْءُ أَدْبَرَ لَمْ تُطِقْهُ وَصَارَ الْمُسْتَقِيمُ إِلَى خِلَافِ

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْذِرِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ:
سَمِعْتُ أَبَا عَمَارَ الْحُسَيْنِ بْنَ حَرْيْثٍ يَقُولُ: قِيلَ لِرَجُلٍ: أَلَيْكَ عَيُوبٌ؟ قَالَ: لَا، قِيلَ
لَهُ: فَلَيْسَ مِنْ يَلْتَمِسُهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا أَكْثَرَ عَيُوبِكَ!

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمه الله: السَّبَبُ الْمُؤَدِّي إِلَى الْهَجْرَانِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءُ:
- إِمَّا وَجُودُ الزَّلَّةِ مِنْ أَخِيهِ - وَلَا مَحَالَةَ يَزِلُ - فَلَا يُغْضِي عَنْهَا، وَلَا يَطْلُبُ
لَهَا ضِدَّهَا.

- وَإِبْلَاجُ وَاشٍ يَقْدَحُ فِيهِ، وَمَشْيُ عَاذِلٍ يَثْلُبُ لَهُ فَيَقْلِبُهُ، وَلَا يَطْلُبُ لَتَكْذِيبِهِ
سَبَبًا، وَلَا لِأَخِيهِ عَذْرًا.

- وَوُرُودُ مَلٍّ بِهِ يَدْخُلُ عَلَى أَحَدِهِمَا، فَإِنَّ الْمُلَاةَ تَوْرَثُ الْقَطْعَ، وَلَا يَكُونُ
لِمَلُولٍ صَدِيقٌ.

وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ الْخَلَادِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْيَعْمَرِيُّ،
حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَصْبَهَانِيُّ قَالَ: أُنْشِدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ:

إِنَّ الْمَلُوءَةَ وَدَّةٌ مِثْلُ السَّرَابِ يُذْمُ وَرْدُهُ
أَوْ كَالسَّحَابِ الزَّائِدِ الْـ جَرَّاقٍ لَمْ يَصْدُقْكَ وَعْدُهُ
أَوْ كَالْحُسَامِ هَزَزَتْهُ عِنْدَ الضَّرَابِ فَكَلَّ حَدُّهُ

لَا تَقْلَبَنَّ إِخَاءَهُ فَوَعِيدُهُ كَذِبٌ وَوَعْدُهُ
بَيْنَنَا يَوْمَ ذِكْرٍ رَأَى عَائِدُ نِكَ إِذْ بَدَأَ لَكَ مِنْهُ صَدُّهُ
وَتَغَيَّرَتْ أَخْلَاقُهُ وَازْوَرَّ حَتَّى مَالَ خَدُّهُ

أنبأنا محمد بن يعقوب الخطيب بـ«الأهواز»، حدثنا معمر بن سهل،
حدثنا إبراهيم بن بشار، عن سفيان قال: كان لابن شُبْرُمَةَ أخ فجفاه، فكتب إليه:
كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتُهُ وَنَحْنُ إِذَا مِثْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا
قال أبو حاتم رحمته الله: لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام،
فمن فعل ذلك كان مرتكباً لنهي النبي ﷺ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، والسابق
بالسلام يكون السابق إلى الجنة، ومن هجر أخاه سنة كان كسفك دمه، ومن مات
وهو مهاجر أخاه دخل النار، إن لم يتفضل الله عليه بعفو عنه ورحمة، وغاية ما
أبيح من الهجران بين المسلمين ثلاثة أيام.

ولقد أنشدني عبيد الله بن مُحَمَّد الأنماطي قال: أنشدني مُحَمَّد بن الحسن
لصديق له:

يَا سَيِّدِي عِنْدَكَ لِي مَظْلَمَةٌ فَاسْتَفْتِ فِيهَا ابْنَ أَبِي حَيْثَمَةَ
فَإِنَّهُ يَرْوِيهِ عَنْ شَيْخِهِ قَالَ: رَوَى الضَّحَّاكُ عَنْ عِكْرِمَةَ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الْمُصْطَفَى نَبِيَّنَا الْمَبْعُوثُ بِالْمَرْحَمَةِ
إِنَّ صُدُودَ الْخِلِّ عَنْ خِلِّهِ فَوْقَ ثَلَاثِ رَبُّنَا حَرَمَةٌ

وأنشدني مُحَمَّد بن شاه الأبيوردي بـ«الموصل» رحمته الله:

مَا وَدَّعَنِي أَحَدٌ إِلَّا بَذَلْتُ لَهُ صَفْوَ الْمَوَدَّةِ مِنِّي آخِرَ الْأَبَدِ
وَلَا جَفَانِي وَإِنْ كُنْتُ الْمُحِبَّ لَهُ إِلَّا دَعَوْتُ لَهُ الرَّحْمَنَ بِالرَّشَدِ

وَلَا اتَّخَذْتُ عَلَى سِرٍّ فَبُحْتُ بِهِ وَلَا مَدَدْتُ إِلَى غَيْرِ الْجَمِيلِ يَدِي
وَلَا أَخُونُ خَلِيلِي فِي حَلِيلَتِهِ حَتَّى أُغَيَّبَ فِي الْأَكْفَانِ وَاللَّحْدِ

أُنَبِّأُنا مُحَمَّدَ بنَ المهاجر، حَدَّثَنَا أحمد بن عبد الله بن شجاع، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ ابن سماعة، قال: جئت يوماً إلى أَبِي علي المصري أُسَلِّمُ عليه، قال: فَبَشَّ بي واحتملني فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ قال:

حَسْبِي بِوَضْلِكَ فِي حَيَاتِي لَذَّةٌ وَرَضِيْتُ ذَلِكَ فِي الْمَعَادِ ثَوَابًا
لَوْ كُنْتُ رِزْقِي مَا أَرَدْتُ زِيَادَةً وَلَقُلْتُ: أَحْسَنَ خَالِقِي وَأَطَابَا

ذكر الحث على لزوم الحلم عند الأذى

أُنَبِّأُنا مُحَمَّدَ بنَ الحسن بن قتيبة، حَدَّثَنَا يزيد بن خالد بن موهب الرملي، حَدَّثَنَا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أَبِي الهيثم، عن أَبِي سعيد رضي الله عنه قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَا حَلِيمَ إِلَّا ذُو عَثْرَةٍ، وَلَا حَكِيمَ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: هذا الخبر فِي الضرب الذي ذكرت فِي كتاب «فصول السنن» بأن العرب تُضيف الاسم إلى الشيء للقرب من التمام، وتنفي الاسم عن الشيء للنقص من الكمال، فلما كان الغالب على المرء ألا يكون حليماً حَتَّى يكون ذا عثرة نفى النَّبِيُّ ﷺ اسم الحليم عنم لَمْ يكن بذي عثرة، لنقصه عن الكمال.

فالحليم عظيم الشأن، رفيع المكان، مَحْمود الأمر، مرضي الفعل. والحلم: اسم يقع على زَمِّ النفس عن الخروج عند الورود عليها ضد ما تُحب إلى ما نُهي عنه.

فالحلم يشتمل على المعرفة والصبر والأناة والتثبت، ولم يقرن شيء إلى شيء أحسن من عفو إلى مقدرة.

والحلم أجمل ما يكون من المقتدر على الانتقام.

ولقد حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي بـ«بغداد»، حدثنا يحيى بن معين قال: حدثنا الحسن بن واقع عن ضمرة قال: «الحلم أرفع من العقل؛ لأن الله -تبارك وتعالى- تسمى به».

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْحِلْمَ زَيْنٌ مُسَوِّدٌ لِصَاحِبِهِ وَالْجَهْلَ لِلْمَرْءِ شَائِنُ
فَكُنْ دَافِنًا لِلشَّرِّ بِالْخَيْرِ تَسْتَرْخُ مِنْ أَلْهَمٍ إِنَّ الْخَيْرَ لِلشَّرِّ دَافِنُ

وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

وَإِذَا شِئْتَ يَوْمًا أَنْ تَسُودَ عَشِيرَةٌ فَبِالْحِلْمِ سُدْ لَا بِالتَّسَرُّعِ وَالشَّتْمِ
وَلِلْحِلْمِ خَيْرٌ فَاعْلَمْ مَغَبَّةً مِنَ الْجَهْلِ إِلَّا أَنْ تَشْمَسَ مِنْ ظُلْمِ

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

فَارْضَ بِمَا حُمَّ مِنْ قَضَاءٍ يُصِيبُكَ مِنْ ذَلِكَ الْخِيَارُ
وَعِشْ حَمِيدًا رَخِيًّا بِالِ مَا زَانَكَ الْحِلْمُ وَالْوَقَارُ

قال أبو حاتم رحمته الله: إن من نفاسة اسم «الحلم» وارتفاع قدره، أن الله -جل وعلا- تسمى به، ثم لم يُسمَّ بالحلم في كتابه أحدًا إلا إبراهيم خليله، وإسحاق ذبيحه، حيث قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. وقال: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلَمِ حَلِيمٍ﴾ [الصفات: ١٠١].

ولو لم يكن في الحلم خصلة تُحمد إلا ترك اكتساب المعاصي، والدخول في المواضع الدنسة؛ لكان الواجب على العاقل ألا يفارق الحلم ما وجد إلى استعماله سبيلًا.

والحلم: سجيّة، أو تجربة، أو هُما.

حدثنا أبو حمزة محمد بن عمر بن يوسف، حدثنا عبد الله بن سعيد الكندي،

حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يقول: «لا حلم إلا بالتجربة».

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

صَافِ الصَّدِيقَ بِوُدِّهِ وَإِذَا دَنَا شَيْبَرًا فَزِدْهُ
وَاحْلُمْ إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَمَنْ يُرِدْ جَهْلًا يَجِدْهُ

أنبأنا مُحَمَّد بن علي الصيرفي بـ«البصرة» حدثنا ابن أبي الشوارب، حدثنا أبو عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن رجاء بن حيوة، عن أبي الدرداء قال: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتوخَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشر يُوقه».

وأنشدني الكريزي:

إِذَا أَنَا كَافَيْتُ الْجَهْلُولَ بِفِعْلِهِ فَهَلْ أَنَا إِلَّا مِثْلُهُ إِذْ أَحَاوَرُهُ
وَلَكِنْ إِذَا مَا طَاشَ بِالْجَهْلِ طَائِشٌ عَلَيَّ فَإِنِّي بِالتَّحْلُمِ قَاهِرُهُ

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، أن رجلاً كتب إلى أخ له: اعلم أن الحلم لباس العلم فلا تعرَّينَّ منه.

قال أبو حاتم رحمه الله: العاقل يلزم الحلم عن الناس كافة، فإن صعب ذلك عليه فليتحالم؛ لأنه يرتقي به إلى درجة الحلم.

وأول الحلم: المعرفة، ثُمَّ التَّثَبُّت، ثُمَّ العزم، ثُمَّ التَّصَبُّر، ثُمَّ الصَّبْر، ثُمَّ الرِّضَا، ثُمَّ الصَّمْتُ والإِغْضَاء، وما الفضل إلا للمحسن إلى المسيء، فأما من أحسن إلى المحسن، وحلم عن كَم يؤذه؛ فليس ذلك بحلم، ولا إحسان.

ولقد أنبأنا مُحَمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا إسحاق بن زكريا، حدثنا عبد الصمد بن حسان، حدثنا أبو عمر المازني، عن وهب بن منبه [أن لقمان]

قال لابنه: يا بُنَيَّ لا تُجادِلن العلماء فتَهوَنَ عليهم فيرفضوك، ولا تُمارِينَّ السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك، فإنه يلحق بالعلماء من صبر ورأى رأيهم، وينجو من السفهاء من صمت وسكت عنهم، ولا تحسبن أنك إذا ماريتَ الفقيه [أجلَّكَ، بل لا تماريه] إلا زدته غيظًا دائبًا عليك، ولا تحمينَّ من قليل تسمعه فيوقعك في كثير تكرهه، ولا تفضح نفسك لتشفي غيظك، فإن جهل عليك جاهل فلينفعنَّ إياك حلمك، وإنك إذا لم تُحسن حتَّى يحسن إليك فما أجرك، وما فضلك على غيرك؟ فإذا أردت الأجر والفضيلة فأحسن إلَيَّ من أساء إلَيْكَ، واعف عمن ظلمك، وانفع من لم ينفعك، وانتظر ثواب ذلك من قِبَل الله، فإن الحسنة الكاملة: [هي] التي لا يريد صاحبها عليها ثوابًا في الدنيا.

وأنشدني مُحَمَّد بن حبيب الواسطي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَصْرِفْ عَذَارًا مِنَ الْأَذَى حَيَاءً وَلَمْ يَغْفِرْ لِأَخْرَقَ مُذْنِبٍ
فَلَنْ يَصْطَنِعَ إِلَّا قَلِيلًا صَدِيقَهُ وَمَنْ يَدْفَعِ الْعَوْرَاءَ بِالْحِلْمِ يَغْلِبِ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

احْفَظْ لِسَانَكَ إِنْ لَقِيتَ مُشَاتِمًا لَا تَجْرِينَ مَعَ اللَّئِيمِ إِذَا جَرَى
مَنْ يَشْتَرِي عِرْضَ اللَّئِيمِ بِعِرْضِهِ يَخْوِي النَّدَامَةَ حِينَ يَقْبِضُ مَا اشْتَرَى

أنبأنا إبراهيم بن نصر العنبري، حدثنا علي بن الأزهر الرازي، حدثنا إبراهيم ابن رستم قال: سمعت ابن المبارك يقول: دعانا عبد الله بن عون إلَيَّ طعامة، فكنا نأكل، فجاءت الخادِمُ ومعها صحيفة فعثرت في ثوبها، فسقطت الصحيفة من يدها، فقال لها ابن عون: مترس آذاذي.

حدثنا عمرو بن مُحَمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة قال: قال مُحَمَّد بن السعدي لابنه عروة كما ولي اليمن: إذا غضبت فانظر إلَيَّ السماء فوقك، وإلَيَّ الأرض تحتك، ثُمَّ عظم خالقهما.

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل إذا غضب واحتدَّ أن يذكر كثرة حلم الله عنه مع تواتر انتهاكه محارمه وتعديه حرمانه، ثمَّ يحلم، ولا يخرج غيظه إلى الدُخول في أسباب المعاصي.

والناس على ضروب ثلاثة: رجل أعزُّ منك، ورجل أنت أعزُّ منه، ورجل ساواك في العز؛ فالتجاهل على من أنت أعزُّ منه لؤم، وعلى من هو أعزُّ منك جَنَفٌ، وعلى من هو مثلك هَرَّاش كهراش الكلبين، ونقار كنقار الديكين، ولا يفترقان إلا عن الخَدَش والعقر والهجر، ولا يكاد يوجد التجاهل وترك التحالم إلا من سفيهين.

ولقد أحسن الذي يقول:

مَا تَمَّ حِلْمٌ وَلَا عِلْمٌ بِلَا أَدَبٍ وَلَا تَجَاهَلٌ فِي قَوْمٍ حَلِيمَانِ
وَمَا التَّجَاهُلُ إِلَّا ثَوْبٌ ذِي دَنَسٍ وَلَيْسَ يَلْبَسُهُ إِلَّا سَفِيهَانِ

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

وَمَا شَيْءٌ أَسْرُّ إِلَى اللَّئِيمِ إِذَا شَتَمَ الْكِرَامَ مِنَ الْجَوَابِ
مُتَارِكَةُ اللَّئِيمِ بِلَا جَوَابٍ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنْ مُرِّ الْعَذَابِ

وأنشدني الكريزي:

تَحَرَّرَ مَا اسْتَطَعَتْ مِنَ السَّفِيهِ بِحُسْنِ الْحِلْمِ إِنَّ الْعِزَّ فِيهِ
فَقَدْ يَعْصِي السَّفِيهِ مُؤَدِّبِيهِ وَيُبْرِمُ بِاللَّجَاجَةِ مُنْصِفِيهِ
تَلِينُ لَهُ فَيَغْلُظُ جَانِبَاهُ كَعِيرِ السُّوءِ يَرْمُحُ عَالِفِيهِ

أنبأنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا الحسن بن مُحَمَّد الأزدي الكوفي، حدثنا عمر بن حفص بن غياث، عن أبيه قال: كنت جالساً عند جعفر بن مُحَمَّد -ورجل يشكو رجلاً عنده- يقول: قال لي كذا، وفعل لي كذا، فقال له جعفر:

مَنْ أَكْرَمَكَ فَأَكْرِمْهُ، وَمَنْ اسْتَخَفَّ بِكَ فَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْهُ.

قال أبو حاتم رحمته الله: مَا ضَمَّ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْ حِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ، وَمَا عَدِمَ شَيْءٌ فِي شَيْءٍ هُوَ أَقْبَحُ مِنْ عَدَمِ الْحِلْمِ فِي الْعَالَمِ، وَلَوْ كَانَ لِلْحِلْمِ أَبْوَانٌ لَكَانَ أَحَدُهُمَا الْعَقْلُ، وَالْآخَرُ الصَّبْرُ، وَرَبَّمَا يُدْفَعُ الْعَاقِلُ فِي الْوَقْتِ بَعْدَ الْوَقْتِ إِلَى مَنْ لَا يُرْضِيهِ عَنْهُ الْحِلْمُ، وَلَا يُقْنَعُهُ عَنْهُ الصَّفْحُ؛ فَحِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى سَفِيهِ يَنْتَصِرُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ تَرَكَ الْحِلْمَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ مِنَ الْحِلْمِ.

ولقد حدثني مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَنَّ رَجُلًا اسْتَطَالَ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى، فَسَكَتَ لَهُ سُلَيْمَانُ وَانْتَصَرَ لَهُ أَخُوهُ، قَالَ: فَقَالَ مَكْحُولٌ: ذَلَّ مَنْ لَا سَفِيهِ لَهُ.

حدثنا عمرو بن مُحَمَّدٍ الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ لَشَيْطَانِ الطَّاقِ: مَا تَقُولُ فِي الْمَتْعَةِ؟ قَالَ: حَلَالٌ، قَالَ: فَيَسْرُكُ أَنْ أَمْلَكَ تَزَوَّجْتَ مَتْعَةً؟ فَسَكَتَ عَنْهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا حَنِيفَةَ، مَا تَقُولُ فِي النَّبِذِ؟ قَالَ: حَلَالٌ. قَالَ: وَشُرْبُهُ وَبَيْعُهُ وَشِرَاؤُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَيَسْرُكُ أَنْ أَمْلَكَ نَبَاذَةً؟ قَالَ: فَسَكَتَ عَنْهُ أَبُو حَنِيفَةَ رحمته الله.

وَأَنشَدَنِي عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَسَامِيُّ:

إِذَا كُنْتَ بَيْنَ الْحِلْمِ وَالْجَهْلِ قَاعِدًا وَخَيْرْتَ أَنِّي شِئْتُ فَالْحِلْمُ أَفْضَلُ
وَلَكِنْ إِذَا أَنْصَفْتَ مَنْ لَيْسَ مُنْصِفًا وَلَمْ يَرْضَ مِنْكَ الْحِلْمُ فَالْجَهْلُ أَفْضَلُ

وَأَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ حَبِيبٍ الْوَاسِطِيُّ:

إِذَا أَمِنَ الْجُهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً فَعِرْضُكَ لِلْجُهَّالِ غُنْمٌ مِنَ الْغُنْمِ
فَعَمَّ عَلَيْهِ الْجَهْلُ وَالْحِلْمُ وَالْقَهْ بِمَرْتَبَةٍ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ وَالسَّلَامِ

فَبَرِّجُوكَ تَارَاتٍ وَيَخْشَاكَ تَارَةً وَتَأْخُذُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بِالْحَزْمِ

حدثنا مُحَمَّد بن عثمان العقبِي، حدثنا إِسحاق بن زكريا، حدثنا يزيد بن عبد الصمد الدمشقي، حدثنا أَبُو مُسهر، حدثنا سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول قال: لا حِلْمَ لِمَن لا جاهلَ له.

وحدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق قال: قال المأمون: يَحْسُنُ بالملوك الحِلْمُ عن كل أحد، إلا عن ثلاثة: قادح في مَلِك، أو مُذيع لسرٍّ، أو متعرض لحُرمة.

قال أبو حاتم رحمته الله: الحِلْمُ على ضربين:

أحدهما: ما يرد على النفس من قضاء الله من المصائب التي امتحن الله بها عباده فيصبر العاقل تحت ورودها، ويحلم عن الخروج إلى ما لا يليق بأهل العقل.

والآخر: ما يرد على النفس بضد ما تشتهي من المخلوقين، فمن تَعَوَّد الحِلْمَ فليس بِمُحتاج إلى التصبر؛ لاستواء العدم والوجود عنده.

كما حدثنا أبو حمزة مُحَمَّد بن عمر بن يوسف ب«نساء»، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، حدثنا عبد الله بن صالح العجلي قال: سمعت ابن أبي عتبة يقول: قيل للأحنف بن قيس التميمي: مِمَّنْ تعلَّمت الحِلْمَ؟ قال: من قيس بن عاصم التميمي، أتاه آتٍ وهو مُحْتَبٍ فقال: ابنُ أخيك قتل ابنك! قال: عصي ربه، وفَتَّ عضده، وقطع رحمه، جهزوه، وما حلَّ حُبوته، فمنه تعلمت الحِلْمَ.

حدثنا مُحَمَّد بن شادل الهاشمي، حدثنا أحمد بن الخليل البغدادي، حدثنا علي بن الحسين بن شقيق، أخبرنا عبد الله، عن جعفر بن سليمان قال: كانت امرأة بالبصرة متعبدة تصيها المصائب، فيذكر من صبرها، حتَّى أصابها مصيبة موجعة، فصبرت، فذكرت ذلك لها، فقالت: ما من مصيبة تصيبني فأذكر معها النار إلا صارت في عيني مثل التراب.

حدثنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي بـ«البصرة»، حدثنا عمرو بن إسحاق بن خلاد الجهمي، حدثنا خالد بن خدّاش، حدثنا ابن وهب، عن بكر بن مُضَرّ قال: كان أبو الهيثم مات ولده، وبقي له بُنَيٌّ صغير، فمات، فأثاه إخوانه يعزّونه وهو في ناحية المسجد، فقال لهم: تركني حُزن يوم القيامة لا آسى على شيء فاتني، ولا أفرح بما أتاني.

حدثنا مُحَمَّد بن إسحاق الثقفي، حدثنا القاسم بن الحسن الزبيدي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، قال: مات ابنٌ لشريح، فلم يصيحوا عليه، ولم يشعر به أحد، ف قيل له: يا أبا آمنة، كيف هو؟ قال: قد سكن عِلْزُهُ، ورجاه أهله، ولم يكن منذ اشتكى أسكن منه الليلة.

ذكر الحث على لزوم الرفق في الأمور وكراهية العجلة فيها

حدثنا مُحَمَّد بن صالح الطبري بـ«الصبيرة»، حدثنا عبد الجبار بن العلاء العطار، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن أبي مليكة، عن يعلى بن مملك، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل لزوم الرفق في الأمور كلها وترك العجلة والخفة فيها؛ إذ الله تعالى يُحب الرفق في الأمور كلها، ومن مُنِعَ الرفق مُنِعَ الخير، كما أن من أعطي الرفق أعطي الخير، ولا يكاد المرء يتمكن من بغيته في سلوك قصده في شيء من الأشياء على حسب الذي يُحبُّ إلا بمقارنة الرفق ومفارقة العجلة.

وأنشدني المتصبر بن بلال الأنصاري:

الرَّفْقُ مِمَّنْ سَيَلَقَى الْيَمْنَ صَاحِبُهُ وَالْخُرْقُ مِنْهُ يَكُونُ الْعُنْفُ وَالزَّلُّ

وَالْحَزْمُ أَنْ يَتَأَنَّى الْمَرْءُ فُرْصَتَهُ وَالْكَفُّ عَنْهَا إِذَا مَا أَمَكَنْتَ فَشَلُّ
وَالْبِرُّ لِلَّهِ خَيْرُ الْأَمْرِ عَاقِبَةً وَاللَّهُ لِلْبِرِّ عَوْنٌ مَالَهُ مَثَلُ
خَيْرُ الْبَرِيَّةِ قَوْلًا خَيْرُهُمْ عَمَلًا لَا يَصْلُحُ الْقَوْلُ حَتَّى يَصْلُحَ الْعَمَلُ

وأنشدني منصور بن مُحَمَّد الكريزي:

الرَّفْقُ أَيْمَنُ شَيْءٍ أَنْتَ تَتَّبِعُهُ وَالْخُرْقُ أَشْأَمُ شَيْءٍ يُقَدِّمُ الرَّجُلَا
وَذُو الثَّغْبِتِ مِنْ حَمْدٍ إِلَى ظَفَرٍ مَنْ يَرْكَبِ الرَّفْقَ لَا يَسْتَحْقِبُ الزَّلَلَا

حدثنا مُحَمَّد بن أَبِي علي الخلافي، حدثنا مُحَمَّد بن خلف البسامي، عن
أحمد بن موسى الأزرق أن ابنه أنشده:

وَزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا يُبْدِي الْعُقُولَ أَوِ الْعُيُوبَ الْمَنْطِقُ
لَا أَلْفَيْنَكَ ثَاوِيًا فِي غُرْبَةٍ إِنَّ الْغَرِيبَ بِكُلِّ سَهْمٍ يُرْشَقُ
لَوْ سَارَ أَلْفٌ مُدَجَّجٌ فِي حَاجَةٍ لَمْ يَقْضِهَا إِلَّا الَّذِي يَتَرَفَّقُ

قال أبو حاتم رحمه الله: العاقل يلزم الرفق في الأوقات، والاعتدال في الحالات؛
لأن الزيادة على المقدار في المبتغى عيب، كما أن النقصان فيما يجب من
المطلوب عجز، وما لم يصلحه الرفق لم يصلحه العنف، ولا دليل أمهر من رفق،
كما لا ظهير أوثق من العقل، ومن الرفق يكون الاحتراز، وفي الاحتراز ترجى
السلامة، وفي ترك الرفق يكون الخرق، وفي لزوم الخرق تخاف الهلكة.

ولقد أنشدني الأبرش:

عَلَيْكَ بِوَجْهِ الْقَصْدِ فَاسْلُكْ سَبِيلَهُ فَفِي الْجَوْرِ إِهْلَاكٌ وَفِي الْقَصْدِ مَسْلُكُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ قَدْرَهَا تَحْمَلُهَا مَا لَا تُطِيقُ فَتَهْلِكُ

قال أبو حاتم رحمه الله: الرفاق لا يكاد يُسبق، كما أن العجل لا يكاد يُلحق، وكما

أن من سكت لا يكاد يندم، كذلك من نطق لا يكاد يسلم، والعَجَل يقول قبل أن يعلم، ويُجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يُجرب، ويذم بعدما يَحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعَجَل تصحبه الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تَكْنِي العَجلة أم الندامات.

ولقد أنشدني بعض أهل العلم:

العَجْزُ ضُرٌّ وَمَا بِالْحَزْمِ مِنْ ضَرَرٍ وَأَحْزَمُ الْحَزْمِ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
لَا تَتْرُكِ الْحَزْمَ فِي أَمْرِ تُحَازِرُهُ فَإِنْ أَمِنْتَ فَمَا بِالْحَزْمِ مِنْ بَاسٍ

أخبرنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب قال: كان يقال: لا يُوجد العَجُولُ مَحْمودًا، ولا الغَضوبُ مسرورًا، ولا الحُرُّ حريصًا، ولا الكريمُ حَسودًا، ولا الشَّرُّ غنيًّا، ولا المَلُولُ ذا إخوان.

وأنشدني مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

إِذَا مَا أَتَيْتَ الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ تَصَعَّبَ حَتَّى لَا تَرَى فِيهِ مُرْتَقَى
وَإِنَّ الَّذِي يَضْطَادُّهُ الْفَخُّ إِنْ عَنَّا عَلَى الْفَخِّ كَانَ الْفَخُّ أَعْتَى وَأَضْيَقَا

قال أبو حاتم رحمته الله: العجلة تكون من الحِدَّة، وصاحب العجلة إن أصاب فرصته لم يكن مَحْمودًا، وإن أخطأها كان مذمومًا، والعَجَل لا يسير إلا مناكبًا للقصْد، مُنحرفًا عن الجادَّة، يلتمس ما هو أنكد وأوعر وأخفى مَسَارًا، يَحْكُمُ حُكْمَ الوَرهاء، ويناسب أخلاق النساء.

ولقد حدثنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق قال: قال خالد بن بَرَمك: من استطاع أن يَمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خَلِيقٌ أَلَّا ينزل به كبير مكروه: العجلة، واللَّجاجة، والعُجب، والتواني، فثمرة العجلة: الندامة، وثمرة اللجاجة: الحيرة، وثمرة العجب: البَغْضة، وثمرة التواني: الذل.

قال أبو حاتم رحمه الله: العجلة مُوَكَّلٌ بِهَا الندم، وما عَجَلَ أحدٌ إلا اكتسب ندامة، واستفاد مِذْمَةً؛ لأن الزلل مع العجل، والإقدام على العمل بعد التأني فيه أحرزٌ من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه، ولا يكون العجول مَحْمُودًا أبدًا، والعاقل يعلم أن العجز في الأمور يقوم في النقص مقام الإفراط في السعي فيتجنبهما معًا، ويجعل لنفسه مسلكًا بينهما.

ولقد حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب، حدثني إبراهيم بن عاصم قال: سمعت صدقة يقول: سمعت الشَّمرَدَل يقول: نكح العجزُ التواني فولد الندامة.

قال أبو حاتم رحمه الله: سبب النجاح: ترك التواني، ودواعي الحرمان: الكسل؛ لأن الكسل عدو المروءة، وعذاب على الفتوة، ومن التواني والعجز أُتِجت الهلكة، وكما أن الأناة بعد الفرصة أعظم الخطأ، كذلك العجلة قبل الإمكان نفس الخطأ، والرشيد من رَشَد عن العجلة، والخائب من خاب عن الأناة، والعجل مُخْطِئٌ أبدًا، كما أن المتثبت مصيبٌ أبدًا.

حدثني مُحَمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا مُحَمَّد بن الحسن المصري، حدثني نعيم بن حماد، حدثنا ابن المبارك، حدثنا معمر قال: كتب عمرو إلى معاوية -يعاتبه في التأني-: «أما بعد، فإن التفهم في الخير زيادة ورشد، وإنه من لا ينفعه الرفق يضره الخرق، ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعاني» -أو قال: المعالي- ولا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حَتَّى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يدرك ذلك إلا بقوة الحِلْم.

وأنشدني مُحَمَّد بن حبيب الواسطي:

بُنِيَ إِذَا مَا سَاكَ الضُّرُّ فَاتَّيْدُ فَلَلرَّفْقُ أَوْلَى بِالْأَرِيْبِ وَأَحْرَزُ
فَلَا تَحْمِينَ عِنْدَ الْأُمُورِ تَعَزُّرًا فَقَدْ يُورِثُ الذَّلَّ الطَّوِيلَ التَّعَزُّرُ

أخبرني مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا إسماعيل بن إسحاق، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد، عن أيوب قال: قال أئثم بن صيفي: ما يسرني أني نزلت بدار معجزة فأسمنت وألبنت، قيل له: لِمَ؟ قال: لأنني أخاف أن أتخذ العجز عادة. وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

وَعَلَيْكَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ صُعُوبَةٌ وَالرَّفْقُ لِلْمُسْتَصْعَبَاتِ مُدَانُ
وَبِحُسْنِ عَقْلِ الْمَرْءِ يَتَبُّتُ حَالُهُ وَعَلَى الْمَغَارِسِ ثَمَرُ الْعِيدَانِ

حدثنا عمرو بن مُحَمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق، عن عبد الله ابن عياش، عن أبيه قال: شهد أعرابي عند معاوية بشهادة، فقال معاوية: كذبت، فقال الأعرابي: إن الكاذب للمُتَزَمِّلِ فِي ثِيَابِكَ، فقال معاوية: هذا جزاء من يعجل.

ذكر الحث على تعلم الأدب ولزوم الفصاحة

حدثنا الحسين بن إدريس الأنصاري، أنبأنا أحمد بن أبي بكر، عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا».

قال أبو حاتم رحمته الله: قد شبه النبي ﷺ فِي هذا الخبر البيان بالسحر؛ إذ الساحر يستميل قلب الناظر إليه بسحره وشعوذته، والفصيح الذَّربُ اللسان يستميل قلوب الناس إليه بحسن فصاحته، ونظم كلامه، فالأنفس تكون إليه تائقة، والأعين إليه راققة.

ولقد حدثنا أبو خليفة، حدثنا أبو مُحَمَّد التوزي النحوي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا حبان بن علي قال: سمعت ابن شُبرمة يقول: ما رأيت لباساً على رجل أحسن من فصاحة، ولا على امرأة [أحسن] من شحم، وإن الرجل ليتكلم فيُعرب، فكأن عليه الخَزَّ الأدكن، وإن الرجل ليتكلم فيلحن فكأن عليه أسملاً، وإن

أحببت أن يصغر في عينك الكبير، ويكبر في عينك الصغير؛ فتعلم النحو.
وأنشدني الكريزي:

أَكْرَمَ بِذِي أَدَبٍ أَكْرَمَ بِذِي حَسَبٍ فَإِنَّمَا الْعِزُّ فِي الْأَحْسَابِ وَالْأَدَبِ
وَالنَّاسُ صِنْفَانِ: ذُو عَقْلٍ وَذُو أَدَبٍ كَمَعْدِنِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالذَّهَبِ
وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ بَيْنِ الْوَرَى هَمَجٌ كَانُوا مَوَالِي أَوْ كَانُوا مِنَ الْعَرَبِ

وأنشدني البسامي:

لَيْسَ الْمُسَوَّدُ مَنْ بِالْمَالِ سُودُهُ بَلِ الْمُسَوَّدُ مَنْ قَدْ سَادَ بِالْأَدَبِ
لَأَنَّ مَنْ سَادَ بِالْأَمْوَالِ سُودُهُ مَا دَامَ فِي جَمْعِ ذَا الْأَمْوَالِ وَالنَّشَبِ
إِنْ قَلَّ يَوْمًا لَهُ مَالٌ يَصِيرُ إِلَى هُونٍ مِنَ الْأَمْرِ فِي ذُلٍّ وَفِي تَعَبِ

قال أبو حاتم رحمته الله: الفصاحة أحسن لباس يلبسه الرجل، وأحسن إزار يتزر به العاقل، والأدب صاحب في الغربة، ومؤنس في القلة، ورفعة في المجالس، وزين في المحافل، وزيادة في العقل، ودليل على المروءة، ومن استفاد الأدب في حديثه انتفع به في كبره؛ لأن من غرس فسيلاً يوشك أن يأكل رطبها، وما يستوي عند أولي النهى، ولا يكون سيان عند ذوي الحجا: رجلان: أحدهما يلحن، والآخر لا يلحن.

وقد حدثنا الحسين بن محمد بن مصعب السمجي، حدثنا أبو داود، حدثنا عبد الله بن بكر بن حبيب، حدثنا أبي، عن سلم بن قتيبة قال: كنت عند ابن هبيرة فجرى الحديث، حتَّى ذكروا العربية، فقال: والله -يا أمير المؤمنين- ما استوى رجلان حسبهما واحد ومروءتهما واحدة، أحدهما يلحن، والآخر لا يلحن، إلا كان أفضلهما في الدنيا والآخرة الذي لا يلحن، قال: فقلت: أصلح الله الأمير! هذا أفضل في الدنيا لفضل فصاحته وعربيته، أرأيت الآخرة ما باله فضل فيها؟

قال: إنه يقرأ كتاب الله على ما أنزل الله - جل وعلا-، والذي يلحن يحمله لحنه على أن يدخل في كتاب الله - جل وعلا- ما ليس فيه، ويُخرج منه ما هو فيه، قال: قلت: صدق الأمير وبرًا!

وأنشدني مُحَمَّد بن عبد الله البغدادي:

أَيُّهَا الطَّالِبُ فَخْرًا بِالنَّسَبِ إِنَّمَا النَّاسُ لِأُمِّ وَلِأَبٍ
هَلْ تَرَاهُمْ خُلِقُوا مِنْ فِضَّةٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ ذَهَبٍ
أَوْ تَرَى فَضْلَهُمْ فِي خَلْقِهِمْ هَلْ سِوَى لَحْمٍ وَعَظْمٍ وَعَصَبٍ
إِنَّمَا الْفَضْلُ بِحِلْمٍ رَاجِحٍ وَبِأَخْلَاقٍ كَرَامٍ وَأَدَبٍ
ذَلِكَ مَنْ فَاخَرَ فِي النَّاسِ بِهِ فَاقَ مَنْ فَاخَرَ مِنْهُمْ وَغَلَبَ

وأنشدني مُحَمَّد بن نصر بن نوفل قال: أنشدني عبد العزيز بن أحمد بن

بكار إمام مسجد مكة:

مَا حُلَّةٌ نُسِجَتْ بِالذَّرِّ وَالذَّهَبِ إِلَّا وَأَحْسَنُ مِنْهَا الْمَرْءُ بِالْأَدَبِ

حدثنا مُحَمَّد بن أَبِي علي الخلافي، حدثنا أحمد بن مُحَمَّد المسروقي،

حدثنا مُحَمَّد بن الحسين البرجلاني، حدثنا أبو عمر العمري، حدثني عبد الله بن

سلمة بن مرداس، عن أبيه قال: قال لي رجل من حكماء الفرس: أقربُ القرابة:

المودة الدائمة، وأفضل ما وَرَثَ الآبَاءُ الأبناء: حسن الأدب.

قال أبو حاتم رحمه الله: أفضل ما وَرَثَ أَبٌ ابْنًا: ثناء حسن وأدب نافع، والخرس

عندي خير من البيان بالكذب، كما أن الحصور خير من العاهر.

فيجب على العاقل: أن يُذَكِّي قلبه بالأدب، كما يذكي النار بالحطب؛ لأن من

لَمْ يَذَكِّ قلبه رَانَ حَتَّى يَسْوَدَّ، ومن تعلَّم الأدب فلا يتخذهُ للمماراة عُدَّةً، ولا للمباراة

ملجأً، ولكن يقصد قصد الانتفاع بنفسه، وليستعين به على ما يقر به إلى بارئه.

ولقد أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

أَدَبُ الْمَرْءِ كُلُّ خَمٍّ وَدَمٍ مَا حَوَاهُ رَجُلٌ إِلَّا صَلَحَ
لَوْ وَزَنْتُمْ رَجُلًا ذَا أَدَبٍ بِاللُّوفِ مِنْ ذَوِي الْجَهْلِ رَجَحَ

أنبأنا أحمد بن بشر الكرجي، حدثنا محمود بن الخطاب، حدثنا رُسْتة
عبد الرحمن بن عمر قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: ما ندمت على
شيء كندامتني أنني لم أنظر في العربية.

سمعت إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضي يقول: سمعت ابن أخي
الأصمعي يقول: سمعت عمي يقول: تعلموا النحو، فإن بني إسرائيل كفروا
بكلمة واحدة، كانت مشددة فخففوها، قال الله: «يا عيسى إني ولدتك». فقرأوا:
«يا عيسى إني ولدتك»، مُخَفَّفَ فكَفَرُوا.

حدثنا الحسين بن إسحاق الأصبهاني، حدثنا أبو أمية، حدثنا عبد الله بن
صالح، حدثنا أبو زيد النحوي قال: جاء رجل إلى الحسن، فقال: ما تقول في
رجل ترك أبيه وأخيه؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه، قال الرجل: فما لأباه
ولأخاه؟ فقال الحسن: فما لأبيه ولأخيه؟ فقال الرجل: كلما تابعتك خالفت.

قال أبو حاتم رحمه الله: لا زينة أحسن من زينة الحسب، كما أن من أجمل
الجمال: استعمال الأدب، ولا حُسْنُ لِمَنْ لَا أَدَبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ
مِمَّنْ لَا حَسَبَ لَهُ يَبْلُغُ بِهِ أَدَبُهُ مَرَاتِبَ أَهْلِ الْأَحْسَابِ؛ لِأَنَّ حَسْنَ الْأَدَبِ خَلْفَ مِنْ
الْحَسَبِ، وَلَيْسَتْ الْفَصَاحَةُ إِلَّا إِصَابَةُ الْمَعْنَى وَالْقَصْدُ، وَلَا الْبَلَاغَةُ إِلَّا تَصْحِيحُ
الْأَقْسَامِ وَاخْتِيَارُ الْكَلَامِ، وَمَنْ أَحْمَدُ الْفَصَاحَةُ: الْإِقْتِدَارُ عِنْدَ الْبِدَاهَةِ، وَالْغَزَارَةُ عِنْدَ
الْإِطَالَةِ، وَأَحْسَنُ الْبَلَاغَةِ: وَضُوحُ الدَّلَالَةِ، وَحَسَنُ الْإِشَارَةِ.

ولقد سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ نَصْرٍ بْنِ نُوْفَلٍ الْمُرُوزِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ
السَّنْجِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الْأَصْمَعِيَّ يَقُولُ: لَيْسَتْ الْبَلَاغَةُ بِخَفَةِ اللِّسَانِ، وَلَا كَثْرَةِ

الهديان، ولكن بإصابة المعنى والقصد إلى الحاجة، وإن أبلغ الكلام ما لم يكن بالقروي المجدّع، ولا البدوي المعرب.

وأنشدني الكريزي:

وَلَمْ أَرِ فَضْلًا تَمَّ إِلَّا بِشِيْمَةٍ وَلَمْ أَرِ عَقْلًا صَحَّ إِلَّا عَلَى أَدَبٍ
وَلَمْ أَرِ فِي الْأَعْدَاءِ حِينَ اخْتَبَرْتُهُمْ عَدُوًّا لِعَقْلِ الْمَرْءِ أَعْدَى مِنَ الْغَضَبِ

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا عبيد الله بن محمد بن حفص العائشي قال: قال المدائني: ذكر عند علي بن عبد الله بن عباس بلاغة رجل من أهله، فقال: إنِّي لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلاً على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله.

قال أبو حاتم رحمته الله: الكلام مثل اللؤلؤ الأزهر، والزبرجد الأخضر، والياقوت الأحمر، إلا أن بعضه أفضل من بعض، ومنه ما يكون مثل الخزف والحجر والتراب والمدّر.

وأحوج الناس إلى لزوم الأدب وتعلم الفصاحة: أهل العلم؛ لكثرة قراءتهم الأحاديث، وخوضهم في أنواع العلوم.

ولقد سمعت مُحمَّد بن نصر بن نوفل يقول: سمعت أبا داود السنجي، يقول: حدثني سهل بن هانئ قال: سمعت الأصمعي يقول: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل فيما قال النبي ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يكن لحائناً، ولم يلحن في حديثه، فمهما رويت عنه، ولحنت فيه كذبت عليه.

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

لَيْسَ الْفَتَى كُلُّ الْفَتَى إِلَّا الْفَتَى فِي أَدَبِهِ
وَبَعْضُ أَخْلَاقِ الْفَتَى أَوْلَى بِهِ مِنْ نَسَبِهِ

حَثَفَ امْرِئٍ لِسَانَهُ فِي جَدِّهِ أَوْ لَعْنِهِ
بَيْنَ اللَّهِ مَقْتَلُهُ رُكِّبَ فِي مُرْكَبِهِ

سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ الْخَطَّابِ بْنِ مَهْرَانَ بِـ«تُسْتَر» يَقُولُ: سَمِعْتُ عِثْمَانَ بْنَ خُرَّازٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْجَعْدِ يَقُولُ: سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ: مِثْلَ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَدِيثَ وَلَا يَعْرِفُ النُّحُوَّ مِثْلَ الدَّابَّةِ عَلَيْهَا الْمَخْلَاةُ، لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ.

ذِكْرُ إِبَاحَةِ جَمْعِ الْمَالِ لِلْقَائِمِ بِحَقْوِهِ

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحُسَيْنِ -ابْنُ بَنْتِ الْحَسَنِ بْنِ عِيسَى بْنِ مَاسَرَجِسَ-، حَدَّثَنَا جَدِّي، حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، أَنْبَأَنَا مُوسَى بْنُ عَلِيٍّ بْنِ رَبَاحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي قَيْسٍ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا عَمْرُو، نِعِمَّا الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذَا الْخَبَرُ يَصْرَحُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِإِبَاحَةِ جَمْعِ الْمَالِ مِنْ حَيْثُ يَجِبُ وَيَحِلُّ لِلْقَائِمِ فِيهِ بِحَقْوِهِ؛ لِأَنَّهُ فِي تَقْرِينِهِ الصَّلَاحَ بِالْمَالِ وَالرَّجُلَ مَعًا بَيَانًا وَاضِحًا بِأَنَّهُ إِنَّمَا أَبَاحَ فِي جَمْعِ الْمَالِ الَّذِي لَا يَكُونُ بِمَحْرَمٍ عَلَى جَامِعِهِ، ثُمَّ يَكُونُ الْجَامِعُ لَهُ قَائِمًا بِحَقْقِ اللَّهِ فِيهِ.

وَلَقَدْ ذَكَرْتُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِتَمَامِهَا بِالْعِلَلِ وَالْحِكَايَاتِ فِي كِتَابِ «الْفَضْلِ بَيْنَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ» بِمَا أَرْجُو الْغِنَى فِيهَا لِمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَى مَعْرِفَتِهَا، فَأَغْنَى ذَلِكَ عَنْ تَكَرُّرِهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ.

وَأُنَشِدُنِي مِنْصُورُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْكَرِيزِيُّ:

إِذَا كَانَ مَا جَمَعْتَ لَيْسَ بِنَافِعٍ فَأَنْتَ وَأَقْصَى النَّاسِ فِيهِ سَوَاءُ
عَلَى أَنَّ هَذَا خَارِجٌ مِنْ آثَامِهِ وَأَنْتَ الَّذِي تُجْزَى بِهِ وَتُسَاءُ

أُنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلِيمَانَ بْنِ فَارَسٍ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الصَّبَاحِ، حَدَّثَنَا أَبُو عِبَادٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سَمِعْتُ مُطَرِّفَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ يُحَدِّثُ عَنْ حَكِيمِ بْنِ قَيْسٍ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَوْصَىٰ بَنِيهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِالْمَالِ وَاصْطِنَاعِهِ فَإِنَّهُ مَنبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ، وَيَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ اللَّئِيمِ، وَإِيَّاكُمْ وَمَسْأَلَةَ النَّاسِ؛ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ مِنْ أَحْسَنَ مَا يَنْتَفِعُ الْمَرْءُ بِهِ فِي عَمَرِهِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ: تَقْوَى اللَّهِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ.

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ: أَنْ يَعْمَلَ فِي شَبَابِهِ فِيمَا يَقِيمُ بِهِ أَوَدَّهُ، كَالشَّيْءِ الَّذِي لَا يَفَارِقُهُ أَبَدًا، وَفِيمَا يَصْلَحُ بِهِ دِينَهُ كَالشَّيْءِ الَّذِي لَا يَجِدُهُ غَدًا، وَلِيَكُن تَعَاهُدُهُ لِمَالِهِ مَا يَصْلَحُ بِهِ مَعَاشُهُ، وَيَصُونَ بِهِ نَفْسَهُ، وَفِي دِينِهِ مَا يَقْدُمُ بِهِ لِآخِرَتِهِ، وَيَرْضَى بِهِ خَالِقَهُ، وَالْفَاقَةَ خَيْرَ مِنَ الْغِنَى بِالْحَرَامِ، وَالْغِنَى الَّذِي لَا مَرْوَةَ لَهُ أَهْوَنُ مِنَ الْكَلْبِ، وَإِنْ هُوَ طُوقٌ وَخُلْخُلٌ.

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَثْمَانَ الْعَقَبِيِّ، حَدَّثَنَا عِمْرَانُ بْنُ مُوسَىٰ بْنِ أَيُّوبَ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنِي عَيْسَىٰ بْنُ يُونُسَ، عَنْ مُحَمَّدَ بْنَ سُوْقَةَ، عَنْ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنَكْدَرِ قَالَ: نَعَمْ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ: الْغِنَى.

وَأُنْشِدَنِي عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَسَامِيُّ:

أَرَى كُلَّ ذِي مَالٍ يَسُودُ بِمَالِهِ وَإِنْ كَانَ لَا أَصْلَ هُنَاكَ وَلَا فَصْلُ
وَأَخْرُ مَنْسُوبًا إِلَى الرَّأْيِ خَامِلًا وَأَنْوَكُ مَجْهُولًا لَهُ الْجَاهُ وَالنُّبْلُ
فَلَا ذَا بِفَضْلِ الرَّأْيِ أَدْرَكَ بُلْغَةً وَلَمْ أَرْ هَذَا ضَرَّةَ النَّوَكِ وَالْجَهْلُ

وَأُنْشِدَنِي مَنْصُورُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْكَرِيزِيُّ لِيَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ:

إِذَا قَلَّ مَالُ الْمَرْءِ قَلَّ بِهَاوُهُ وَضَاقَتْ عَلَيْهِ أَرْضُهُ وَسَمَاوُهُ
وَأَصْبَحَ لَا يَدْرِي وَإِنْ كَانَ حَازِمًا أَقْدَامُهُ خَيْرٌ لَهُ أَمْ وَرَاوُهُ

وَلَمْ يَمْضِ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْأَرْضِ وَاسِعٍ مِنْ النَّاسِ إِلَّا ضَاقَ عَنْهُ فُضَاؤُهُ
وَأَصْبَحَ مَرْدُودًا عَلَيْهِ مَقَالُهُ وَكَانَ بِهِ قَدْ يَقْتَدِي خُطْبَاؤُهُ
وَإِنْ يَبْقَ لَمْ يَضُرُّ عَدُوًّا بَقَاؤُهُ وَإِنْ يَفْنَ لَمْ يُفْقَدْ لِخَيْرٍ فَنَاؤُهُ

حدثني مُحَمَّد بن المهاجر، حدثنا أبو أحمد بن حماد البربري، عن سليمان
ابن أبي شيخ، حدثني الزبيري قال: مر عمر بن الخطاب بِمُحَمَّد بن مَسْلَمَة وهو
يغرس وَدِيًّا. فقال: ما تصنع يا ابن مَسْلَمَة؟ قال: ما ترى، أَسْتَغْنِي عن الناس، كما
قال صاحبكم أُحِيحَة بن الجُلاح:

اسْتَغْنِ أَوْ مُتْ فَلَا يَغْرُزُكَ ذُو نَشَبٍ مِنْ ابْنِ عَمٍّ وَلَا عَمٍّ وَلَا خَالٍ
إِنِّي أَظِلُّ عَلَى الزَّوْرَاءِ أَعْمُرَهَا إِنَّ الْحَبِيبَ إِلَى الْإِخْوَانِ ذُو الْمَالِ

أُنْبَأَنَا مُحَمَّد بن المنذر، حدثنا علي بن عبد الرحمن، عن عبدان قال:
دخلت على عبد الله المبارك، وهو يبكي، فقلت له: ما لك يا أبا عبد الرحمن؟ قال:
بضاعة لي ذهبت، قال: قلت: أوتبكي على المال؟ قال: إِنَّمَا هُوَ قِوَامُ دِينِي.

قال أبو حاتم رحمته الله: إِنْ مِنْ أَسْعَدِ النَّاسِ مَنْ كَانَ فِي غِنَاهُ عَفِيفًا، وَفِي
مَسْكَنَتِهِ قِنَعًا؛ لِأَنَّ مِنْ نَزَلَ بِهِ الْفَقْرَ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ تَرْكِ الْحَيَاءِ، وَالْفَقْرُ يَسْلُبُ
الْعَقْلَ وَالْمَرْوَةَ، وَيُذْهِبُ الْعِلْمَ وَالْأَدَبَ، وَكَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا، وَمَنْ عُرِفَ
بِالْفَقْرِ صَارَ مَعْدَنًا لِلتَّهْمَةِ، وَمَجْمَعًا لِلْبَلَايَا، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَرْزُقَ الْمَرْءَ قَلْبًا نَقِيًّا
قِنَعًا، يَرَى الثَّوَابَ الْمَذْخَرُ مِنَ الضَّجَرِ الشَّدِيدِ، فَحَيْتُذِ لَا يَبَالِي بِالْعَالَمِ بِأَسْرِهِمْ
وَالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَالْفَقْرُ دَاعِيَةٌ إِلَى الْمَهَانَةِ، كَمَا أَنَّ الْغِنَى دَاعِيَةٌ إِلَى الْمَهَابَةِ.

ولقد أحسن الذي يقول:

يُغْطِي عُيُوبَ الْمَرْءِ كَثْرَةُ مَالِهِ وَصُدُقٌ فِيمَا قَالَ وَهُوَ كَذُوبٌ
وَيُزْرِي بِعَقْلِ الْمَرْءِ قَلَّةُ مَالِهِ يُحَمِّقُهُ الْأَقْوَامُ وَهُوَ لَبِيبٌ

أنبأنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحي، حدثنا النمر بن قادم، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب قال: قال لي أبو قلابة: يا أيوب، الزم سوقك؛ فإنك لا تزال كريماً على إخوانك ما لم تحتج إليهم.

وأنشدني العقبي، أنشدني مُحَمَّد بن خلف التيمي بالكوفة:

كَأَنَّ مُقْلًا حِينَ يَغْدُو لِحَاجَةٍ إِلَى كُلِّ مَنْ يَلْقَى مِنَ النَّاسِ مُذْنِبُ
وَكَانَ بَنُو عَمِّي يَقُولُونَ: مَرْحَبًا فَلَمَّا رَأَوْنِي مُعْدِمًا مَاتَ مَرْحَبُ
وأنشدني الكريزي:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَالَ قَدْ يَجْعَلُ الْفَتَى نَسِيبًا وَإِنَّ الْفَقْرَ بِالْمَرْءِ قَدْ يُزْرِي
وَلَا رَفَعَ النَّفْسَ الدَّنِيئَةَ كَالْغَنَى وَلَا وَضَعَ النَّفْسَ الْكَرِيمَةَ كَالْفَقْرِ

حدثنا مُحَمَّد بن يَحْيَى العمي بـ«بغداد»، حدثنا الصلت بن مسعود، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب قال: قال لي أبو قلابة: الزم السوق؛ فإن الغنى من العافية.

قال أبو حاتم رحمه الله: ليس خَلَّةٌ هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب؛ فإن كان الفقير حليماً؛ قيل: بليد، وإن كان عاقلاً، قيل: مكار، وإن كان بليغاً؛ قيل: مهذار، وإن كان ذكياً؛ قيل: حديد، وإن كان صموتاً؛ قيل: عيى، وإن كان متأنياً قيل: جبان، وإن كان عارماً؛ قيل: جريء، وإن كان جواداً؛ قيل: مسرف، وإن كان مقدراً؛ قيل: مُمسك.

وشر المال ما اكتسب من حيث لا يحل، وأنفق فيما لا يجمل، ووجوده وعدمه ليسا بتجلد ولا بكثرة حيلة، ولكنه أقسام ومواهب من الخلاق العليم. ولقد أنشدني الأبرش:

يَشْقَى رِجَالٌ وَيَشْقَى آخَرُونَ بِهِمْ وَيُسْعِدُ اللَّهُ أَقْوَامًا بِأَقْوَامِ
وَلَيْسَ رِزْقُ الْفَتَى مِنْ حُسْنِ حِيلَتِهِ لَكِنْ جُدُودٌ بِأَرْزَاقٍ وَأَقْسَامِ

كَالصَّيْدِ يُحْرَمُهُ الرَّامِي الْمُجِيدُ وَقَدْ يَزْمِي فَيُرْزَقُهُ مَنْ لَيْسَ بِالرَّامِي

حدثني مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا أحمد بن داود بن موسى العطار، حدثنا أحمد بن نصر العدني، حدثنا المندني قال: قال أبو قيس بن معديكرب - وكان له أحد عشر ذَكَرًا -: يا بني، اطلبوا هذا المال أجمل الطلب، واصرفوه في أحسن مذهب، صلوا به الأرحام، واصطنعوا به الأقوام، واجعلوه جُنة لأعراضكم تحسن في الناس قَالَتُكُمْ، فإن جَمعه كمال الأدب، وبذله كمال المروءة، حتَّى إنه لَيُسَوِّد غير السيد، ويقوِّي غير الأيِّد، وحتَّى إنه ليكون في أنفس الناس نبيها، وفي أعينهم مهيبًا، ومن جَمع مالا فلم يَصُنْ عَرْضًا، وَلَمْ يُعْطِ سَائِلًا، بحث الناس عن أصله؛ فإن كان مدخولًا هتكوه، وإن كان صحيحًا نسبوه إما إلى عرض دنية، وإما إلى لَوْصٍ لثيم حتَّى يُهَجَّجَنوه.

حدثني مطهر بن يحيى بن ثابت بـ«واسط»، حدثنا أحمد بن سنان القطان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة قال: «سمع رجل صوتًا في غَمَام: اذهبي إلى أرض فلان فاسقيه، قال: فقال الرجل: لآتين فلانًا هذا فلأنظرن ما يعمل في أرضه، فأتاه وقد مُطر فيها وهو قائم يفتح الأوعي، فسَلَّم عليه وقال: يا عبد الله، أخبرني ما تعمل في أرضك هذه؟ قال: أنظر إلى ما أخرج الله منها، فأرد فيها ثلثه، وأتصدق بثلثه، وأكل أنا وعيالي ثلثه، قال علقمة: فكان ابن مسعود يبعثني إلى أرضٍ له بزاذان أفعل فيها مثل ذلك».

قال أبو حاتم رحمه الله: إن شر المال ما لا يُخرج منه حقوقه، وإن شرًّا منه ما أخذ من غير حلِّه، ومنع منه حقه، وأنفق في غير حله، واستثمار المال قِوام المعاش، ولا بد للمرء من إصلاح ماله، وما ارتفع أحد قط عن إصلاح ماله صالحًا كان أو طالحًا.

ولا يَجِب للعاقل أن يعتمد على مُجاورة نعم الله عنده فلا يقضي منها حقوقها؛ لأن من أساء مُجاورة نِعَم الله أساء مُجاورته، وتحوّلت عنه إلى غيره.

ولقد أنشدني ابن زنجي البغدادي:

فَإِنْ كُنْتَ فِي خَيْرٍ فَلَا تَغْتَرِرْ بِهِ وَلَكِنْ قُلِ اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَتَمِّمْ
فَمَنْ لَمْ يَصُنْ عِرْضًا إِذَا مَا اسْتَفَادَهُ وَيَشْكُرْ لِأَهْلِ الْخَيْرِ يُسَلِّبْ وَيُذَمِّمْ

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، أنشدنا مهدي بن سابق:

وَرَبُّ مُمْلَكٍ مَالًا كَثِيرًا وَلَكِنْ حَظُّهُ مِنْهُ قَلِيلُ
يَعِيشُ بِفَضْلِهِ هَذَا وَهَذَا وَقَدْ سَأَلَتْ بِهِ فِيهِ سُيُولُ
لَهُ مِنْهُ الَّذِي يَخْيَا عَلَيْهِ بَعِيشَتِهِ وَسَائِرُهُ فُضُولُ

حدثنا أحمد بن الحسين الحرازي بـ«الموصل»، حدثنا أحمد بن سنان

القطان، حدثنا كثير بن هشام، عن عيسى بن إبراهيم، عن معاوية بن عبد الله، عن كعب قال: أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه السلام، وقال: لا تصلح المعيشة إلا بهما.

قال أبو حاتم رحمته الله: قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات في كتاب «السخاء والبذل» فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب.

ذكر الحث على إقامة المروءات

حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضي، وعبد الله بن محمود بن سليمان السعدي قالوا: حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله العتكي، حدثنا مسلم بن خالد الزنجي، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «كَرُمُ الرَّجُلِ: دِينُهُ، وَمُرُوَّتُهُ: عَقْلُهُ، وَحَسْبُهُ: خُلُقُهُ».

قال أبو حاتم رحمته الله: صرح النبي ﷺ في هذا الخبر بأن المروءة هي العقل، والعقل: اسم يقع على العلم بسلوك الصواب، واجتناب الخطأ.

فالواجب على العاقل: أن يلزم إقامة المروءة بما قدر عليه من الخصال

المحمودة، وترك الخلال المذمومة.

وقد نبغت نابغةً اتكلوا على آبائهم، واتكلوا على أجدادهم، في الذكر
والمروءات، وتعدّوا عن القيام بإقامتها بأنفسهم.

ولقد أنشدني منصور بن مُحمَّد في ذمِّ من هذا نعتُه:

إِنَّ الْمُرُوءَةَ لَيْسَ يُدْرِكُهَا امْرُؤٌ وَرِثَ الْمُرُوءَةَ عَنْ أَبٍ فَأَضَاعَهَا
أَمَرَتْهُ نَفْسٌ بِالِدَّنَاءَةِ وَالْخَنَا وَنَهَتْهُ عَنْ طَلَبِ الْعُلَا فَأَطَاعَهَا
فَإِذَا أَصَابَ مِنَ الْأُمُورِ عَظِيمَةً يَبْنِي الْكَرِيمُ بِهَا الْمُرُوءَةَ بِأَعْيَانِهَا
وَأَنشَدَنِي مُحمَّد بن إِسحاق:

خَسَاسَةُ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ تَشِينُهُمْ وَقَلَّ غِنَاءٌ عَنْهُمْ النَّسَبُ الْمَحْضُ
يَصُولُونَ بِالْآبَاءِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ وَقَدْ غَيَّبَتْ آبَاءُهُمْ عَنْهُمْ الْأَرْضُ
طَوِيلٌ تَبَدَّى لَهُمْ بِمَجْدِ آبِيهِمْ وَمَا لَهُمْ فِي الْمَجْدِ طَوْلٌ وَلَا عَرْضُ
وَأَنشَدَنِي الْحَسِين بن أَحْمَد البَغْدَادِي:

لَيْسَ الْكَرِيمُ بِمَنْ يُدْنِسُ عِرْضَهُ وَيَرَى مُرُوءَتَهُ تَكُونُ مِمَّنْ مَضَى
حَتَّى يَشِيدَ بِنَاءَهُ بِبَنَانِهِ وَيَزِينَ صَالِحَ مَا أَتَوْهُ بِمَا أَتَى

قال أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَخْسَرَ صَفَقَةً، وَلَا أَظْهَرَ حَسْرَةً، وَلَا أَخْيَبَ
قَصْدًا، وَلَا أَقَلَّ رَشْدًا، وَلَا أَحْمَقَ شَعَارًا، وَلَا أَدْنَسَ دِثَارًا؛ مِنَ الْمَفْتَخِرِ بِالْآبَاءِ
الْكَرَامِ وَأَخْلَاقِهِمُ الْجَسَامِ، مَعَ تَعَرِّيهِ عَنْ سُلُوكِ أَمْثَالِهِمْ، وَقَصْدِ أَشْبَاهِهِمْ، مَتَوَهِّمًا
أَنَّهُمْ ارْتَفَعُوا بِمَنْ قَبْلَهُمْ، وَسَادُوا بِمَنْ تَقَدَّمَ لَهُمْ، وَهِيَهَاتِ! أَتَى يَسُودُ الْمَرْءَ عَلَى
الْحَقِيقَةِ إِلَّا بِنَفْسِهِ؟! وَأَتَى يَنْبُلُ فِي الدَّارَيْنِ إِلَّا بِكَدِّهِ؟

ولقد أنشدني البسامي:

وَكَمْ قَائِلٍ: إِنِّي ابْنُ بَيْتٍ، هُوَ ابْنُهُ
فَأَوْدَى عَمُودَاهُ وَرَثَتْ حِبَالُهُ
وَأُنْشَدَنِي الْأَبْرَشُ:

فَإِنْ قُلْتَ: لِي أَبَاءُ صِدْقٍ وَمَنْصِبٌ
صَدَقْتَ وَلَكِنْ أَنْتَ هَدَمْتَ مَا بَنَوْا
كَرِيمٌ وَإِخْوَانٌ مَضَتْ وَجُدُودُ
بِكَفِّكَ عَمْدًا وَالْبِنَاءُ جَدِيدُ

وَأُنْشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِيُّ:

إِنْ لَمْ تَكُنْ بِفَعَالٍ نَفْسِكَ سَامِيًا
لَيْسَ الْقَدِيمُ عَلَى الْحَدِيثِ بَرَّاجٍ
لَمْ يُغْنِ عَنْكَ سُمُومٌ مَنْ تَسْمُومُ بِهِ
إِنْ لَمْ تَجِدْهُ أَخِذَاً بِنَصِيهِ
وَلَرُبَّمَا اقْتَرَبَ الْبَعِيدُ بِوُدِّهِ
وَعَدَا الْقَرِيبُ مُبَاعِدًا لِقَرِيبِهِ

أُنْبَأَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مَصْعَبِ السَّنْجِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ السَّنْجِيُّ،
حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ الْحَسَنِ قَالَ: لَا دِينَ إِلَّا بِمَرْوَةِ.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي كَيْفِيَةِ الْمَرْوَةِ:

فَمَنْ قَائِلٌ قَالَ: الْمَرْوَةُ ثَلَاثَةٌ: إِكْرَامُ الرَّجُلِ إِخْوَانَ أَبِيهِ، وَإِصْلَاحُ مَالِهِ،
وَقَعُودُهُ عَلَى بَابِ دَارِهِ.

وَمَنْ قَائِلٌ قَالَ: الْمَرْوَةُ: إِتْيَانُ الْحَقِّ، وَتَعَاهُدُ الضَّيْفِ.

وَمَنْ قَائِلٌ قَالَ: الْمَرْوَةُ: تَقْوَى اللَّهِ، وَإِصْلَاحُ الضَّيْعَةِ، وَالْغَدَاءُ وَالْعِشَاءُ فِي
الْأَفْنِيَةِ.

وَمَنْ قَائِلٌ قَالَ: الْمَرْوَةُ: إِنْصَافُ الرَّجُلِ مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَالسَّمُوعُ إِلَى مَنْ هُوَ
فَوْقَهُ، وَالْجِزَاءُ بِمَا أُتِيَ إِلَيْهِ.

وَمَنْ قَائِلٌ قَالَ: مَرْوَةُ الرَّجُلِ: صِدْقُ لِسَانِهِ، وَاحْتِمَالُهُ عَثَرَاتِ جِيرَانِهِ،
وَبَذْلُهُ الْمَعْرُوفَ لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَكَفُّهُ الْأَذَى عَنْ أَبَاعِدِهِ وَجِيرَانِهِ.

ومن قائل قال: إن المروءة: التباعد من الخلق الدني فقط.

ومن قائل قال: المروءة: أن يعتزل الرجل الريبة؛ فإنه إذا كان مريبًا كان ذليلاً، وأن يصلح ماله؛ فإن من أفسد ماله لم يكن له مروءة، والإبقاء على نفسه في مطعمه ومشربه.

ومن قائل قال: المروءة: حسن العشرة، وحفظ الفرج واللسان، وترك المرء ما يُعاب منه.

ومن قائل قال: المروءة: سَخَاوة النفس، وحسن الخلق.

ومن قائل قال: المروءة العفة والحرفة، أي: يعفُّ عما حرم الله، ويحترِف فيما أحل الله.

ومن قائل قال: المروءة: كثرة المال والولد.

ومن قائل قال: المروءة: إذا أُعْطِيَتْ شُكْرَتْ، وإذا ابْتُلِيَتْ صَبِرَتْ، وإذا قُدِرَتْ غَفِرَتْ، وإذا وُعِدَتْ أُنْجِزَتْ.

ومن قائل قال: المروءة: حسن الحيلة في المطالبة، ورقة الظُّرف في المكاتبه.

ومن قائل قال: المروءة: اللطافة في الأمور، وجودة الفطنة.

ومن قائل قال: المروءة: مُجَانِبَةُ الرِّيبَةِ؛ فإنه لا يَنْبُلُ مَرِيبٌ، وإِصْلَاحُ الْمَالِ؛ فإنه لا يَنْبُلُ فَقِيرٌ، وَقِيَامُهُ بِحَوَائِجِ أَهْلِ بَيْتِهِ؛ فإنه لا يَنْبُلُ مَنْ أَحْتَاجُ أَهْلُ بَيْتِهِ إِلَى غَيْرِهِ.

ومن قائل قال: المروءة: النظافة، وطيب الرائحة.

ومن قائل قال: المروءة: الفصاحة والسماحة.

ومن قائل قال: المروءة: طلب السلامة، واستعطاف الناس.

ومن قائل قال: المروءة: مراعاة العهود، والوفاء بالعقود.

ومن قائل قال: المروءة: التذلل للأحباب بالتملق، ومداواة الأعداء بالرفق.

ومن قائل قال: المروءة: ملاحاة الحركة، ورقة الطبع.

ومن قائل قال: المروءة: هي المفاكهة، والمباسمة.

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا مسلم بن عبيد الله

أبو فراس قال: قال ربيعة: المروءة مروءتان: فللسفر مروءة، وللحضر مروءة.

فأما مروءة السفر: فبذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة

المزاح في غير مساخط الله.

وأما مروءة الحضر: فالإدمان إلى المساجد، وكثرة الإخوان في الله،

وقراءة القرآن.

قال أبو حاتم رحمته الله: اختلفت ألفاظهم في كيفية المروءة، ومعاني ما قالوا

قريبة بعضها من بعض.

والمروءة عندي خصلتان: اجتناب ما يكره الله والمسلمون من الفعال،

واستعمال ما يحب الله ورسوله من الخصال.

وهاتان الخصلتان يأتيان على ما ذكرنا قبل من اختلافهم، واستعمالهما

هو العقل نفسه، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مُرُوءَةَ الْمَرْءِ عَقْلُهُ».

ومن أحسن ما يستعين به المرء على إقامة مروءته: المال الصالح.

ولقد أنشدني منصور بن محمد الكريزي:

اِحْتَلَّ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْمُخْتَالُ فَمِنْ الْمُرُوءَةِ أَنْ يُرَى لَكَ مَالٌ

كَمْ نَاطِقٍ وَسَطَ الرِّجَالِ وَإِنَّمَا عَنْهُمْ هُنَاكَ تَكَلَّمَ الْأَمْوَالُ

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل أن يقيم مروءته بما قدر عليه،

ولا سبيل إلى إقامة مروءته إلا باليسار من المال، فمن رزق ذلك وضمن بإنفاقه

في إقامة مروءته فهو الذي خسر الدنيا والآخرة، ولا آمن أن تفجأه المنية فتسلبه

عما ملك كريهاً، وتودعه قبراً وحيداً، ثم يرث المال بعده من يأكله ولا يحمده،

وينفقه ولا يشكره، فأى ندامة تشبه هذه؟ وأي حسرة تزيد عليها؟

ولقد أنشدني مُحَمَّد بن عبد الله البغدادي:

يَا جَامِعَ الْمَالِ فِي الدُّنْيَا لَوَارِثِهِ هَلْ أَنْتَ بِالْمَالِ قَبْلَ الْمَوْتِ مُنْتَفِعُ
قَدِّمَ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ فِي مَهَلٍ فَإِنَّ حَظَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُنْقَطِعُ

أنبأنا المفضل بن مُحَمَّد الجندي بـ«مكة»، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الطبري، حدثنا أزهري، عن ابن عون، عن ابن سيرين قال: ثلاثة ليست من المروءة: الأكل في الأسواق، والادّهان عند العطار، والنظر في مرآة الحجام.

حدثنا مُحَمَّد بن إسحاق الثقفي، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، حدثنا هُشيم، عن المغيرة، عن الشعبي قال: ليس من المروءة النظر في مرآة الحجام. حدثنا مُحَمَّد بن يحيى بن الحسن العمي بـ«بغداد»، حدثنا الصلت بن مسعود، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب قال: سمعت أبا قلابة يقول: ليس من المروءة أن يريح الرجل على صديقه.

وأنشدني البسامي:

اعْلَمْ بِأَنَّكَ - لَا أَبَا لَكَ - فِي الَّذِي أَصْبَحْتَ تَجْمَعُهُ لِفَيْرِكَ خَازِنُ
إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَا تُؤَامِرُ مَنْ أَتَتْ فِي نَفْسِهِ يَوْمًا وَلَا تَسْتَأْذِنُ

أنبأنا عمرو بن مُحَمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة، عن أبيه قال: كان يقال: مُجالسة أهل الديانة تجلو عن القلب صدأ الذنوب، ومُجالسة ذوي المروءات تدل على مكارم الأخلاق، ومُجالسة العلماء تذكى القلوب.

حدثني مُحَمَّد بن أبي علي الخلادي، حدثنا أبو أحمد بن حماد البربري، عن سليمان بن أبي شيخ، حدثنا مُحَمَّد بن الحكم، عن أبي عوانة قال: قال معاوية بن أبي سفيان: آفة المروءة: إخوان السوء.

قال أبو حاتم رحمته الله: والواجب على العاقل تفقد الأسباب المستحقرة عند

العوام من نفسه حتَّى لا يَثْلَمَ مروءته؛ فإنَّ المحقرات من ضدَّ المروءات، تؤذي الكامل في الحال بالرجوع في القهقري إلى مراتب العوام وأوباش الناس.

ولقد حدثنا جعفر بن مُحمَّد الهمداني بـ«صور» قال: سمعت طلحة بن إسحاق بن يعقوب قال: سمعت موسى بن إسحاق الأنصاري يقول: سمعت علي بن حكيم الأودي يقول: سمعت شريكًا يقول: ذل الدنيا خمسة: دخول الحمام سَحَرًا بلا كرنيب، وعبور المعبر بلا قطعة، وحضور مجلس العلم بلا نسخة، وحاجة الشريف إلى الدني، وحاجة الرجل إلى امرأته.

حدثنا أبو سعيد الحسن بن أحمد الإصطخري، حدثنا عبد الرحمن بن مُحمَّد بن منصور، حدثنا مُحمَّد بن عبد العزيز الرملي، حدثنا رشدين بن سعد، حدثنا طلحة ابن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من قلة مروءة الرجل نظره في بيت الحائك، وحمله الفلوس في كمّه».

ذكر الحث على لزوم السخاء ومجانبة البخل

أنبأنا أحمد بن يحيى بن زهير بـ«تُسْتَر»، حدثنا الحسن بن عرفة بن يزيد العبدى، حدثنا سعيد بن محمد الوراق، حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِّنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِّنَ النَّاسِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِّنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِّنَ النَّاسِ، وَلَسَخِيٌّ جَاهِلٌ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِّنْ بَخِيلٍ عَابِدٍ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إن كان حفظ سعيد بن مُحمَّد إسناده هذا الخبر فهو غريبٌ غريب.

فالواجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى من حُطام هذه الدنيا الفانية، وعلم زوالها عنه، وانقلابها إلى غيره، وأنه لا ينفعه في الآخرة إلا ما قدَّم من الأعمال الصالحة: أن يبلغ مجهوده في أداء الحقوق في ماله، والقيام بالواجب في أسبابه، مبتغيًا بذلك الثواب في العقبى، والذكر الجميل في الدنيا؛ إذ السخاء محبة

وَمَحْمَدَةٌ كَمَا أَنَّ الْبُخْلَ مَذْمُومَةٌ وَمُبْغَضَةٌ، وَلَا خَيْرَ فِي الْمَالِ إِلَّا مَعَ الْجُودِ، كَمَا لَا خَيْرَ فِي الْمَنْطِقِ إِلَّا مَعَ الْمَخْبَرِ.

وَلَقَدْ أَنْشَدَنِي الْمُتَنَصِّرُ بْنُ بِلَالٍ الْأَنْصَارِيُّ:

الْجُودُ مَكْرُمَةٌ وَالْبُخْلُ مَنْقَصَةٌ لَا يَسْتَوِي الْبُخْلُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْجُودُ
وَالْفَقْرُ فِيهِ شُخُوصٌ وَالْغِنَى دَعَةٌ وَالنَّاسُ فِي الْمَالِ مَرْزُوقٌ وَمَحْدُودٌ

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ الْخَلَادِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الذَّهَلِيُّ،
حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ السَّدُوسِيُّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ الْقُتَيْمِيُّ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ
مَوْلَى عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ عَلِيٍّ: أَنَّ الْمَنْصُورَ -أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ- قَالَ لِابْنِهِ الْمَهْدِيِّ:
«اعْلَمْ أَنَّ رِضَاءَ النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، فَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِالْإِحْسَانِ جَهْدَكَ، وَتَوَدَّدَ
إِلَيْهِمْ بِالْإِفْضَالِ، وَاقْصِدْ بِإِفْضَالِكَ مَوْضِعَ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ».

وَأَنْشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْوَاسِطِيُّ:

أَعَادِلْتَنِي الْيَوْمَ وَيَحْكُمَا مَهْلًا وَكُفَّا الْأَذَى عَنِّي وَلَا تُكْثِرَا الْعَذْلَا
دَعَانِي تَجِدُ كَفِّي بِمَا مَلَكَتْ يَدِي سَأُصْبِحُ يَوْمًا أَتْرُكُ الْجُودَ وَالْبُخْلَا
إِذَا وَضَعُوا فَوْقَ الضَّرِيحِ جَنَادِلًا عَلَيَّ وَخَلَفْتُ الْمَطِيَّةَ وَالرَّحْلَا
فَلَا أَنَا مُجْتَازٌ إِذَا مَا نَزَلْتُهُ وَلَا أَنَا لَاقٍ مَأْثُومٌ بِهِ أَهْلَا

أَنْبَأَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْأَنْطَاطِيُّ، حَدَّثَنَا لُؤَيْنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ
هَشَامِ بْنِ عُرْوَةَ قَالَ: كَانَ أَبِي يَقُولُ: «[مَا نَقَصَ] مَالِ قَوْمٍ قَطُّ أَقَامُوا عَلَى مَا عَذَبَ».

حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا الْغَلَابِيُّ، حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ عَامِرٍ الْغَزَّيُّ، حَدَّثَنَا
هَشَامُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام قَالَ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مِنْكُمْ مَالًا
فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ فِيهِ الضِّيَافَةَ، وَلْيُفِكْ فِيهِ الْعَانِي وَالْأَسِيرَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالْمَسَاكِينَ وَالْفُقَرَاءَ وَالْمُجَاهِدِينَ، وَلْيَصْبِرْ فِيهِ عَلَى النَّائِبَةِ؛ فَإِنَّ بِهَذِهِ الْخِصَالَ

ينال كرم الدنيا وشرف الآخرة».

قال أبو حاتم رحمه الله: أجود الجود من جاد بماله، وصان نفسه عن مال غيره، ومن جاد ساد، كما أن من بخل ذل.

والجود حارس الأعراض، كما أن العفو زكاة العقل، ومن أتم الجود أن يتعرى عن المنّة؛ لأن من لم يمتن بمعروفه فقد وفره، والامتنان يهدم الصنائع، وإذا تعرّت الصنعة عن إزار له طرفان: أحدهما الامتنان، والآخر طلب الجزاء؛ كان من أعظم الجود، وهو الجود على الحقيقة.

ولقد أنشدني ابن زنجي:

يَا رَبَّ عَاذِلَةٍ فِي الْجُودِ قُلْتُ لَهَا: أَقْلِي عَلَى اللَّهِ فِيمَا أَنْفَقُ الْخُلْفَا
هَلْ مِنْ بَخِيلٍ رَأَيْتِ الْبُخْلَ أَخْلَدَهُ أَمْ هَلْ رَأَيْتِ جَوَادًا مَيِّتًا عَجَفَا
لَمَّا رَأَتْنِي أُوتِيَ الْمَالُ طَالِبُهُ وَلَا أَبَالِي تِلَادًا كَانَ أَمْ طُرْفَا
عَدْتُ سَمَاحِي تَبْذِيرًا وَلَسْتُ أَرَى مَا يَكْسِبُ الْحَمْدَ تَبْذِيرًا وَلَا سَرَفَا

أنبأنا الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسى قال: قسّم ابن المبارك يوماً بين إخوانه وأصحاب الحديث ألف درهم، ثم أنشأ يقول:

لَا خَيْرَ فِي الْمَالِ لِكَنَازِهِ إِلَّا جَوَادَ الْكَفِّ وَهَابِهِ
يَفْعَلُ أَخِيَانًا بِزُورِهِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ بِشُرَابِهِ

حدثنا مُحَمَّد بن عثمان العقبي، حدثنا الحسين بن مُحَمَّد، عن ابن السماك،

قال: يا عجبني لمن يشتري المماليك بالثمن، ولا يشتري الأحرار بالمعروف.

قال أبو حاتم رحمه الله: إن من أحسن خصال المرء الجود من غير امتنان ولا طلب

ثواب، والحلم من غير ضعف ولا مهانة.

وأصل الجود ترك الضنّ بالحقوق عن أهلها، كما أن أصل تربية الجسد

أَلَّا يَحْمِلَ عَلَيْهِ فِي الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالْبَاهِ، فَكَمَا لَا تَنْفَعُ الْمَرْوَةُ بغيرِ تَوَاضَعٍ،
وَلَا الْحَفِظُ بغيرِ كَفَايَةٍ، كَذَلِكَ لَا يَنْفَعُ الْعَيْشُ بغيرِ مَالٍ، وَلَا الْمَالُ بغيرِ جُودٍ،
وَكَمَا أَنَّ الْقَرَابَةَ تَبِعَ لِلْمُودَةِ، كَذَلِكَ الْمُحَمَّدَةُ تَبِعَ لِلْإِنْفَاقِ.

أَنْبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، حَدَّثَنَا الْمُبَارَكُ
ابْنُ سَعِيدٍ الثَّوْرِيُّ قَالَ: كَانَ يَقَالُ: ثَلَاثٌ هُنَّ أَحْسَنُ شَيْءٍ فِيمَنْ وَجَدَتْ فِيهِ: تَوَدُّةٌ
فِي غَيْرِ ذَلِّ، وَجُودٌ لغيرِ ثَوَابٍ، وَنَصَبٌ لغيرِ الدُّنْيَا.

حَدَّثَنَا أَبُو يَعْلَى بِ«الْمَوْصِلِ»، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ الدُّوْلَابِيُّ، حَدَّثَنَا
إِسْمَاعِيلُ بْنُ زَكْرِيَّا عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ:
«الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»؟ قَالَ: يَدُ الْمُعْطِي خَيْرٌ مِنْ يَدِ الْمَانِعِ.

حَدَّثَنَا أَبُو خَلِيفَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ كَثِيرٍ، أَنْبَأَنَا سَفْيَانُ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ ذُكْوَانَ
وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ ضَمْرَةَ، عَنْ كَعْبٍ قَالَ: مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ، وَأَبْغَضَ اللَّهَ، وَأَعْطَى اللَّهَ، وَمَنْعَ اللَّهَ؛
فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ.

وَأَنْشَدَنِي الْكُرَيْزِيُّ لِيَحْيَى بْنِ أَكْثَمٍ:

وَيُظْهِرُ عَيْبَ الْمَرْءِ فِي النَّاسِ بُخْلُهُ وَيَسْتُرُّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا سَخَاؤُهُ
تَغَطَّى بِأَثْوَابِ السَّخَاءِ فَإِنَّنِي أَرَى كُلَّ عَيْبٍ وَالسَّخَاءُ غَطَاؤُهُ

أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِيُّ، ثَنَا زَيْدُ بْنُ أَخْزَمٍ، ثَنَا سَلَمُ بْنُ قَتَيْبَةَ، ثَنَا
مُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ: أَنَّ الْحَسَنَ قَلَعَ ضِرْسَهُ الْحَجَّامُ، فَأَعْطَاهُ دَرَاهِمًا، فَقِيلَ: إِنَّهُ
يَرْضَى بِنِصْفِ دَرَاهِمٍ. فَقَالَ: أَعْطَوهُ دَرَاهِمًا، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يُقَاسِمُ الْمُسْلِمَ دَرَاهِمًا.

وَأَنْشَدَنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْيَمَانِيِّ لِبَعْضِ الْقَرَشِيِّينَ:

سَأَبْذُلُ مَالِي كُلَّمَا جَاءَ طَالِبٌ وَأَجْعَلُهُ وَقْفًا عَلَى الْقَرْضِ وَالْفَرْضِ
فَإِمَّا كَرِيمًا صُنْتُ بِالْجُودِ عِرْضَهُ وَإِمَّا لَنِيمًا صُنْتُ عَنْ لُؤْمِهِ عِرْضِي

وَأَنْشَدَنِي كَامِلُ بْنُ مَكْرَمٍ أَبُو الْعَلَاءِ، أَنْشَدَنِي هَلَالُ بْنُ الْعَلَاءِ بْنِ عُمَرَ الْبَاهِلِيَّ:

مَلَأْتُ يَدَيَّ مِنَ الدُّنْيَا مِرَارًا فَمَا طَمِعَ الْعَوَازِلُ فِي اقْتِصَادِي
وَمَا وَجَبَتْ عَلَيَّ زَكَاةُ مَالٍ وَهَلْ تَجِبُ الزَّكَاةُ عَلَى الْجَوَادِ

قال أبو حاتم رحمه الله: البخل شجرة في النار أغصانها في الدنيا، من تعلق بغصن من أغصانها جرّه إلى النار، كما أن الجود شجرة في الجنة أغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها جرّه إلى الجنة، والجنة دار الأسخياء.

والبخل يقال له في أول درجته: البخل، فإذا عتا وطغى في الإمساك يقال له: الشحيح، فإذا ذم الجود والأسخياء يقال له: لئيم، فإذا صار يحتج للبخلاء ويعذرهم في فعالهم يقال له: الملائم.

وما اتزر رجل بإزار أهتك لعرضه، ولا أثلم لدينه من البخل.

ولقد أنشدني مُحَمَّد بن إسحاق الواسطي:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَةٌ وَالْبُخْلُ وَاللُّؤْمُ لَا فَلَاحَ مَعَهُ
قَدْ يَجْمَعُ الْمَالَ غَيْرُ أَكْلِهِ وَيَأْكُلُ الْمَالَ غَيْرُ مَنْ جَمَعَهُ
أَقْبَلَ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ

سمعت الخطابي بـ«البصرة» يقول: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: سألت كسري: أي شيء أضرب على ابن آدم؟ قالوا: الفقر. قال: الشح أضرب منه، إن الفقير إذا وجد اتسع، وإن الشحيح لا يتسع إذا وجد.

أنبأنا إبراهيم بن مُحَمَّد بن يعقوب، حدثنا ابن أبي القعقاع قال: قال أبو الهذيل: كنت عند يحيى بن خالد البرمكي، فدخل عليه رجل هندي، ومعه مترجم له، فقال المترجم: إن هذا رجل شاعر، قد حاول مدحتك، فقال يحيى: لينشد، فقال الهندي:

أَرَهُ أَصْرَهُ كَكَرَاكِي كَرِهِ مَنْدَرِهِ

فقال يَحْيَى للمترجم: ما يقول؟ قال: يقول:

إِذَا الْمَكَارِمُ فِي أَفَاقِنَا ذُكِرَتْ فَإِنَّمَا بِكَ يُضْرَبُ الْمَثَلُ

قال: فأمر له بألف دينار.

وأنشدني عبد الرحمن بن مُحَمَّد المقاتلي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِذَاءٍ يَزُرُّ تَدِيهِ جَمِيلُ

إِذَا قُلْتُ: لَا فِي كُلِّ شَيْءٍ سُئِلْتُهُ فَلَيْسَ إِلَيَّ حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ

وأنشدني عمرو بن مُحَمَّد الأنصاري، أنشدني الغلابي، أنشدني مهدي بن

سابق:

يَا مَانِعَ الْمَالِ كَمْ تَضُنُّ بِهِ تَطْمَعُ بِاللَّهِ فِي الْخُلُودِ مَعَهُ

هَلْ حَمَلَ الْمَالَ مَيِّتٌ مَعَهُ أَمْ تَرَاهُ لَغَيْرِهِ جَمَعَهُ

أنبأنا عمران بن موسى السخيتاني، حدثنا سليمان بن معبد المروزي، حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني يَحْيَى بن أيوب، عن أبي علي الغافقي سمع عامر بن عبد الله اليحصبي قال: كان ابن منبه يقول: أجود الناس في الدنيا من جاد بحقوق الله، وإن رآه الناس بخيلاً بما سوى ذلك، وإن أبخل الناس في الدنيا من بخل بحقوق الله، وإن رآه الناس كريماً جواداً بما سوى ذلك.

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

رُبَّ مَالٍ سَيَنْعَمُ النَّاسُ فِيهِ وَهُوَ عَنْ رَبِّهِ قَلِيلُ الْغَنَاءِ

كَانَ يَشْقَى بِهِ وَيَنْصَبُ فِيهِ ثُمَّ أَضْحَى لِمَعْشَرٍ غُرَبَاءِ

مَالَهُ عِنْدَهُمْ جَزَاءٌ إِذَا مَا نَعَّمُوا فِيهِ غَيْرُ سُوءِ الثَّنَاءِ

رُبَّ مَالٍ يَكُونُ ذِمًّا وَغَمًّا وَغَنِيٌّ يَعْدُ فِي الْفُقَرَاءِ

حدثنا أحمد بن الحسن بن أبي الصغير المدائني، حدثنا الربيع بن سليمان قال: سَمِعْتُ الشافعي رحمته الله يقول: كان أبو حاتم -يعني: الطائي- سخياً، وكان يضع الأشياء مواضعها، وكان حاتم مبدراً، فاجتمع يوماً عند أبيه أصحابه، فشكا إليهم حاتمًا، قال: والله ما أدري ما أصنع؟ لا يأخذ شيئاً إلا بذره، فاجتمع رأيهم على ألا يعطيه شيئاً سنة، قال: فأقام أبوه، ولم يُمكنه من شيء سنة، مع ما هو فيه من الضر، فلما مضت السنة أمر له بمائة ناقة حمراء، قال: فلما وقفت عليه، قال حاتم: من أحب شيئاً فهو له، حَتَّى أَخْذُوهَا كُلَّهَا، فدعاه أبوه، فقال له: أي بني، ماذا تصنع؟ قال: والله يا أبي لقد بلغ الجوع مني شيئاً، لا يسألني أحد شيئاً إلا أعطيته إياه. وأنشدني عبد العزيز بن سليمان:

تَجُودُ بِالْمَالِ عَلَى وَارِثٍ وَلَا تَرَى أَهْلًا لَهُ نَفْسَكَ
قَدَّمَ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ مَنْ جَادَ وَسُوءَ الظَّنِّ مَنْ أَمْسَكَ

أنبأنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة، قال: كان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يتمثل بهذا الشعر ويعجبه:

وَمَا تَزُودُ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ إِلَّا حَنُوطًا غَدَاةَ الْبَيْنِ مَعَ خِرْقٍ
وَغَيْرِ نَفْحَةِ أَعْوَادٍ تُشَدُّ لَهُ وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِمُنْطَلِقِ

أنبأنا أبو يعلى، حدثنا يحيى بن أيوب المقابري، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن نافع قال: «مرض ابن عمر بالمدينة، فاشتهد عنباً بغير زمانه، قال: فطلبوه، فلم يجدوه إلا عند رجل، فاشتري منه سبع حبات بدرهم، فجاءهم سائل فأمر له به، ولم يذقه».

قال أبو حاتم رحمته الله: ما رأيت أحداً من الشرق إلى الغرب ارتدى برداء الجود واتزر بإزار ترك الأذى إلا رأس أشكاله وأضداده، وخضع له الخاص والعام، فمن أراد الرفعة العالية في العقبي، والمرتبة الجليلة في الدنيا؛ فليلزم

الجود بما ملك، وترك الأذى إلى الخاص والعام، ومن أراد أن يهتك عرضه،
ويثلم دينه، ويمله إخوانه، ويستثقله جيرانه؛ فليزم البخل.

ولقد ذم البخل أهل العقل في الجاهلية والإسلام إلى يومنا هذا، فمنه ما
أنشدني مُحَمَّد بن عبد الله البغدادي:

كَأَنَّمَا نَقَرْتُ كَفَّاهُ مِنْ حَجَرٍ فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالنَّدَى عَمَلُ
يَرَى التَّيْمَمَ فِي بَحْرٍ وَفِي بَلَدٍ مَخَافَةَ أَنْ يُرَى فِي كَفِّهِ بَلَلُ

وأنشدني عمرو بن مُحَمَّد، أنشدني الغلابي، أنشدنا مهدي بن سابق:

لَوْ أَنَّ دَارَكَ أَنْبَتَتْ لَكَ وَاحْتَشَتْ إِيرًا يَضِيقُ بِهَا فِئَاءُ الْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةَ لِيَخِيطَ قَدَقَمِصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

وأنشدني أحمد بن مُحَمَّد بن أيوب:

وَكَفَّاكَ لَمْ يُخْلَقَا لِلنَّدَى وَلَمْ يَكُ بُخْلُهُمَا بِدَعَا
فَكَفَّ عَنِ الْخَيْرِ مَقْبُوضَةً كَمَا حُطَّ مِنْ مِائَةِ سَبْعَةٍ
وَأُخْرَى ثَلَاثَةَ آلَافَهَا وَتَسْعُ مِئْيَاهَا لَهَا شِرْعَةٌ

سَمِعْتُ مُحَمَّد بن نصر بن نوفل المروزي يقول: سَمِعْتُ مُحَمَّد بن صالح

الوركاني يقول: قيل للنضر بن شُميل: أي بيت قالته العرب أسخى؟ قال: الذي يقول:
فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ

قال: وأي بيت قالته العرب أبخل؟ فقال:

لَوْ جُعِلَ الْخَرْدَلُ فِي كَفِّهِ مَا سَقَطَتْ مِنْ كَفِّهِ خَرْدَلَةٌ

قال: وأي بيت قالته العرب أهجى؟ فقال:

الْعَجْرَفِيُّونَ لَا يُوفُونَ مَا وَعَدُوا وَالْعَجْرَفِيَّاتُ يُنْجِزْنَ الْمَوَاعِيدَا

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل إذا لم يُعرف بالسماحة، ألا يُعرف بالبخل، كما لا يجب إذا لم يُعرف بالشجاعة أن يُعرف بالجبن، ولا إذا لم يُعرف بالشهامة أن يُعرف بالمهانة، ولا إذا لم يُعرف بالأمانة أن يُعرف بالخيانة؛ إذ البخل بئس الشعارُ في الدنيا والآخرة، وشر ما يُدَّخر من الأعمال في العقبى.

حدثنا أحمد بن عمرو بن جابر بـ«الرملة»، حدثنا أبو عتبة الحمصي أحمد بن الفرّج، حدثنا ضمرة، حدثنا إبراهيم بن أبي عبلة، قال: سمعت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز تقول: أفّ للبخل، والله لو كان طريقاً ما سلكته، ولو كان ثوباً ما لبسته.

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا العباس بن بكار عن الهذلي قال: قال الحسن: من أيقن بالخلف جاد بالعطية.

ذكر الزجر عن ترك قبول الهدايا من الإخوان

حدثنا مُحمَّد بن صالح الطبري، حدثنا عبد الله بن عمران الأصبهاني بـ«الري»، حدثنا يحيى بن ضريس، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله [بن مسعود رحمه الله] قال: قال رسول الله ﷺ: «أَجِيبُوا الدَّاعِيَ، وَلَا تَرُدُّوا الْهَدِيَّةَ، وَلَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ».

قال أبو حاتم رحمه الله: زجر النبي ﷺ في هذا الخبر عن ترك قبول الهدايا بين المسلمين.

فالواجب على المرء إذا أهديت إليه هدية أن يقبلها ولا يردها، ثمَّ يشب عليها إذا قدر، ويشكر عليها، وإنِّي لأستحب للناس استعمال بعث الهدايا إلى الإخوان بينهم؛ إذ الهدية تورث المحبة، وتذهب الضغينة.

ولقد حدثنا مُحمَّد بن المهاجر، حدثنا الدارمي، حدثنا عبد الله بن صالح، أنبأنا الليث وقال: سمعت عبد الملك بن رفاعة الفهمي يقول: الهدية هي السحر الظاهر.

حدثني إبراهيم بن أبي أمية بـ«طرسوس»، حدثنا حامد بن يحيى البلخي،
حدثنا سفيان قال: لما قعد أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، قال للناس مُساور الوراق:

كُنَّا مِنَ الدِّينِ قَبْلَ الْيَوْمِ فِي سَعَةٍ حَتَّى بُلِينَا بِأَصْحَابِ الْمُقَايِسِ
قَوْمٌ إِذَا اجْتَمَعُوا صَاحُوا كَأَنَّهُمْ ثَعَالِبُ ضَبَحَتْ بَيْنَ النَّوَافِسِ

قال: فبلغ ذلك أبا حنيفة، فبعث إليه بمال، فقال مساور حين قبض المال:
إِذَا مَا النَّاسُ يَوْمًا قَايَسُونَا بِأَبْدَةٍ مِنَ الْفُتْيَا طَرِيفَهُ
أَتَيْنَاهُمْ بِمُقْيَاسٍ صَاحِحٍ مُصِيبٍ مِنْ طِرَازِ أَبِي حَنِيفَةَ
إِذَا سَمِعَ الْفَقِيهَ بِهَا وَعَاَهَا وَأَتْبَتَهَا بِجَبْرِ فِي صَحِيفَهُ
وأنشدني الكريزي:

إِنَّ الْهَدْيَ بَعْدَ حُلُوفَةٍ كَالسَّحْرِ تَخْتَلِبُ الْقُلُوبَا
تُدْنِي الْبَعِيدَ عَنِ الْهَوَى حَتَّى تُصَيِّرَهُ قَرِيبَا
وَتُعِيدَ مُضْطَغِنَ الْعَدَا وَبَعْدَ بَغْضَتِهِ حَيِّبَا
تَنْفِي السَّخِيمَةَ عَنْ ذَوِي الشَّ حَنَا وَتَمْتَحِقُ الذُّنُوبَا

أنبأنا الحسين بن إسحاق الأصبهاني بـ«الكرج»، وإبراهيم بن مُحَمَّد
الدستوائي بـ«تُسْتَر» قالوا: حدثنا مُحَمَّد بن عبيد بن عتبة الكندي، حدثنا بكار بن
أسود العيذي، حدثنا إسماعيل بن أبان قال: بلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش
يقع فيه، فبعث إليه بكسوة، فلما كان بعد ذلك مدحه الأعمش، فقليل له: كيف
تدمه ثُمَّ تمدحه؟ قال: إن خيثة حدثني عن عبد الله قال: «إن القلوب جُبِلَتْ
على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها».

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللهُ: قال لنا هذان الشيخان عن النَّبِيِّ ﷺ وأنا أهأبه.

قال: والبشر مَجْبُولُونَ عَلَى مَحَبَةِ الْإِحْسَانِ، وَكَرَاهِيَةِ الْأَذَى، وَاتِّخَاذِ
الْمَحْسَنِ إِلَيْهِمْ حَبِيبًا، وَاتِّخَاذِ الْمَسِيءِ إِلَيْهِمْ عَدُوًّا.

فَالْعَاقِلُ يَسْتَعْمَلُ مَعَ أَهْلِ زَمَانِهِ لَزُومَ بَعْثِ الْهَدَايَا بِمَا قَدَرُ عَلَيْهِ لَا اسْتِجْلَابَ
مَحَبَّتِهِمْ إِيَّاهُ، وَيَفَارِقُهُ تَرْكُهُ مَخَافَةَ بَغْضِهِمْ.

وَلَقَدْ أُنْشِدْنِي الْأَبْرَشُ:

هَدَايَا النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ تُولَدُ فِي قُلُوبِهِمُ الْوَصَالَا
وَتَزْرَعُ فِي الضَّمِيرِ هَوًى وَوُدًّا وَتَكْسُوكَ الْمَهَابَةَ وَالْجَلَالَ
مَصَايِدُ لِلْقُلُوبِ بِغَيْرِ لَغَبٍ وَتَمْنَحُكَ الْمَحَبَّةَ وَالْجَمَالَ

حدثني مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ الْقَزَازِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَقْمَانَ الْبَهْرَانِيُّ النُّجْرَانِيُّ،
حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ أَيُّوبَ، حَدَّثَنَا خَدَّاشُ بْنُ الْمَهَاجِرِ، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ
ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: كَانُوا يَتَهَادُونَ الدِّرَاهِمَ فِي الْجُودِ الْقَاتِ وَالْأَطْبَاقِ.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: الْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ الْأَشْيَاءَ عَلَى مَا يُوْجِبُ
الْوَقْتَ، وَيَرْضَى بِنَفَازِ الْقَضَاءِ، وَلَا يَتَمَنَّى ضِدَّ مَا رُزِقَ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ الشَّيْءُ
الْتَاغِي يَجِبُ أَلَّا يَمْتَنِعَ مِنْ بَذْلِهِ لِاسْتِحْقَاقِهِ وَاسْتِقْلَالِهِ؛ لِأَنَّ أَهْوَاهُ مَا فِيهِ لَزُومُ
الْبَخْلِ وَالْمَنْعِ، وَمِنْ حَقَرِ شَيْئًا مَنَعَهُ، بَلْ يَكُونُ عِنْدَهُ الْكَثْرَةُ وَالْقِلَّةُ فِي الْحَالَةِ
سَيَانًا؛ لِأَنَّ مَا يُوْرَثُ الْكَثِيرُ مِنَ الْخِصَالِ أَوْرَثَ الصَّغِيرِ بِقَدَرِهِ مِنَ الْفِعَالِ.

حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيُّ، حَدَّثَنَا الْغَلَايِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَمْرِو
بْنِ حَبِيبٍ، عَنْ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى كَهْمَسِ الْعَابِدِ، فَجَاءَ بِخَمْسَةِ وَعِشْرِينَ
بُسْرَةً حُمْرَاءَ، فَقَالَ: هَذَا الْجَهْدُ مِنْ أَخِيكُمْ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَأُنْشِدْنِي ابْنُ زَنْجِي:

إِنَّ الْمُنَى عَجَبٌ لِلَّهِ صَاحِبُهَا لَعَلَّ حَتْفَ امْرِئٍ فِيمَا تَمَنَّاهُ
فَإِنْ تَرَى عِبْرًا فِيهِنَّ مُعْتَبَرٌ يَجْرِي بِهَا قَدَرٌ فَاللَّهُ أَجْرَاهُ

لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْإِحْسَانِ مُحَقَّرَةً أَحْسَنَ فَعَاقِبَةُ الْإِحْسَانِ حُسْنَاهُ

حدثنا مُحَمَّد بن أيوب بن مشكان بـ«طبرية قصبة الأردن»، حدثنا أبو عتبة، حدثنا سلمة بن عبد الملك العوصي، حدثنا المعافى بن عمران قال: سمعت ميمون يقول: من رضي من خُلَّةِ الإخوان بلا شيء فليواخ أهل القبور. حدثنا أحمد بن مُحَمَّد بن سعيد القيسي، حدثنا مُحَمَّد بن الوليد بن أبان العقيلي، حدثنا نعيم بن حماد قال: أنشدني ابن المبارك:

مَا ذَا قَطَعَمَ الْغِنَى مَنْ لَا قُنُوعَ لَهُ وَلَنْ تَرَى قَانِعًا مَا عَاشَ مُفْتَقِرًا
وَالْعُرْفُ مَنْ يَأْتِيهِ يَحْمَدُ عَوَاقِبَهُ مَا ضَاعَ عُرْفٌ وَلَوْ أَوْلَيْتَهُ حَجَرًا
سمعت يوسف بن يونس الفرغاني يقول: بعث أبو السنور الشاعر إلى الأمير أبي الأشعث بطبق ورد يوم النيروز هدية، وبعث إليه بهذه الأبيات:

بَعَثْنَا بِبِرٍّ تَأْفِيهِ دُونَ قَدْرِكُمْ وَمَا تَبَعْتُ الْأَلْطَافُ لِلْقُلِّ وَالْكُثْرِ
وَلَكِنْ ظَرْفًا أَنْ تَزِيدَ مَوَدَّةً فَهَلْ تُكْرِمُنَا بِالْقَبُولِ وَبِالْعُذْرِ
لَوْ كَانَ بِرِّي حَسَبَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ أَتَاكَ إِذَنْ رُوحِي عَلَى طَبَقِ الْبُرِّ
سمعت عمر بن مُحَمَّد الهمداني يقول: سمعت وَرِيْزَةَ بن مُحَمَّد الغساني

يقول: قدم بعض الكتاب العسكر، فأهدى إليه إخوانه، وكان فيهم من قعدت به الحال، فوجه إليه بدُقَّةً وأُشنان، وكتب إليه: لو تَمَّت الإرادة - جعلت فداك! - ببلوغ النية فيه، وملكتني الجِدَّة بسط القدرة لأتعب السابقين إلى برِّك، ولبرزت أمام المجتهدين في فضلك، ولكن البضاعة قعدت بالهمة، وقصرت عن مساماة أهل النعمة، وكرهت أن تطوى صحيفة البر، وليس [لي] فيها ذكر، فوجهت إليك بالمبتدأ به ليمنه وبركته، وبالمختتم به لطيبه ونفعه، مقتصرًا عن أثم التقصير فيه، فأما ما سوى ذلك فالمعبر عني في قول الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى

وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يُفْقُونَ حَرْجٌ ﴿[التوبة: ٩١]﴾. والسلام.

حدثنا مُحَمَّد بن يوسف الأرميني، حدثنا إبراهيم بن عبد العزيز الموصلي،
حدثنا مُحَمَّد بن علي بن الفضل المديني، حدثنا عبد الله بن شعيب الزبيري،
حدثنا مُحَمَّد بن إسحاق المسيبي، عن القاسم بن المعتمر، عن حميد بن
معيوف، عن أبيه قال: «كنت ممن شهد الحكم بن حنطب بمنبج، وهو يريد أن
يَموت، وقد كان لقي من الموت شدة، فقلت -أو قال رجل-: اللهم هَوِّنْ عليه
الموت، فلقد كان، ولقد كان، فأثنى عليه، فأفاق من غشيته، قال: من المتكلم؟
قال المتكلم: أنا. قال: إن ملك الموت. يقول: إني بكل رجل سخي رقيق. قال:
ثُمَّ كَأَنَّ فِتِيلَةَ أَطْفَأْتُ، فمات.

فبلغ ابن هَرَمَةَ الشاعر موته فأنشأ يقول:

سَأَلُوا عَنِ الْمَجْدِ وَالْمَعْرُوفِ أَيُّنَ هُمَا فَقُلْتُ: إِنَّهُمَا مَاتَا مَعَ الْحَكَمِ
مَاتَا مَعَ الرَّجُلِ الْمُؤَفِّي بِذِمَّتِهِ يَوْمَ الْحِفَاطِ إِذَا لَمْ يُوفَ بِالذِّمِّ
مَاذَا بِمَنْبَجٍ لَوْ تُنَبِّشُ مَقَابِرَهَا مِنَ التَّهْدَمِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْكَرَمِ

حدثنا مُحَمَّد بن المهاجر، حدثنا مُحَمَّد بن موسى السمری، عن حماد بن
إسحاق بن إبراهيم، عن أبيه قال: قيل للمغيرة بن شعبة: ما بقي من لذتك؟ قال:
الإفضال على الإخوان. قيل: فمن أحسنُ الناس عيشًا؟ قال: من عاش بعيشه
غيره. قيل: فمن أسوأ الناس عيشًا؟ قال: من لا يعيش بعيشه أحدٌ.

ذكر استحباب التفريج عن الناس بقضاء الحوائج

حدثنا أبو عمرو مُحَمَّد بن محمود النسائي، حدثنا حميد بن زنجويه،
حدثنا مُحَاضِر بن المورع، عن الأعمش، عن أَبِي صَالِح، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه
قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا؛ نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ
بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ».

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على المسلمين كافة نصيحة المسلمين، والقيام بالكشف عن همومهم وكربهم؛ لأن من نفس كربة من كرب الدنيا عن مسلم؛ نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن تحرّى قضاء حاجته ولم يقصّ قضاؤها على يديه فكأنه لم يقصر في قضائها، وأيسر ما يكون في قضاء الحوائج استحقاق الثناء، والإخوان يعرفون عند الحوائج، كما أن الأهل تختبر عند الفقر؛ لأن كل الناس في الرخاء أصدقاء، وشر الإخوان الخاذل لإخوانه عند الشدة والحاجة، كما أن شرّ البلاد بلدة ليس فيها خصب ولا أمن.

وأنشدني الكريزي:

خَيْرُ أَيَّامِ الْفَتَى يَوْمُ نَفْعٍ وَاضْطِنَاعُ الْعُرْفِ أَبْقَى مُصْطَنَعٍ
مَا يُنَالُ الْخَيْرُ بِالشَّرِّ وَلَا يَخْصِدُ الزَّرْعُ إِلَّا مَا زَرَعَ
لَيْسَ كُلُّ الدَّهْرِ يَوْمًا وَاحِدًا رَبَّمَا انْحَطَّ الْفَتَى ثُمَّ ارْتَفَعَ

حدثنا مُحَمَّد بن سليمان بن فارس، حدثنا أحمد بن سعيد الدارمي، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا الربيع قال: كان الحسن [البصري] يقول: «قضاء حاجة أخ مسلم أحب إليّ من اعتكاف شهرين».

وأنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

سَابِقٌ إِلَى الْخَيْرِ وَبَادِرٌ بِهِ فَإِنَّ مِنْ خَلْفِكَ مَا تَعْلَمُ
وَقَدَّمَ الْخَيْرَ فَكُلُّ امْرِئٍ عَلَى الَّذِي قَدَّمَهُ يَقْدَمُ

حدثنا أحمد بن مُحَمَّد بن سعيد القيسي، حدثنا مُحَمَّد بن موسى البصري، حدثنا الأصمعي، حدثنا أبو معمر شبيب بن شيبه الخطيب قال: لما حضرت ابن سعيد بن العاص الوفاة قال لبنيه: «يا بني، أيكم يقبل وصيتي؟ فقال ابنه

الأكبر: أنا. قال: إن فيها قضاء ديني. قال: وما دينك يا أبت؟ قال: ثمانون ألف دينار. قال: يا أبت فيم أخذتها؟ قال: يا بُنَيَّ، في كريم سددت حَلَّتْه، ورجل جاءني في حاجة، وقد رأيت السوء في وجهه من الحياء، فبدأت بحاجته قبل أن يسألها».

قال أبو حاتم رحمه الله: حقيق على من علم الثواب ألا يَمْنَع ما ملك من جاءه أو مال إن وجد السبيل إليه قبل حلول المنية، فيبقى عن الخيرات كلها، ويتأسف على ما فاته من المعروف.

والعاقِل يعلم أن من سحب النعمة في دار الزوال لم يخل من فقدها، وأن من تمام الصنائع، وأهناها إذا كان ابتداء من غير سؤال.

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا مُحمَّد بن عبد الرحمن المهلب قال: دخل أبو العتاهية على الرشيد، فقال: سل يا أبا العتاهية، فقال:

إِذَا كَانَ الْمَنَالُ بِبَذْلِ وَجْهِهِ فَلَا قَرْبْتَ مِنْ ذَاكَ الْمَنَالِ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان:

يَبْقَى الثَّنَاءُ وَتَنْفَدُ الْأَمْوَالُ وَلِكُلِّ دَهْرٍ دَوْلَةٌ وَرِجَالُ

مَا نَالَ مُحَمَّدَةَ الرَّجَالِ وَشُكْرَهُمْ إِلَّا الصَّبُورُ عَلَيْهِمُ الْمِفْضَالُ

حدثني مُحمَّد بن عبدل بن المهدي الشعرائي، حدثنا مُحمَّد بن يزيد الطرسوسي، حدثنا ابن عائشة قال: قال أبي: «جاء رجل إلى يحيى بن طلحة بن عبيد الله، فقال له: هَب لي شيئاً، قال: يا غلام، أعطه ما معك. فأعطاه عشرين ألفاً، فأخذها ليحملها فثقلت عليه، فقعد يبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعلك استقلتتها فأزيدك، قال: لا، والله ما استقلتتها، ولكن بكيت على ما تأكل الأرض من كرمك. فقال له يحيى: هذا الذي قلت لنا أكثر مما أعطيناك».

قال أبو حاتم رحمه الله: لا يجب الإلحاف عند السؤال في الحوائج؛ لأن شدة الاجتهاد ربَّما كانت سبباً للحرمان والمنع، والطالب للفلاح كالضَّرَّاب بالقِداح:

سَهْمٌ لَهُ، وَسَهْمٌ عَلَيْهِ، فَإِنْ أُعْطِيَ وَجِبَ عَلَيْهِ الْحَمْدُ، وَإِنْ مُنِعَ لَزِمَهُ الرِّضَاءُ بِالْقَضَاءِ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ السُّؤَالُ إِلَّا فِي دِيَارِ الْقَوْمِ وَمَنَازِلِهِمْ، لَا فِي الْمَحَافِلِ وَالْمَسَاجِدِ وَالْمَلَأَ.

لَأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مَحْمُودِ النَّسَائِيَّ حَدَّثَنَا قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ خَشْرَمٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرُ ابْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الضَّبِّيُّ، عَنْ حَنِيفِ الْمُؤَذِّنِ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «لَا تَسْأَلُوا النَّاسَ فِي مَجَالِسِهِمْ وَمَسَاجِدِهِمْ فَتُفَحِّشُوهُمْ، وَلَكِنْ سَلُوهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، فَمَنْ أُعْطِيَ أُعْطِيَ، وَمَنْ مَنَعَ مَنَعَ».

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رضي الله عنه: الَّذِي قَالَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُهُ- إِذَا كَانَ الْمَسْئُولُ كَرِيمًا، فَإِنَّهُ إِنْ سُئِلَ الْحَاجَّةَ فِي نَادِي قَوْمِهِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ قَضَائُهَا تَشَوُّرٌ وَخَجَلٌ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمَسْئُولُ لَثِيمًا وَدُفِعَ الْمَرْءُ إِلَى مَسْأَلَتِهِ فِي الْحَاجَّةِ تَقَعُ لَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ سَأَلَهُ فِي مَجْلِسِهِ وَمَسْجِدِهِ كَانَ ذَلِكَ أَقْضَى لِحَاجَتِهِ؛ لِأَنَّ اللَّثِيمَ لَا يَقْضِي الْحَاجَّةَ دِيَانَةً وَلَا مُرُوءَةً، إِنَّمَا يَقْضِيهَا إِذَا قَضَاهَا طَلَبًا لِلذِّكْرِ وَالْمُحَمَّدَةِ فِي النَّاسِ.

عَلَى أَنِّي أَسْتَحِبُّ لِلْعَاقِلِ أَنْ لَوْ دَفَعَهُ الْوَقْتُ إِلَى الْقِدِّ وَمَصَّ الْحَصَى ثُمَّ صَبَرَ عَلَيْهِ؛ لَكَانَ أَحْرَى بِهِ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ لَثِيمًا حَاجَةً؛ لِأَنَّ إِعْطَاءَ اللَّثِيمِ شَيْنٌ، وَمَنْعُهُ حَتْفٌ.

وَلَقَدْ أُنْشِدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِيُّ:

إِذَا أُعْطِيَ الْقَلِيلَ فَكُنْ شَرِيفٌ فَإِنْ قَلِيلَ مَا يُعْطِيكَ زَيْنٌ
وَإِنْ تَكُنِ الْعَطِيَّةُ مِنْ دَنِيٍّ فَإِنَّ كَثِيرَ مَا يُعْطِيكَ شَيْنٌ

أَنْبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدَ بْنِ الْفَضْلِ السَّجِسْتَانِيَّ بِ«دَمَشَقٍ»، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ خَشْرَمٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ مُسْلِمٍ بْنَ قَتِيْبَةَ بْنَ سَلَمٍ الْبَاهِلِيَّ يَقُولُ: خَرَجْتُ حَاجًّا فَمَلَلْتُ الْمَحْمَلَ، فَتَزَلْتُ أَسَايِرَ الْقُطْرَاتِ، فَإِذَا أَنَا بِأَعْرَابِي، فَقَالَ لِي: يَا فَتَى

لمن الجمال بما عليها؟ قلت: لرجل من باهلة! قال: يا الله أن يعطي الله باهلياً كل ما أرى. قال: فأعجبني ازدراؤه بهم، ومعى صرّة فيها مائة دينار، فرميت بها إليه، فقال: جزاك الله خيراً! وافقت مني حاجة، فقلت: يا أعرابي، أيسرك أن تكون الجمال بما عليها لك وأنت من باهلة؟ قال: لا. قلت: أيسرك أن تكون من أهل الجنة وأنت باهلي؟ قال: بشرط ألا يعلم أهل الجنة أنني من باهلة.

فقلت: يا أعرابي، الجمال بما عليها لي وأنا من باهلة، قال: فرمى بالصرة إلي، فقلت: سبحان الله! ذكرت أنها وافقت منك حاجة، قال: ما يسرني أن ألقى الله ولباهلي عندي يد، فحدثت بها المأمون، فجعل يتعجب ويقول: ويحك يا سعيد! ما كان أصبرك عليه.

حدثنا مُحَمَّد بن الرقام بـ«تستر»، حدثنا أبو حاتم السجستاني، حدثنا الأصمعي، حدثنا هاشم بن القاسم قال: سألت سلم بن قتيبة حاجة، فقضاها، ثُمَّ سألته أخرى، فانتهرني. وقال: حاجتين في حاجة، أو قال: على الريق! ثُمَّ دعا بالطعام، فلما تغدّى قال: هات حاجتك، أما سمعت قول الصبيان:

إِذَا تَغَدَّيْتُ وَطَابَتْ نَفْسِي فَلَيْسَ فِي الْحَقِّ غَلَامٌ مِثْلِي
إِلَّا غَلَامٌ قَدْ تَغَدَّى قَبْلِي

أنبأنا عمرو بن مُحَمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق، عن عطاء بن مصعب قال: قال أبو عمرو المنذري: أتيت سلم بن قتيبة في حاجة، وكان له صديق من أهل الشام فكلّمته أن يكلمه في حاجتي، فجعل يقول: اليوم، غداً.. فطال عليّ، فتراءيت له، وقد كان يعرفني، فدعاني فقال: أبا عمرو، إنك لها هنا؟ قلت: نعم، أطلبك بحاجة منذ كذا وكذا وسيلتي فيها فلان، فضحك، وقال: قد كنت أراك قد أحكمت الآداب، لا تستعن إلى من تطلب إليه حاجة بمن له عنده طُعمة؛ فإنه لا يؤثر على طُعمته، ولا تستعن بكذاب، فإنه يُقَرِّب لك البعيد،

وَيُبْعَدُ لَكَ الْقَرِيبُ، وَلَا تَسْتَعِنَ بِأَحْمَقٍ، فَإِنَّ الْأَحْمَقَ يُجْهَدُ لَكَ نَفْسَهُ، وَلَا يَكُونُ عِنْدَهُ شَيْءٌ، وَلَا يَبْلُغُ لَكَ مَا تَرِيدُ، فَانْصَرَفْتُ، فَقُلْتُ: يَكْفِينِي هَذَا. قَالَ: لَا، وَلَكِنْ تَقْضِي لَكَ حَاجَتَكَ، فَقَضَاهَا.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا يَجِبُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَوَسَّلَ فِي قَضَاءِ حَاجَتِهِ بِالْعَدُوِّ، وَلَا بِالْأَحْمَقِ، وَلَا بِالْفَاسِقِ، وَلَا بِالْكَذَّابِ، وَلَا بِمَنْ لَهُ عِنْدَ الْمَسْئُولِ طُعْمَةٌ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ حَاجَتَيْنِ فِي حَاجَةٍ، وَلَا أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ سُؤَالٍ وَتَقَاضٍ، وَلَا يُظْهِرُ شَرَّهَ الْحَرَصِ فِي اقْتِضَاءِ حَاجَتِهِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ يَكْفِيهِ الْعِلْمُ بِالْحَاجَةِ دُونَ الْمَطَالَبَةِ وَالْاِقْتِضَاءِ.

وَلَقَدْ أُنْشِدَنِي مَنْصُورُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْكَرِيزِيُّ:

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فَاصْبِرْ وَلَا تَكُ لِلْمِطَالِ مَلُولًا
لَا تُظْهِرَنَّ شَرَّهَ الْحَرِيسِ وَلَا تَكُنْ عِنْدَ السُّؤَالِ إِذَا نَهَضْتَ ثَقِيلًا

وَأُنْشِدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْوَاسِطِي الْعِرَاقِي:

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فَحُضُورُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
فَإِذَا رَأَاكَ مُسَلِّمًا عَرَفَ الَّذِي حَمَلْتَهُ فَكَأَنَّهُ مَلْزُومُ

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْعَاقِلُ لَا يَتَسَخَطُ مَا أُعْطِيَ -وَإِنْ كَانَ تَافَهُأَ- لِأَنَّهُ مِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ فَكُلُّ شَيْءٍ يَسْتَفِيدُهُ رِبْحٌ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يَسْأَلَ الْحَاجَةَ كُلَّ إِنْسَانٍ: فَرُبَّ مَهْرُوبٍ مِنْهُ أَنْفَعُ مِنْ مُسْتَغَاثٍ إِلَيْهِ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ السَّائِلُ مُتَشَفِّعًا لِآخَرٍ؛ لِأَنَّهُ مِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَسْبَحَ فَلَا يَجِبُ أَنْ يَحْمَلَ عَلَى عُنْقِهِ آخَرَ، وَمَنْ سَأَلَ فَلْيَبْذُلْ؛ لِأَنَّهُ مَالُ الْمَرْءِ نَصْفَانِ، لَهُ مَا قَدَمَ، وَلَوْارِثُهُ مَا خَلْفَ، وَأَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ فِي الدُّنْيَا زَوَالًا: الْمَالُ وَالْوِلَايَةُ، وَالتَّعَاهُدُ لِلصَّنِيعَةِ بِالتَّحْفِظِ عَلَيْهَا أَحْسَنُ مِنْ ابْتِدَائِهَا، وَمَنْ غَرَسَ غِرَاسًا فَلَا يَضُنُّ بِالنَّفَقَةِ عَلَى تَرْبِيَّتِهِ، فَتَذْهَبَ النَّفَقَةُ الْأُولَى ضَيَاعًا.

حدثني مُحَمَّد بن أَبِي علي الخلاّدي، حدثني مُحَمَّد بن أَبِي يعقوب الربعي، حدثنا عبد الكريم بن مُحَمَّد الموصلي، حدثنا أَبِي قال: سمعت أبا حاتم حبيب بن أوس الطائي يقول: وقفت على باب مالك بن طوق الرحبي أشهرًا فلم أصل إليه، ولم يعلم بمكاني، فلما أردت الانصراف قلت للحاجب: أتأذن لي إليه أم أنصرف؟ قال: أما الآن فلا سبيل إليه. قلت: فأیصال رُقعة؟ قال: لا، ولا يُمكن هذا، ولكن هو خارج اليوم إلى بستان له، فاكتب الرُقعة وارم بها في موضع أرائه الحاجب، فكتبت:

لَعَمْرِي لَئِنْ حَجَبْتَنِي الْعَبِي دُعَاكَ فَلَمْ تُحَجِّبِ الْقَافِيَةَ
سَأَرْمِي بِهَا مِنْ وَرَاءِ الْجِدَا رَشْنَعَاءَ تَأْتِيكَ بِالذَّاهِيَةِ
نُصِّمُ السَّمِيعَ وَتُعْمِي الْبَصِيرَ وَمِنْ بَعْدِهَا تَسْأَلُ الْعَافِيَةَ

فكتبت بها ورميت بها من المكان الذي أرائه الحاجب، فوقعت بين يديه، فأخرجها فنظر فيها، فقال: عليّ بصاحب الرُقعة، فخرج الخادم، فقال: من صاحب الرُقعة؟ قلت: أنا، فأدخلت عليه، فقال لي: أنت صاحب الرُقعة؟ قلت: نعم، فاستنشدني فأشدته، فلما بلغت «ومن بعدها تسأل العافية» قال: لا، بل نسأل العافية من قبلها، ثم قال: حاجتك؟ فأنشأت أقول:

مَاذَا أَقُولُ إِذَا انْصَرَفْتُ وَقِيلَ لِي مَاذَا أَصَبْتُ مِنَ الْجَوَادِ الْمُفْضَلِ
وَإِنْ قُلْتُ: أَغْنَانِي كَذَبْتُ وَإِنْ أَقُلُّ ضَنَّ الْجَوَادِ بِمَالِهِ لَمْ يَجْمُلِ
فَاخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ مَا أَقُولُ فَإِنِّي لَا بُدَّ أَخْبِرُهُمْ وَإِنْ لَمْ أَسْأَلِ

فقال: إذن والله لا أختار إلا أحسنها، كم أقمت ببابي؟ قلت: أربعة أشهر، قال: يُعطى بعدد أيامه ألوفًا، فقبضت مائة وعشرين ألف درهم.

سمعت مُحَمَّد بن نصر بن نوفل بـ«قول» يقول: سمعت أبا داود السنجي

يقول: كان ببغداد رجل يقال له: ابن الهفت، فَمَرَّ يوماً على سائل واقف على الجسر، وهو يقول: اللهم ارزق المسلمين حَتَّى يعطوني، فقال له: تسأل ربك الحَوَالَةَ!!؟

ذكر الحث على إعطاء السؤال وطلب المعالي

حدثنا مُحَمَّد بن صالح الطبري بـ«الصيمرة»، حدثنا أبو كريب مُحَمَّد بن العلاء الهمداني، حدثنا مصعب بن المقدم، حدثنا سفيان، عن مُحَمَّد بن المنكدر، عن جابر رضي الله عنه قال: «مَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا قَطْ فَقَالَ: لَا، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطْ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إِنِّي لَأَسْتَحِبُّ لِلْمَرْءِ طَلَبَ الْمَعَالِي مِنَ الْأَخْلَاقِ، مَعَ تَرْكِ رَدِّ السُّؤَالِ؛ لِأَنَّ عَدَمَ الْمَالِ خَيْرٌ مِنْ عَدَمِ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ. والندامة موكَّلةٌ بترك معالجة الفرصة، وإن الحر -حق الحر- من أعتقته الأخلاق الجميلة، كما أن أسوأ العبيد من استعبدته الأخلاق الدنيَّة، ومن أفضل الزاد في المعاد: اعتقاد المحامد الباقية، ومن لزم معالي الأخلاق أنتج له سلوكها فراخاً تطير بالسرور.

ولقد حدثني مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا هارون بن صدقة القاضي، حدثنا المسيب بن واضح قال: سمعت يوسف بن أسباط يقول: ما كان المال مُدًّا كانت الدنيا أنفع منه في هذا الزمان.

وأنشدني مُحَمَّد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

بَادِرْ هَوَاكَ إِذَا هَمَمْتَ بِصَالِحٍ خَوْفَ الْعَوَائِقِ أَنْ تَجِيءَ فَتُغْلَبُ
وَإِذَا هَمَمْتَ بِسَيِّئٍ فَتَعَدَّه وَتَجَنَّبِ الْأَمْرَ الَّذِي يُتَجَنَّبُ

قال أبو حاتم رضي الله عنه: ما ضاع مَالٌ وَرَثَ صاحبه مَجْدًا، ولولا المتفضلون مات المُتَجَمِّلُونَ، وليس يستحق المرء اسم «الكرم» بالكف عن الأذى، إلا أن يقرَّنه بالإحسان إليهم، فمن كثر في الخير رغبته، وكان اصطناع المعروف همته،

قصده الراجون، وتأمله المتأملون.

ومن كان عيشه وحده؛ ولم يعيش بعيشه غيره؛ فهو - وإن طال عمره - قليل العمر، والبائس من طال عمره في غير الخير، ومن لم يتأسَّ بغيره في الخير كان عاجزاً، كما أن من استحسن من نفسه ما يستقبحه من غيره كان كالغاش لمن تجب عليه نصيحته، ومن لم يكن له همّة إلا بطنه وفرجه عدّ من البهائم، والهمة تُبلِّغ الرتبة العالية؛ لأن الناس بهمهم.

ولقد حدثنا عمرو بن مُحمَّد الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة قال: قال عبيد الله بن زياد بن ظبيان: كان لي خال من «كلب»، فكان يقول لي: يا عبيد الله، همّ؛ فإن الهمة نصف المروءة. وأنشدني مُحمَّد بن إسحاق الواسطي.

قَدْ بَلَوْنَا النَّاسَ فِي أَخْلَاقِهِمْ فَرَأَيْنَاهُمْ لِذِي الْمَالِ تَبَعٌ
وَحَبِيبُ النَّاسِ مَنْ أَطْمَعَهُمْ إِنَّمَا النَّاسُ جَمِيعًا بِالطَّمَعِ

حدثنا عمر بن حفص البزاز بـ «جنديسابور»، حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا الحسن بن واقع الرملي، حدثنا ضمرة بن ربيعة، قال: سمعت كُديرًا - أبا سليمان - الضبّي يقول: «كان لقصر إبراهيم الخليل عليه السلام ثمانية أبواب؛ من حيث جاء السائل أعطي».

حدثنا مُحمَّد بن أحمد الرقام بـ «تستر»، حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا أبو مُسهر، حدثنا سعيد بن عبد العزيز: أن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام - : سمع رجلاً إلى جنبه يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانصرف فبعث بها إليه.

وأنشدني الكريزي:

لَا تَحْقِرَنَّ صَنِيعَ الْخَيْرِ تَفْعَلُهُ وَلَا صَغِيرَ فَعَالِ الشَّرِّ مِنْ صِغَرِهِ

فَلَوْ رَأَيْتَ الَّذِي اسْتَضْغَرْتَ مِنْ حَسَنِ عِنْدَ الثَّوَابِ أَطَلَّتِ الْعُجْبَ مِنْ كِبَرِهِ

سمعت أحمد بن محمد بن عبد الله اليماني يقول: سمعت صالح بن آدم

يقول: أنشد إنسان عند عبد الله بن جعفر هذين البيتين:

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ

فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَأَعْمِدْ بِهَا لِلَّهِ أَوْ لِذَوِي الْقَرَابَةِ أَوْ دَعِ

فقال عبد الله بن جعفر: إن هذين البيتين يُبْخَلَانِ الناس؛ ينبغي لمن عمل

بهذا أن يدعو لمن طلب حاجة بالبيعة، بل تُبَثُّ الصنائع ويُرمَى بها مواضع القطر

حيث حَلَّتْ.

وفي مثله يقول العتّابي:

لَهُ فِي ذَوِي الْمَعْرُوفِ نِعْمَى كَأَنَّهُ مَوَاقِعُ مَاءِ الْقَطْرِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ

إِذَا مَا أَتَاهُ السَّائِلُونَ لِحَاجَةٍ عَلَتْهُ مَصَابِيحُ الطَّلَاقِ وَالْبُشْرِ

حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسي، حدثنا أحمد بن مسروق، حدثني

ابن أبي سعيد، عن شيخ له قال: رأيت ابن المبارك يَعْصُ يد خادم له، فقلت له:

تَعْصُ يَدَ خَادِمِكَ؟ قال: كم أمرُهُ إِلَّا يَعِدُّ الدِراهم عَلَى السُّؤَالِ. أقول له: احْثُ

لَهُمْ حِثْوًا.

حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن

القاسم، عن أبيه قال: قال إبراهيم بن أبي البلاد: حدثني أخي قال: رأيت الحجاج

بِمَنْى فِي عَمَلِهِ عَلَى الْعِرَاقِ، وَقَامَ إِلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ يَسْأَلُونَهُ، فَقَالَ:

تَوَهَّمْتُمْ بِنَا أَنَا بَغِيرَ بِلَادِنَا وَمَا لَكُمْ مِنْزَلٌ، مَنْ هَاهُنَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ؟ فَقَامَ إِلَيْهِ

تُجَّارُ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَقَالَ: هَلْ مِنْ سَلَفٍ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَحَمَلُوا إِلَيْهِ أَلْفَ أَلْفِ

دِرْهَمٍ فَقَسَمَهَا، فَلَمَّا قَدِمَ الْعِرَاقَ رَدَّهَا، وَأَكْثَرَ ظَنِي أَنَّهَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا.

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على العاقل أن يبدأ بالصنائع والإحسان الأفرض فالأفرض، يبدأ بأهل بيته، ثم بإخوانه وجيرانه، ثم الأقرب فالأقرب، ويتحرى المعروف والإحسان في أهل الدين والعلم منهم، ويجتنب ضد ما قلنا؛ لأن مثل من لم يفعل ما أومأنا إليه كما أنشدني الحسين بن أحمد البغدادي:

تَصُولُ عَلَى الْأَدْنَى وَتَجْتَنِبُ الْعِدَا وَمَا هَكَذَا تُبْنِي الْمَكَارِمُ يَا يَحْيَى
فَكُنْتَ كَفَحَلِ السُّوءِ يَنْزُو بِأَمِّهِ وَيَتْرُكُ بَاقِيَ الْخَيْلِ سَائِمَةً تَرْعَى
وأنشدني البسامي:

وَكُنْتَ كَمَهْرِيْقِ الَّذِي فِي سِقَائِهِ لِرَقْرَاقِ مَاءٍ فَوْقَ رَابِيَةٍ صَلْدٍ
كَمُرْضِعَةٍ أَوْلَادُ أُخْرَى وَضَيَعَتْ بَنِي بَطْنِهَا هَذَا الضَّلَالُ مِنَ الْقَصْدِ

قال أبو حاتم رحمه الله: العاقل يبتدئ بالصنائع قبل أن يُسأل؛ لأن الابتداء بالصنعة أحسن من المكافأة عليها، والإمساك عن التعرض خير من البذل، والصنائع إنما تحسن بإتمامها، والتحافظ عليها بعدها؛ لأن بصلاح الخواتم تزكو الأوائل، والعطية بعد المنع أجمل من المنع بعد العطية، والناس في الصنائع على ضربين: شاكرو، وكافرو.

ولقد أنشدني بعض إخواننا:

وَمَا النَّاسُ فِي حُسْنِ الصَّنِيعَةِ عِنْدَهُمْ وَفِي كُفْرِهِمْ إِلَّا كَبَعْضِ الْمَزَارِعِ
فَمَزْرَعَةٌ طَابَتْ وَأَضْعَفَ رَيْعُهَا وَمَزْرَعَةٌ أَكْثَدَتْ عَلَى كُلِّ زَارِعٍ

وأنشدني مُحَمَّد بن عبد الله البغدادي:

وَمَنْ يَضَعِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ ضَائِعًا فِي غَيْرِ حَمْدٍ وَلَا أَجْرِ
وَحَسْبُ امْرِئٍ مِنْ كُفْرِ نُعْمَى جُحُودُهَا إِذَا وَقَعَتْ عِنْدَ امْرِئٍ غَيْرِ ذِي شُكْرِ

وَأُنْشِدْنِي مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ الْوَاسِطِي:

لَعَمْرُكَ مَا الْمَعْرُوفُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ وَفِي أَهْلِهِ إِلَّا كَبَعْضِ الْوَدَائِعِ
فَمُسْتَوْدَعُ ضَاعَ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ وَمُسْتَوْدَعُ مَا عِنْدَهُ غَيْرُ ضَائِعِ

قال أبو حاتم رحمته الله: الهَمَجُ من الناس إذا أُحسن إليه يرى ذلك استحقاقاً منه له، ثُمَّ يرى الفضل لنفسه على المُحسِن إليه، فلا يَحمد عند الخير، ولا يشكر عند البرِّ، ويتعجب مِمَّن يشكر، ويَذمُّ من يَحمد، وإذا امتُحن العاقل بِمثل من هذا نعتَه استعمل معه ما أنشدني الكريزي:

إِنَّ ذَا اللَّوْمِ إِذَا أَكْرَمْتُهُ حَسِبَ الْإِكْرَامَ حَقًّا لَزِمَكَ
فَأَهْنُهُ بِهِ هَوَانٌ إِنَّهُ إِنْ تَهْنُهُ بِهِ هَوَانٌ أَكْرَمَكَ

وَأُنْشِدْنِي الْأَبْرَشَ:

إِذَا أَوْلَيْتَ مَعْرُوفًا لَيْمًا يَعُدُّكَ قَدْ قَتَلْتَ لَهُ قَتِيلًا
فَكُنْ مِنْ ذَاكَ مُعْتَذِرًا إِلَيْهِ وَقُلْ إِنِّي أَتَيْتُكَ مُسْتَقِيلًا
فَإِنْ تَغْفِرْ فَمُجْتَرِمِي عَظِيمٍ وَإِنْ عَاقَبْتَ لَمْ تَظْلِمْ فَتِيلًا
وَلَسْتُ بِعَائِدٍ أَبَدًا لِهَذَا وَقَدْ حَمَلْتَنِي حِمْلًا ثَقِيلًا

قال أبو حاتم رحمته الله: أهناُ الصنائع، وأحسنها في الحقائق، وأوقعها بالقلوب، وأكثرها استدامة للنعم، واستدفاعاً للنقم؛ ما كانت خالية عن المِن في البداية والنهاية، فإذا كانت البداية خالية عن السؤال، والنهاية متعرية عن الامتنان، فهو الغاية في الصنعة، والنهاية في الإحسان.

ولقد أنشدني مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَغْدَادِي:

أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ حَسَنٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَزَمَنٍ

صَنِيعَةٌ مَرُوبُوءَةٌ خَالِيَةٌ مِّنَ الْمُنَنِ

حدثنا مُحَمَّد بن عذار بن مُحَمَّد الحارثي بـ«البصرة»، حدثنا سهل بن زادويه، حدثنا مُحَمَّد بن أَبِي الدواهي عن أبيه قال: قال علي بن أَبِي طالب عليه السلام:

مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا إِذَا أَطَاعَ اللَّهَ مَنْ نَالَهَا

مَنْ لَمْ يُوَاسِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهَا عَرَّضَ لِلْإِدْبَارِ إِقْبَالَهَا

فَاحْذَرِ زَوَالَ الْفَضْلِ يَا حَائِرًا وَأَعْطِ مِنَ الدُّنْيَا لِمَنْ سَالَهَا

فَإِنَّ ذَا الْعَرْشِ سَرِيعُ الْجَزَا يُخْلِفُ بِالْحَبِيبَةِ أُمَّثَالَهَا

حدثنا مُحَمَّد بن المهاجر، حدثنا محمد بن أحمد بن النضر المعني، حدثني سعيد، حدثني أبوك -يعني: أباه أحمد بن النضر- قال: كان بالكوفة قوم من العرب، فأصابت رجلاً منهم حاجة، فكان عياله يغزلون ويبيعون، وكان يشركهم، فقالوا: لا تعود علينا بشيء، وما نكسب تشركنا فيه، فَأُفِنَ من قولهم، فخرج يؤمُّ بغداد، ولم يدخل بغداد قبل ذلك، وليس له حميم ولا قريب بها، فدخلها ومَرَّ على وجهه، فمر على باب يعقوب بن داود كاتب المهدي، فرأى قومًا جلوسًا عليهم بَزَّة، فقال: ما أخلق هؤلاء دُعوا إليَّ وليمة، لو دخلت معهم لعلِّي أصيب شبعة، فاندسَّ معهم، فخرج الأذن، فقال: ادخلوا، فدخلوا إلى دار قوراء كبيرة، وإذا بهوٌّ في صدر الدار، فجلسوا في البهو يَمَنَّة وَيَسْرَة، وأخلوا الصدر فجاء يعقوب فسلم عليهم وقعد، ثُمَّ قال: يا غلام، هات، فجاء بصوان عليها مناديل مغطى بها، وإذا فيها أكياس، فقال: أعطهم، فوضعوا في حجر كل رجل منهم كيسًا، ووضعوا في حجري كيسًا، حَتَّى فرغ منهم، ثُمَّ قال: أعد عليهم، فوضع في حجر كل رجل منهم كيسًا، فوضعوا في حجري كيسًا حَتَّى والى بين خمسة أكياس، ثُمَّ قال: قوموا مباركٌ لكم، وقد تعينه الخدم، وليس له عندهم اسم ولم يعرفوه، فلما بلغ الدهليز ربطوه فصاح وصاحوا، فسمع يعقوب

الصوت، فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل دخل مع هؤلاء القوم لا نعرفه، فقال: عليّ به، فقال له: يا عبد الله، ما أدخلك هذه الدار؟ فقص عليه القصة والسبب الذي دخل له. فقال له: من أين أنت؟ قال: من أهل الكوفة. قال: من يعرفك بالكوفة؟ قال: يعرفني فلان، وفلان، فسمي له قومًا يعرفهم. فقال: خلوا عن الرجل، إنا كاتبون إلى هؤلاء القوم، فإن كان الأمر على ما ذكرت، فتعالى كل سنة في هذا الوقت، ولك عندنا مثل هذا، وكتب إلى القوم، فسألهم فكتبوا بمعرفته، فكان يجيء أيام حياته فيأخذ خمسة آلاف وينصرف.

وحسبنا الله ونعم الوكيل

ذكر الحث على الضيافة وإطعام الطعام

حدثنا حامد بن مُحَمَّد بن شعيب البلخي بـ«بغداد»، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: إني لأستحب للعاقل المداومة على إطعام الطعام، والمواظبة على قرى الضيف؛ لأن إطعام الطعام من أشرف أركان الندى، ومن أعظم مراتب ذوي الحجى، ومن أحسن خصال ذوي النهى، ومن عُرف بإطعام الطعام شُرف عند الشاهد والغائب، وقصده الراضي والعاتب، وقرى الضيف يرفع المرء، وإن رُقَّ نسبه إلى منتهى بغيته، ونهاية محبته، ويشرفه برفيع الذكر، وكمال الذخر.

حدثنا مُحَمَّد بن زنجويه القشيري، حدثنا أبو مصعب، حدثنا الدراوردي، عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: كان إبراهيم الخليل عليه السلام أول من أضاف الضيف.

حدثنا الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب، حدثنا

الأصمعي، أخبرني نافع بن أبي نعيم قال: قال رجل ممن قد أدرك الجاهلية: «قدمت المدينة، فإذا مناد ينادي: من أراد الشحم واللحم فليأت دار دليم، وهو جد سعد بن عبادة بن دليم سيد الخزرج، ثم ضرب الزمان من ضربه، فقدمت المدينة، فإذا مناد ينادي: من أراد الشحم واللحم فليأت دار عبادة، ثم ضرب الزمان من ضربه فقدمتها، فإذا مناد ينادي: من أراد الشحم واللحم فليأت دار سعد.

قال أبو حاتم رحمه الله: كل من ساد في الجاهلية والإسلام حتى عُرف بالسؤدد، وانقاد له قومه، ورحل إليه القريب والقاصي، لم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام الطعام، وإكرام الضيف.

والعرب لم تكن تعدُّ الجود إلا قرى الضيف، وإطعام الطعام، ولا تعد السخي من لم يكن فيه ذلك، حتى إن أحدهم ربما سار في طلب الضيف الميل والميلين.

ولقد حدثني محمد بن المنذر، حدثنا علي بن الحسن الفلستيني، حدثنا أبو بكر السني، حدثنا محمد بن سليمان القرشي قال: بينما أنا أسير في طريق اليمن إذا أنا بسلام واقف على الطريق في أذنيه قرطان، وفي كل قرطة جوهرة يضيء وجهه من ضوء تلك الجوهرة، وهو يُمجده بأبيات من شعر، فسمعتة يقول:

مَلِيكَ فِي السَّمَاءِ بِهِ افْتِخَارِي عَزِيزُ الْقَدْرِ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

فدنوتُ إليه، فسلمت عليه، فقال: ما أنا براد عليك سلامك حتى تؤدي من حقي الذي يجب لي عليك، قلت: وما حقك؟ قال: أنا غلام على مذهب إبراهيم الخليل -صلوات الله عليه-، لا أتغذى ولا أتعشى كل يوم حتى أسير الميل والميلين في طلب الضيف، فأجبتة إلى ذلك، قال: فرحب بي، وسرت معه حتى قربنا من خيمة شعر، فلما قربنا من الخيمة صاح: يا أختاه، فأجابتة جارية من الخيمة: يا لبيكاه. قال: قومي إلى ضيفنا هذا، قال: فقالت الجارية: اصبر حتى نبدأ بشكر المولى الذي سبب لنا هذا الضيف.

قال: فقامت وصَلَّت ركعتين شكرًا لله، قال: فأدخلني الخيمة، فأجلسني، فأخذ الغلام الشَّفْرة، وأخذ عَنَّا قًا له ليذبحها، فلما جلست في الخيمة نظرت إلى جارية -أحسن الناس وجهًا- فكنت أسارقها النظر، فَفَطَنْتُ لبعض لحظاتي، فقالت لي: مه، أما علمت أنه قد نُقِلَ إلينا عن صاحب يثرب -تعني: النبي محمدًا ﷺ-: «إِنَّ زَنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرُ». أما إنِّي ما أردت بهذا أن أوبِّخَكَ، ولكني أردت أن أؤدِّبَكَ لكيلا تعود لمثل هذا.

فلما كان وقت النوم بُتُّ أنا والغلام خارج الخيمة، وباتت الجارية في الخيمة، قال: فكنت أسمع دويَّ القرآن الليل كله -أحسن صوت يكون وأرقه- فلما أن أصبحت قلت للغلام: صوت من كان ذلك؟ فقال: تلك أختي تُحيي الليل كله إلى الصباح، قال: فقلت: يا غلام، أنت أحق بهذا العمل من أختك، أنت رجل وهي امرأة، قال: فتبسّم، ثُمَّ قال: ويحك يا فتى! أما علمت أنه موفَّق ومَخْذُول!!؟

وأنشدني مُحَمَّد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

إِذَا مَا أَتَاكَ الضَّيْفُ فَأَبْدَأْ بِحَقِّهِ قَبِيلَ الْعِيَالِ إِنَّ ذَلِكَ أَصَوْبُ
وَعَظَّمْ حُقُوقَ الضَّيْفِ وَاعْلَمْ بِأَنَّهُ عَلَيْكَ بِمَا تُولِيهِ مُثْنٍ وَذَاهِبُ

أنبأنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم بن مُحَمَّد الذهلي، عن الحسن بن عيسى بن ماسرجس قال: صحبت ابن المبارك من خراسان إلى بغداد فما رأيته أكلَ وحده.

حدثني محمد بن عثمان العقبي، حدثنا أبو أمية، حدثنا عصام بن عمرو أبو حميد الطائي، حدثنا عمرو بن هانئ قال: كان رافع بن عميرة بن عمرو السنبسي -فخذٌ من طيء- يُغَدِّي أهل ثلاثة مساجد، ويعشيهم، يومًا بثراند، ويوم برطبة، يعني: الحيس، وما له قُمْصٌ إلا قميص هو لجمعته وهو للبيت.

قال أبو حاتم رحمه الله: يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ ابْتِغَاءُ الْأَضْيَافِ، وَبِذَلِكَ الْكِسْرُ؛ لِأَنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ إِذَا لَمْ تُصَنَّ بِالْقِيَامِ فِي حَقِّهَا تَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ بَدَأَتْ، ثُمَّ لَا يَنْفَعُ مِنْ

زالت عنه التلهف عليها، ولا الإفكار في الظفر بها، وإذا أدى حق الله فيها استجلب النماء والزيادة، واستذخر الأجر في القيامة، واستنقص إطعام الطعام. وعنصر قرئ الضيف هو ترك استحقار القليل، وتقديم ما حضر للأضياف؛ لأن من حَقَّر منع، مع إكرام الضيف بما قدر عليه، وترك الادخار عنه.

ولقد حدثني كامل بن مكرم، حدثنا مُحَمَّد بن يعقوب الفرجي، حدثنا الوليد بن شجاع، حدثنا عقبة بن علقمة ومبشر بن إسماعيل أنَّهما سألا الأوزاعي: ما إكرام الضيف؟ قال: طلاقة الوجه، وطيب الكلام.

وأنشدني الكريزي في قوم لم يكونوا يضيفون:

أَقَامُوا الدَّيْدَبَانَ عَلَى يَفَاعٍ وَقَالُوا لَا تَنَمَ لِلدَّيْدَبَانِ
إِذَا أَبْصَرْتَ شَخْصًا مِنْ بَعِيدٍ فَصَفَّقْ بِالْبَنَانِ عَلَى الْبَنَانِ
تَرَاهُمْ خَشْيَةَ الْأَضْيَافِ خُرْسًا يُصَلُّونَ الصَّلَاةَ بِلاَ أَذَانِ

قال أبو حاتم رحمه الله: أبخل البخلاء من بخل بإطعام الطعام، كما أن من أجود الجود بذله، ومن ضَنَّ بما لا بد للجنة منه، ولا تربو النفس إلا عليه، كان بغيره أبخل، وعليه أشح.

ومن إكرام الضيف: طيب الكلام، وطلاقة الوجه، والخدمة بالنفس، فإنه لا يذُلُّ من خدم أضيافه، كما لا يعزُّ من استخدمهم، أو طلب لقراه أجرًا.

وأنشدني كامل بن مكرم، أنشدني مُحَمَّد بن سهيل:

وَإِنِّي لَطَلُّ الْوَجْهِ لِلْمُبْتَغِي الْقَرَى وَإِنَّ فِنَائِي لِلْقَرَى لَرَحِيبُ
أُضَاحِكُ ضَيْفِي عِنْدَ انْزَالِ رَحْلِهِ فَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيبُ
وَمَا الْخَصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ

وأنشدني الأبرش:

لَا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّبَذِيرُ وَالسَّرْفُ
وَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرِئِ أَنْ تَجُودَ بِهَا فَالْحَمْدُ مِنْهَا إِذَا مَا أَدْبَرْتَ خَلْفُ

أنبأنا عمر بن محمد الهمداني، ثنا زيد بن أخزم، ثنا سليمان بن حرب، ثنا حماد بن زيد قال: كان أيوب إذا قدم من مكة أمر بخبز فخبز، وأمر بلحم فطبخ؛ فكل من دخل وضع بين يديه، فدخلنا عليه، فقال كل وافدٍ: أكلتُ اليوم كذا وكذا.

أنبأنا الأنصاري، حدثنا الغلابي، حدثنا العقبي، عن أبي مخنف لوط بن يحيى، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه: أن قيس بن سعد بن عبادة خرج من مصر، فمر بأهل بيت من القين فنزل بهم، فنحر لهم صاحب المنزل جزورًا وأتاهم به، فقال: دونكم، فلما كان من الغد نحر لهم آخر، ثم حبستهم السماء اليوم الثالث، فنحر لهم مثله.

فلما أراد قيس أن يرحل وضع عشرين ثوبًا من ثياب مصر وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل، وخرج قيس، فما سار إلا قليلًا حتَّى أتاه صاحب البيت على فرس كريم ورمح طويل، وقدامه الثياب والدراهم، فقال: يا هؤلاء، خذوا بضاعتكم عني، قال قيس: انصرف أيها الرجل، فإننا لم نكن لناخذها، فقال الرجل: لتأخذنَّها، أو لا ينفذ منكم رجل، أو تذهب نفسي، فعجب قيس منه، وقال: لِمَ؟ لله أبوك! ألم تكرمنا وتحسن إلينا؟ فكافأناك، ما في هذا من بأس، فقال الرجل: إنا لا نأخذ لِقَرَى ابن السبيل، وقرئ الضيف ثمنًا، لا والله لا أفعل أبدًا، قال لهم قيس: أما إذا أبى فخذوها منه، فأخذوها، ثم قال قيس: ما فضلني رجل غير هذا.

حدثنا أحمد بن عمرو الزُّبَيْي بِ«البصرة»، حدثنا الحسن بن مدرك السدوسي، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله القرشي، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: لأن أشبع كبدًا جائعة أحب إليَّ من حجة بعد حجة.

حدثنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا عيسى بن أبي موسى الأنصاري،
حدثني أبي، حدثنا أحمد بن بشير، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: كان من دعاء
قيس بن سعد بن عبادة: «اللهم ارزقني مَالاً وفعالاً؛ فإنه لا تصلح الفعال إلا بالمال».

ذكر الحث على المجازاة على الصنائع

حدثنا الفضل بن الحباب الجمحي، حدثنا عبد الرحمن بن بكر بن الربيع بن
مسلم، قال: سمعت الربيع بن مسلم يقول: سمعت مُحَمَّد بن زياد يقول: سمعت
أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على من أسدي إليه معروف أن يشكره بأفضل
منه أو مثله؛ لأن الإفضال على المعروف في الشكر لا يقوم مقام ابتدائه وإن قلَّ،
فمن لم يجد فليثن عليه؛ فإن الثناء عند العدم يقوم مقام الشكر للمعروف، وما
استغنى أحد عن شكر أحد.

ولقد أنشدني مُحَمَّد بن زنجي البغدادي:

فَلَوْ كَانَ يَسْتَغْنِي عَنِ الشُّكْرِ مَا جِدَّ لِعِزَّةٍ مُلْكٍ أَوْ عُلوٍّ مَكَانٍ
لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِشُكْرِهِ فَقَالَ اشْكُرُونِي أَيُّهَا الثَّقَلَانِ

وأنشدني الكريزي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَشْكُرْ قَلِيلًا أَصَابَهُ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الْكَثِيرِ شُكُورُ
وَمَنْ يَشْكُرِ الْمَخْلُوقَ يَشْكُرُ لِرَبِّهِ وَمَنْ يَكْفُرِ الْمَخْلُوقَ فَهُوَ كَفُورُ

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

حَافِظٌ عَلَى الشُّكْرِ كَيْ تَسْتَجِزَلَ الْقِسْمَا مَنْ ضَيَّعَ الشُّكْرَ لَمْ يَسْتَكْمِلِ النِّعَمَا
الشُّكْرُ لِلَّهِ كَنْزٌ لَا نَفَادَ لَهُ مَنْ يَلْزِمُ الشُّكْرَ لَمْ يَكْسِبْ بِهِ نَدَمَا

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا العقبِي قال: مرَّ سعيد بن العاص بدار رجل بالمدينة فاستسقى فسقوه، ثُمَّ مر بعد ذلك بالدار ومنادٍ ينادي عليها فيمن يزيد، فقال لمولاه: سل لِمَ تباع هذه؟ فرجع إليه فقال: على صاحبها دين. قال: فارجع إلى الدار، فرجع، فوجد صاحبها جالسًا وغريمه معه، فقال: لِمَ تبيع دارك؟ قال: لهذا عليَّ أربعة آلاف دينار، فنزل وتحدث معهما، وبعث غلامه فأتاه ببذرة فدفع إلى الغريم أربعة آلاف، ودفع الباقي إلى صاحب الدار، وركب ومضى.

وأنشدني المنتصر بن بلال:

وَمَنْ يُسَدِّ مَعْرُوفًا إِلَيْكَ فَكُنْ لَهُ
وَلَا تَبْخَلَنَّ بِالشُّكْرِ وَالْقَرْضِ فَاجْزِهِ
شُكُورًا يَكُنْ مَعْرُوفُهُ غَيْرَ ضَائِعٍ
تَكُنْ خَيْرَ مَصْنُوعٍ إِلَيْهِ وَصَائِعٍ

وأنشدني بعض أهل العلم:

فَكُنْ شَاكِرًا لِلْمُنْعِمِينَ بِفَضْلِهِمْ
وَمَنْ كَانَ ذَا شُكْرٍ فَأَهْلُ زِيَادَةٍ
وَأَفْضَلُ عَلَيْهِمْ إِذَا قَدِرْتَ وَأَنْعَمَ
وَأَهْلٌ لِبَذْلِ الْعُرْفِ مَنْ كَانَ يُنْعَمُ

وأنشدني الكريزي:

أَحَقُّ النَّاسِ مِنْكَ بِحُسْنِ عَوْنٍ
وَأَشْكَرُهُمْ أَحَقُّهُمْ جَمِيعًا
لَمَنْ سَلَفَتْ لَكُمْ نِعَمٌ عَلَيْهِ
بِحُسْنِ صَنِيعَةٍ مِنْكُمْ إِلَيْهِ

قال أبو حاتم رحمته الله: الحرُّ لا يكفرُ النعمة، ولا يتسخط المصيبة، بل عند النعم يشكر، وعند المصائب يصبر، ومن لم يكن لقليل المعروف عنده وقع أو شك ألا يشكر الكثير منه، والنعم لا تستجلب زيادتها ولا تدفع الآفات عنها إلا بالشكر لله - عز وجل وعلا-، ولمن أسداها إليه.

ولقد حدثني أحمد بن مُحمَّد القيسي، حدثني مُحمَّد بن المنذر، حدثنا

إسحاق ابن إبراهيم القرشي قال: سمعت أبا عبيدة معمر بن المثنى يقول: ماتت لعبيد بن معمر بنت، فقعده في المأتم في مسجده في سكة سبانوش، فجاء عبيد الله بن أبي بكرة مُعَزِّيًا، وإذا الأشراف قد أخذوا مواضعهم، فنظر إليه رجل قد كان سبق إلى مجلسه مع الأشراف قد عرفه، فقام قائمًا، وجعل يقول له: هاهنا، حتَّى أخذ بيده فأقعده في مجلسه، ثُمَّ ذهب فقعده في أخريات الناس، فأمر عبيد الله غلامًا كان معه أن يتعاهده إلى قيامه، فلما قام دعا الرجل، فقال: أتعرفني؟ قال: نعم، قال من أنا؟ قال: أنت عبيد الله بن أبي بكرة صاحب رسول الله ﷺ قال: فما حملك على ترك مجلسك لي؟ قال: إجلالاً لولد أصحاب رسول الله ﷺ وما أوجب الله على أمثالي خصوصًا من التبجيل لك، فقال له عبيد الله: هل لك على أن تصحبنا إلى ضيعة نريد أن نصير إليها؟ قال: نعم.

قال فصحبه الرجل إلى تلك الضيعة في نهر مكحول، ضيعة فيها ثلثمائة جريب نخل، وعلى وجه الضيعة قصر بُني بأجرٍ وجص وخشب ساج، فلما دخل الضيعة أخذ عبيد الله بيد الرجل، وجعل يدور به في تلك النخيل، فقال للرجل: كيف ترى هذه الضيعة؟ قال: تالله ما رأيت نخيلًا أحسن منها، ولا أكثر ثمرة ولا أسرى ضيعة منها، قال: فقد جعلناها لك بما فيها من الخدم والآلة نبعث إليك بصكها، قال: فاستطار الرجل فرحًا وبكى، وقال: أنعشتني وأنعشت عيالي، فقال عبيد الله: وكم لك من العيال؟ قال: ثلاثة عشر نفسًا، قال: فإنني قد جعلت اسم عيالك في اسم عيالي، أنفق عليهم ما عشت.

وقال له عبيد الله: من تكون له مثل هذه الضيعة يحتاج أن يكون منزله في سُرَّة البصرة، إذا صرنا إلى منزلنا فاغد علينا نأمر لك بشراء دار تشبه هذه الضيعة، ورأس مال وخدم تصلح لدارك تعيش بها -إن شاء الله-.

قال: فغدا الرجل عليه، فأمر له بشراء دار بخمسة آلاف دينار، وأعطاه عشرة آلاف دينار، ودفع إليه صك الضيعة، وأمر له بدابة وبغل وسائس وكسوة وصرفه.

وأنشدني الأبرش:

الشُّكْرُ يَفْتَحُ أَبْوَابًا مُغْلَقَةً اللَّهُ فِيهَا عَلَى مَنْ رَامَهُ نِعَمٌ
فَبَادِرِ الشُّكْرَ وَاسْتَغْلِقْ وَثَائِقَهُ وَاسْتَدْفِعِ اللَّهَ مَا تَجْرِي بِهِ النَّقْمُ

حدثنا أحمد بن الحسن المدائني بـ«مصر» قال: سمعت الربيع بن سليمان يقول: أخذ رجل بركاب الشافعي، فقال: يا ربيع، أعطه أربعة دنائير، قال: فأعطيته إياها.

وأنشدني مُحَمَّد بن إِسحاق بن حبيب:

وَمَنْ يَشْكُرِ الْعُرْفَ الصَّغِيرَ فَإِنَّهُ سَيْنَمِي وَيَجْتَرُّ الْمَزِيدَ أَصَاغِرُهُ
وَمَنْ يَشْكُرِ الْمَعْرُوفَ يَحْمَدُ إِلَهَهُ وَيُضْعَفُ أَضْعَافًا عَلَى الْحَمْدِ شَاكِرُهُ

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

وَإِذَا اضْطَنَعْتَ إِلَى أَخِي كَ صَنِيعَةٍ فَاَنْسَ الصَّنِيعَةَ
وَالشُّكْرُ مِنْ كَرَمِ الْفَتَى وَالْكُفْرُ مِنْ لُؤْمِ الطَّبِيعَةِ
وَالصَّبْرُ أَكْرَمُ صَاحِبٍ فَاصْحَبْهُ إِنْ نَزَلَتْ فَجِيعَةُ

حدثنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم بن مُحَمَّد الذهلي،

حدثنا أحمد بن خليل، حدثنا يحيى بن أيوب، عن أبي عيسى قال: كان إبراهيم بن أدهم إذا صنع إليه أحد معروفًا حرص على أن يكافئه، أو يتفضل عليه.

قال أبو عيسى: فلقيني يومًا وأنا على حمار، وأنا أريد بيت المقدس، جائيًا

من الرملة، قال: وقد اشتري بأربعة دنانير تفاحًا وسفَرَجَلًا وخوخًا وفاكهة، فقال:

يا أبا عيسى: أحب أن تحمل هذا، قال: وإذا عجوز يهودية في كوخ لها، فقال:

أحب أن توصل هذا إليها، فإني مررت وأنا مُمَسِّسٌ، فبيستني عندها، فأحب أن

أكافئها على ذلك.

وَأُنْشِدْنِي الْكَرِيزِي:

يَدُ الْمَعْرُوفِ غُنْمٌ حَيْثُ تُسَدَّى
تَحْمَلُهَا شُكُورٌ أَمْ كَفُورٌ
كَفَى شُكْرُ الشُّكُورِ لَهَا جَزَاءً
وَعِنْدَ اللَّهِ مَا كَفَرَ الْكُفُورُ

وَأُنْشِدْنِي بَعْضَ أَهْلِ الْأَدَبِ:

رَهَنْتُ يَدَيَّ لِلْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بَرِّهِ
وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يُسْتَطَاعُ اسْتِطَاعَتُهُ
وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على المرء أن يشكر النعمة، ويحمد المعروف على حسب وسعه وطاقته، إن قدر فبالضعف، وإلا فبالمثل، وإلا فبالمعرفة بوقوع النعمة عنده، مع بذل الجزاء له بالشكر، وقوله: جزاك الله خيرًا، فمن قال له ذلك عند العدم فكأنه أبلغ في الثناء.

ومن الناس من يكفر النعم، وكُفْران النعم يكون من أحد رجلين:

- إما رجل: لا معرفة له بأسباب النعم والمجازاة عليها، لِمَا لَمْ يَرْكَبْ فِيهِ من التفقد لمراعاة العشرة، فإذا كان كذلك وجب الإغضاء عنه، وترك المناقشة على فعله.

- والرجل الآخر: أن يكون ذا عقل لَمْ يشكر النعمة، استخفافًا بالمنعم، واستحقارًا للنعمة، وتهاونًا في نفسه لهما أو لأحدهما، فإذا كان كذلك يجب على العاقل ترك العود إلى فعل مثله، والخروج باللائمة على نفسه إذا كان له خبرة به.

ولقد أنشدني علي بن محمد:

عَلَامَةُ شُكْرِ الْمَرْءِ إِعْلَانُ حَمْدِهِ
فَمَنْ كَتَمَ الْمَعْرُوفَ مِنْهُمْ فَمَا شَكَرُ
إِذَا مَا صَدِيقِي نَالَ خَيْرًا فَخَانَنِي
فَمَا الذَّنْبُ عِنْدِي لِلَّذِي خَانَ أَوْ فَجَزَ

وَلَكِنْ إِذَا أَكْرَمْتُهُ بَعْدَ كُفْرِهِ فَإِنِّي مَلُومٌ حَيْثُ أَكْرِمُ مَنْ كَفَرَ

وأنشدني مُحَمَّد بن إِسحاق بن حبيب:

إِذَا أَنَا أَعْطَيْتُ الْقَلِيلَ شَكَرْتُمْ وَإِن أَنَا أَعْطَيْتُ الْكَثِيرَ فَلَا شُكْرُ
وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حُقُوقِكُمْ وَقَدْ كَانَ لِي فِيْمَا اعْتَذَرْتُ بِهِ عُذْرُ

قال أبو حاتم رحمه الله: إِنِّي لَأَسْتَحِبُّ لِلْمَرْءِ أَنْ يُلْزَمَ الشُّكْرَ لِلصَّنَائِعِ وَالسَّعْيِ
فِيهَا مِنْ غَيْرِ قَضَائِهَا إِذَا كَانَ الْمَنْعَمُ مِنْ ذَوِي الْقَدْرِ فِيهِ، وَالْإِهْتِمَامُ بِالصَّنَائِعِ؛ لِأَنَّ
الْإِهْتِمَامَ رَبِّمَا فَاقَ الْمَعْرُوفَ، وَزَادَ عَلَى فِعْلِ الْإِحْسَانِ؛ إِذَا الْمَعْرُوفُ يَعْمَلُهُ الْمَرْءُ
لِنَفْسِهِ، وَالْإِحْسَانَ يَصْطَنَعُهُ إِلَى النَّاسِ، وَهُوَ غَيْرُ مَهْتَمٍ بِهِ، وَلَا مَشْفُوقٍ عَلَيْهِ، وَرَبِّمَا
فَعَلَهُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ مُتَكَارَهُ، وَالْإِهْتِمَامُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ فَرَطِ عَنَاءٍ وَفَضْلٍ وَدٍّ،
فَالْعَاقِلُ يَشْكُرُ الْإِهْتِمَامَ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهِ لِلْمَعْرُوفِ.

أنشدني عبد العزيز بن سليمان:

لَأَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتُ بِهِ إِنَّ اهْتِمَامَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ
وَلَا أَلُومُكَ إِنْ لَمْ يُمِضْ بِهِ قَدَرٌ فَالْشَيْءُ بِالْقَدَرِ الْمَجْلُوبِ مَضْرُوفُ

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

بَطَرَ النُّعْمَةُ مَنْ ضَيَّعَهَا وَمُضِيعُ الشُّكْرِ مُسْتَدْعِي الْغَيْرِ
فَاجْعَلِ الشُّكْرَ عَلَيْهَا حَارِسًا رُبَّمَا ابْتَرَزَ الْفَتَى النُّعْمَى الْبَطَرَ

حدثني عمرو بن مُحَمَّد، حدثنا محمد بن زكريا، حدثنا عبيد الله بن
محمد العيشي، حدثنا علي بن مُحَمَّد قال: مرَّ عمر بن هبيرة -لَمَّا انصرف في
طريقه- فسمع امرأة من قيس تقول: لا والذي [أسأله أن] ينجي عمر بن هبيرة،
فقال: يا غلام، أعطها ما معك، وأعلمها أَنِّي قد نَجَوْتُ.. وبالله التوفيق.

ذكر الحث على سياسة الرياسة ورعاية الرعية

حدثنا عبد الله بن قحطبة، حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبري، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا سفيان، حدثنا عبد الله بن دينار قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ رَاعٍ عَلَى رَعِيَّتِهِ، وَمَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: صَرَّحَتِ السُّنَّةُ عَنِ الْمَصْطَفِيِّ ﷺ بِأَنَّ كُلَّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ رَاعِيًا لَزُومِ التَّعَاهُدِ لِرَعِيَّتِهِ، فِرْعَاةُ النَّاسِ الْعُلَمَاءِ، وَرَاعِي الْمُلُوكِ الْعَقْلُ، وَرَاعِي الصَّالِحِينَ تَقْوَاهُمْ، وَرَاعِي الْمُتَعَلِّمِ مُعَلِّمُهُ، وَرَاعِي الْوَلَدِ وَالِدُهُ، كَمَا أَنَّ حَارِسَ الْمَرْأَةِ زَوْجُهَا، وَحَارِسَ الْعَبْدِ مُوَلَاةُ، وَكُلُّ رَاعٍ مِنَ النَّاسِ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

وأكثر ما يَجِبُ تعاهد الرعية للملوك؛ إذ هم رعاةُ لها، وهم أرفع الرعاة لكثرة نفاذ أمورهم، وعقدُ الأشياء وحلُّها من ناحيتهم، فإذا لم يراعوا أوقاتهم، ولم يَحْتَاطُوا لرعيَّتِهِمْ هَلَكُوا وَأَهْلَكُوا، وَرَبِّمَا كَانَ هَلَاكُ عَالَمٍ فِي فساد ملك واحد، ولا يدوم مُلْكُ ملكٍ إلا بأعوان تطيعه، ولا يطيعه الأعوان إلا بوزير، ولا يتم ذلك إلا أن يكون الوزير ودودًا نصوحًا، ولا يوجد ذلك من الوزير إلا بالعفاف والرأي، ولا يتم قِوَامُ هؤلاء إلا بالمال، ولا يوجد المال إلا بصلاح الرعية، ولا تصلح الرعية إلا بإقامة العدل، فكأن ثبات الملك لا يكون إلا بلزوم العدل، وزواله لا يكون إلا بمفارقة.

فالواجب على الملك أن يتفقد أمور عماله، حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ، وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ أَعْمَالُ عَمَالِهِ لَمْ يَكُنْ قَائِمًا بِالْعَدْلِ. وكل رياسة لم تكن مشوبة بتقوى الله تكون خساسة -لا رياسة-، والاحتواء

على الرياسة من غير تقوى كالقاعد على الكُناسة.

كما قال بعضهم:

رِيَاسَاتُ الرَّجَالِ بِغَيْرِ دِينٍ وَلَا تَقْوَى الْإِلَهِ هِيَ الْخَسَاسَةُ
وَكُلُّ رِيَاسَةٍ مِنْ غَيْرِ تَقْوَى أَذَلُّ مِنَ الْجُلُوسِ عَلَى الْكُنَاسَةِ
وَأَشْرَفُ مَنْزِلٍ وَأَعَزُّ عِزٍّ وَخَيْرُ رِيَاسَةٍ تَرْكُ الرِّيَاسَةِ

ولقد أنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

إِذَا سُسْتُ قَوْمًا فَاجْعَلِ الْعَدْلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكَ تَأْمَنُ كُلُّ مَا تَتَخَوَّفُ
وَإِنْ خِفْتَ مِنْ أَهْوَاءِ قَوْمٍ تَشْتَتَا فَبِالْجُودِ فَاجْمَعْ بَيْنَهُمْ يَتَأَلَّفُوا

حدثنا عمرو بن مُحَمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب القاضي، حدثنا الأصمعي قال: قال ملك بُخَارِستان لنصر بن سَيَّار: ينبغي للأمير أن يكون له ستة أشياء: وزير يثق به، ويفضي إليه بسرّه، وحصان يلجأ إليه فإذا فزع أنجاه، يعني: فرسًا، وسيف إذا نازل به الأقران لم يخف أن يخونه، وذخيرة خفيفة المحمل إذا نابته نائبة أخذها، وامرأة إذا دخل إليها أذهبت همّه، وطباخ إذا لم يشته الطعام صنع له شيئًا يشتهيه.

قال أبو حاتم رحمته الله: لا يجب للسلطان أن يفرط البشاشة والهشاشة للناس، ولا أن يُقَلَّ منهما، فإن الإكثار منهما يؤدي إلى الخفة والسخف، والإقلال منهما يؤدي إلى العجب والكبر، ولا ينبغي له أن يغضب؛ لأن قدرته من وراء حاجته، ولا له أن يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه، ولا له أن يبخل؛ لأنه لا عذر له في منع الأموال والجاه معًا، ولا له أن يحقد؛ لأنه يجب أن يترفع عن المجازاة، فأفضل السلطان من لم يُخالطه البَطَرُ، وأعجزهم: آخذهم بالهُوينا وأقلهم نظرًا في العواقب، وخير السلطان من أشبه النّسر حوله الجيف، لا من أشبه الجيف حولها النسور.

ويجب عليه استبقاء الرياسة، وما فيها من نعم الله عليه، بلزوم تقوى الله وتفقد أمور الرعية، وإنصاف بعضهم بعضاً؛ لأنه ما من قوي في الدنيا إلا وفوقه أقوى منه، فمتى ما عرف السلطان فضل قوته على الضعفاء فغره ذلك من قوة الأقوياء؛ كانت قوته حيناً عليه وهلاكاً له، والضعيف المحترس أقرب إلى السلامة من القوي المغتر؛ لأن صرعة الاسترسال لا تكاد تستقال، ولا يجب أن يعجل في سلطانه بعقاب من يخاف أن يندم عليه، ولا يثقن بمن عاقبه من غير جرم.

وما أشبه السلطان إلا بالنار، إن قصرت بطل نفعها، وإن جاوزت عظم ضررها، فخير السلطان من أشبه الغيث في أحيائه في نفع من يليه، لا من أشبه النار في أكلها ما يليها.

والسلطان إذا كان عادلاً خيراً من المطر إذا كان وابلاً، وسلطان غشوم خيراً من فتنة تدوم، والناس إلى عدل سلطانهم أحوج منهم إلى خصب ديارهم. ولقد حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا مرجى بن المؤمل بن المثنى المري، عن أبيه قال: قال الأحنف بن قيس: «الوالي من الرعية مكان الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا به، وموضع الرأس من أركان الجسد الذي لا بقاء له إلا معه».

وأشدني ابن زنجي البغدادي للأفوه الأودي:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَِّاهُ لَهُمْ سَادُوا
وَالْبَيْتُ لَا يُبْنَى إِلَّا بِأَعْمَدَةٍ وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ
فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتَادُ وَأَعْمَدَةٌ وَسَاكِنٌ أَدْرَكُوا الْأَمْرَ الَّذِي كَادُوا
تُهْدَى الْأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالْأَشْرَارِ تَنْقَادُ

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على السلطان قبل كل شيء أن يبدأ بتقوى الله وإصلاح سريرته بينه وبين خالقه، ثم يفكر فيما قلده الله من أمر إخوانه، ورفع

عليهم؛ ليعلم أنه مسئول عنهم في دق الأمور وجلها، ومُحاسبٌ على قليلها وكثيرها، ثُمَّ يتخذ وزيرًا صالحًا عاقلًا عفيفًا نصحًا، وعمالًا صالحين بَرَرة راشدين، وأعوانًا مستورين، وخدمًا معلومين، ثُمَّ يقلد عماله ما لا غنى له عنهم، ويشترط عليهم تقوى الله وطاعته، وأخذ المال من حله، وتفريقه في أهله.

ثُمَّ يتفقد أمر بيت المال بأن لا يدخله حبة فما فوقها من قهر أو جور، أو سلب أو نهب أو رشوة؛ فإنه مسئول عن كل ذرة منه، ومُحاسب على كل حبة فيه، ثُمَّ لا يخرجها إلا في المواضع التي أمر الله -جل وعلا- في سورة الأنفال.

ثُمَّ يتفقد أمور الحرمين وطريق الحاج ومُجاوري بيت الله، وقبر رسول الله ﷺ، ثُمَّ يتفقد ثُغور المسلمين، ولا يولي على الثُغور من عماله إلا من يعلم أن القتل في سبيل الله يكون أثر عنده من البقاء في الدنيا ليغزي الناس ولا يعطل الثُغر.

ثُمَّ يتفقد ثُغورَ المسلمين ومراقبهم والأبرجة التي بين المسلمين وبين عدوهم، بأن يعمرها ويقيم فيها أعيانًا من المسلمين تتجسس أخبار العدو، ويُجري عليهم من بيت مالهم.

ثُمَّ يتفقد أولاد المهاجرين والأنصار بعطاياهم ويعرف فضيلتهم، وسابقة آبائهم، وأنه إنَّما نال ما نال بهم.

ثُمَّ يتفقد أمور الحكام بآل يولي أحدًا على قضاء المسلمين إلا من يعلم منه العفاف والعلم، وترك الميل إلى الهوى، والحكم بغير ما يوجهه العلم.

ثُمَّ يتفقد أهل العلم والقراء والمؤذنين والصالحين وضعفاء المسلمين، وليكن لمن هو أصغر سنًا منه أبًا، ولمن هو أكبر منه ابنًا، ولأترابه أخًا، فيكون في تفقد أمورهم ولصالح أسبابهم أكثر من تفقدهم بأنفسهم.

ثُمَّ يختار من الرعية أقوامًا أمناء، يبعث بهم في كل سنة إلى المدن؛ ليشرفوا على العمال والحكام، ويتفقدوا أسبابهم وسيرهم، ويخبروه بها، فيعزل من استحق منهم العزل، ويقر من اتبع الحق.

ثُمَّ يجعل لنفسه موضعًا لا يمنع منه لطرح القصص، ويبرز للرعية في كل يوم، أو في كل ثلاثة أيام، أو في كل أسبوع، ليرفعوا إليه حوائجهم، وليجتنب الحدة، وليلزم الحلم الدائم فيما يرد عليه من أشياءهم.

وقد حدثنا عبد الله بن قحطبة، حدثنا مُحَمَّد بن زنبور، حدثنا أبو بكر بن عياش: أن أهل الجاهلية لم يكونوا يُسودّون عليهم أحدًا لشجاعة ولا لسخاء، إنّما كانوا يسودّون من إذا شَتِمَ حَلَمٌ، وإذا سئل حاجة قضاها، أو قام معهم فيها. وأنشدني الأبرش:

وَقَدْ يُبْغِضُ الْحَيَّاتِ أَوْلَادُ آدَمَ وَأَبْغَضُ مَا فِيهَا إِلَيْهِمْ رُءُوسُهَا
وَمَا ابْتَلَيْتَ يَوْمًا بِشَرِّ قَبِيلَةٍ أَضَرَّ عَلَيْهَا مِنْ سَفِيهِ يَسُوسُهَا
قال أبو حاتم رحمه الله: لا يستحق أحد اسم الرياسة حتّى يكون فيه ثلاثة أشياء: العقل، والعلم، والمنطق.

ثُمَّ يتعرّى عن ستة أشياء: عن الحدة، والعجلة، والحسد، والهوى، والكذب، وترك المشاورة.

ثُمَّ ليلزم في سياسته على دائم الأوقات ثلاثة أشياء: الرفق في الأمور، والصبر على الأشياء، وطول الصمت.

فَمَنْ تعرّى عن هذه الأشياء -وهو ذو سلطان- عمي عليه قلبه، وتشتت عليه أموره، ومن لم يكن فيه خصلة من هذه الخصال نقص من ضوء بصر قلبه مثلها، ودخل الخلل في أموره نحوها.

وإنّما مثل الرئيس والرعية، كمثّل جماعة عميان ليس لهم إلا قائد واحد، فإن لم يكن ذلك القائد أحدّ الناس بصراً، وألطفهم نظراً، كان خليقاً أن يوقعهم وإياه في وهدة تندقّ فيها أعناقهم وعنقه معهم.

والواجب على السلطان ألا يغفل عن الأشياء الأربعة الّتي صلاحه في دينه ودنياه فيها، وهي ما.

حدثنا به عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا عبيد الله بن محمد العيشي، حدثنا المدائني قال: «خرج الزهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيت كالיום، ولا سمعت به كأربع كلمات تكلم بهنَّ رجل أنفًا عند هشام بن عبد الملك، فقيل له: وما هنَّ؟ قال: قال له رجل: يا أمير المؤمنين، احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاحُ ملكك، واستقامة رعيتك. قال: هاتهن، قال: لا تعدن عدة لا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يغرنك المرتقى، وإن كان سهلاً، إذا كان المنحدر وعراً، واعلم أن للأعمال جزاءً، فاتق العواقب، وأن للأمور بغتات، فكن على حذر.

وأنشدني المنتصر بن بلال:

بَلَاءُ النَّاسِ مُذْ كَانُوا إِلَى أَنْ تَأْتِيَ السَّاعَةُ
يُحِبُّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَحُبُّ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ

قال أبو حاتم رحمته الله: لا يجب للعاقل طلب الإمارة؛ لأن من أوتيها عن مسألة وكلَّ إليها، ومن أعطيها من غير مسألة أُعِين عليها، ومن اشتهر بالرياسة فليحترز؛ لأن الريح الشديدة لا تُحطم الكلاً، وهي تُحطم دُوح الشجر ومَشِيد البنيان.

وليلزم المشورة؛ فإن في المشورة صلاح الرعية ومادة الرأي، وليصطنع إلى الناس كافة في الوقت الذي يقدر على الصنائع والمعروف قبل أن يجيئه الوقت الذي يفقد فيه القدرة عليها، وليعتبر بمن كان قبله من الملوك والأمراء والسادة والوزراء؛ لأن من ظفر بأمر جسيم فأضاعه فاته، ومن أمكته الفرصة فأخَّر العمل فيها لا تكاد تعود إليه.

والسلطنة إنما هي قول الحق والعمل بالعدل، لا التفاخر في الدنيا واستعمال البذل.

ولقد حدثنا مُحَمَّد بن سعيد القزاز، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجندي، حدثنا عبد الله بن سليمان قال: قال أبو عمرو بن العلاء: «كان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال وتَمَاهَن فِي الإسلام السابعة: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والتواضع، وتَمَاهَن فِي الإسلام: الحياء».

وَأُشَدِّنِي الكريزي:

إِذَا نِلْتَ الْإِمَارَةَ فَاسْمُ فِيهَا إِلَى الْعُلَيَاءِ بِالْعَمَلِ الْوَثِيقِ
بِمَخْضِ خَلِيقَةٍ لَا عَيْبَ فِيهَا وَلَيْسَ الْمَخْضُ كَاللَّبَنِ الْمَذِيقِ
وَلَا تَكُ عِنْدَهَا حُلُوفًا فَتُحْسَى وَلَا تُرَافَقَنَّ شَبَّ فِي الْحُلُوقِ
وَكُلْ إِمَارَةً إِلَّا قَلِيلًا مُغَيَّرَةُ الصَّدِيقِ عَنِ الصَّدِيقِ

قال أبو حاتم رحمته الله: من صحب السلطان فلا يجب أن يكتمه نصيحته؛ لأن من كتم السلطان نصيحته، والأطباء مرضه، والإخوان بئنه؛ فقد خان نفسه، ومن يصحب السلطان لا ينجو من الآثام، كما أن راكب العجل لا يأمن العثار، ولا يجب أن يأمن غضب السلطان إن صدقه، ولا عقوبته إن كذبه، ولا يجترئ عليه، وإن أدناه؛ لأن الحازم العاقل لا يشرب السُّم اتكالا على ما عنده من الترياق والأدوية.

وإني لأستحب لمن امتحن بصحبة السلطان أن يعلمه لزوم تقوى الله، والعمل الصالح، كأنه يتعلم منه، ويؤدبه كأنه يتأدب به، ويتقي سخطاته، والسخط إذا كان من علة كان الرضا عنه موجودا، وإذا كان من غير علة ينقطع حينئذ الرجاء.

ولا يجب للرعية أن نعلم كل ما تأتي الملوك من أمورها؛ لأن في معرفتهم إياها بعض الفتنة وهيهات! من ذا صحب السلطان فلم يُفْتَن، ومن اتبع الهوى فلم يعطب؟ إن الشجرة الحسنة ربما كان سبب هلاكها طيب ثمرتها، وربما كان

ذنبُ الطاوس الذي فيه جَماله سبب حتفه؛ لأنه يثقله حتَّى يَمْنعه من الهرب، ومن صحب السلطان لم يأمن التغير على نفسه؛ لأن الأنهار إنَّما تكون عذبة ما لم تنصب إلى البحور، فإذا وقعت في البحور ملحت.

على أن قعود العلماء عن أبواب الملوك زيادة في نور علمهم، وكثرة غشيانهم إياهم غشاوة على قلوبهم، ومن صحب الملوك لم يأمن تغيرهم، ومن زايلهم لم يأمن تفقدهم، وإن قطع الأمور دونهم لم يأمن فيها مُخالفتهم، وإن عزم على شيء لم يجد بُدًّا من مؤامرتهم، وأُسمج شيء في الملوك الحدة.

ولقد حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا المبارك بن سعيد الثوري قال: كان يقال: خمس خلال هنَّ أقبح شيء فيمن كنَّ فيه: الحدة في السلطان، والكبر في ذي الحسب، والبخل في الغني، والحرص في العالم، والفتوة في الشيخ.

قال أبو حاتم رحمته الله: رؤساء القوم أعظمهم همومًا، وأدومهم غموماً، وأشغلهم قلوبًا، وأشهرهم عيوبًا، وأكثرهم عدوًّا، وأشدَّهم أحزانًا، وأنكاهم أشجانًا، وأكثرهم في القيامة حسابًا، وأشدَّهم - إن لم يعف الله عنهم - عذابًا.

ومن أحسن ما يستعين به السلطان على أسبابه: اتِّخاذ وزير عفيف ناصح على ما تقدم ذكرنا له، فإن الوزير إذا غفل الأمير ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن سولت له نفسه سيئة صدّه، وإن أراد طاعة نشَّطه، فهو المحبَّبُ له إلى الناس، والمستجلب له دعاءهم.

ولقد أنشدني علي بن مُحمَّد البسامي:

إِذَا نَسِيَ الْأَمِيرُ قَضَاءَ حَقٍّ فَإِنَّ الذَّنْبَ فِيهِ لِلْوَزِيرِ
لِأَنَّ عَلَى الْوَزِيرِ إِذَا تَوَلَّى أُمُورَ النَّاسِ تَذْكِيرَ الْأَمِيرِ

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على كل من يغشى السلطان، وامتنح بصحبته

ألا يعد شتمه شتمًا، ولا إغلاظه إغلاظًا، ولا التقصير في حقه ذنبًا؛ لأن ربح العزة بسطت لسانه ويده بالغلظة، فإن أنزله الوالي منزلة رفيعة من نفسه فلا يثقل بها، وليجانب معه الكلام الملق والإكثار من الدعاء في كل وقت، وكثرة الانبساط، فرب كلمة أثارت الوحشة، بل يجتهد في توقيره وتعظيمه عند الناس، فإن غضب فليحتل في تسكين غضبه باللين والمداراة، ولا يكون سببًا لتهيجه.

ولقد حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا الغلابي، حدثنا ابن عائشة، عن أبيه قال: بعث أبو جعفر إلى جعفر بن محمد قال: إنني أستشيرك في أمر، إنني قد تأملت أهل المدينة مرة بعد أخرى فلا أراهم يرجعون، ولا يُعْتَبُونَ، وقد رأيت أن أبعث فأحرق نخلها، وأغور عيونها، فما ترى؟

فسكت جعفر، فقال: ما لك لا تكلم؟ قال: إن أذنت لي تكلمت. قال: قل. قال: يا أمير المؤمنين، إن سليمان [عليه السلام] أُعطي فشكر، وإن أيوب [عليه السلام] ابتلي فصبر، وإن يوسف [عليه السلام] قَدَرَ فغفر، وقد جعلك الله من النسل الذي يعفون ويصفحون، قال: فطفئ غضبه وسكن.

حدثني محمد بن أبي علي الخلادي، حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد، عن محمد بن حميد بن فروة، عن أبيه، قال: لما استقرت للمأمون الخلافة، دعا إبراهيم ابن المهدي المعروف بابن شكلة، فوقف بين يديه، فقال: أنت المتوثب علينا تدعي الخلافة؟

فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، أنت ولي الثأر، مُحَكَّمٌ فِي الْقصاص، والعفو أقرب للتقوى، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن أخذت أخذت بحق، وإن عفوت عفوت بفضل، ولقد حضرت أبي - وهو جدك - أتي برجل كان جرمه أعظم من جرمي، فأمر الخليفة بقتله وعنده المبارك بن فضالة، فقال المبارك بن فضالة: إن رأي أمير المؤمنين أن يستأني في أمر هذا الرجل، حتّى أحدثه بحديث سمعته من الحسن يحدث به عن رسول الله ﷺ؟

قال: إيه يا مبارك، قال: حدثني الحسن: أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ مِنْ بَطْنَانِ الْعَرْشِ: أَلَا لِيَقُمَ الْعَافُونَ مِنَ الْخُلَفَاءِ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا».

فقال الخليفة له: يا مبارك، قد قبلت الحديث، وعفوت عنه، اخرج أيها الرجل، فلا سبيل لأحد عليك، فقال المأمون: يا عم هاهنا، يا عم هاهنا.

قال أبو حاتم رحمه الله: الواجب على مَنْ قُلِدَّ أمور المسلمين الرجوع إلى الله -جل وعلا- في كل لحظة وطرفة؛ لئلا يطغيه ما هو فيه من تسلطه، بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه، وأنه هو المنتقم ممن ظلم، والمجازي لمن أحسن، فليلزم في إمرته السلوك الذي يؤديه إلى اكتساب الخير في الدارين، وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله؛ فإنه لا محالة مسئول عن شكر ما هو فيه، كما هو لا محالة مسئول عن حسابه؛ إذ المصطفى ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَمْ أَحْمِلْكَ عَلَى الْخَيْرِ، وَرَزَقْتُكَ النِّسَاءَ، وَجَعَلْتُكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعٍ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ».

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

يُدَبِّرُ أَسْبَابَ الرَّجَالِ مُؤَمَّرٌ إِذَا صَلَحَتْ فِي الصَّدْرِ أَشْفَى وَأَبِينُ
مِنَ الْعَقْلِ أَنْ تَحْتَاطَ فِيمَا وَلِيَتْهُ وَتَحْسِمُ مَا تَخْشَاهُ وَالْأَمْرُ مُمَكِّنُ

ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها

حدثنا مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد السلام، حدثنا عبد الله بن هانئ بن عبد الرحمن بن أبي عتبة، حدثنا أَبِي، عن عمه إبراهيم بن أبي عتبة، عن أم الدرداء، عن أَبِي الدرداء رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، آمِنًا فِي سِرِّهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا، يَا ابْنَ جُعْشَمٍ، يَكْفِيكَ مِنْهَا مَا سَدَّ جَوْعَتَكَ، وَوَارَى عَوْرَتَكَ، فَإِنْ يَكُنْ ثَوْبًا تَلْبِسُهُ فَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً تَرْكَبُهَا فَبَيْحٌ فَلَقَّ الْخَبِرَ، وَمَاءُ الْحَبِّ، وَمَا فَوْقَ الْإِزَارِ حِسَابٌ عَلَيْكَ».

قال أبو حاتم رحمته الله: الواجب على العاقل ألا يغتر بالدنيا وزهرتها، وحسنها وبهجتها، فيشتغل بها عن الآخرة الباقية، والنعم الدائمة، بل ينزلها حيث أنزلها الله؛ لأن عاقبتها لا محالة تصير إلى فناء، يخرب عمرانها، ويموت سكانها، وتذهب بهجتها، وتبيد خضرتها، فلا يبقى رئيس متكبر مؤمّر، ولا فقير مسكين مُحْتَقَر، إلا ويجري عليهم كأس المنيا، ثم يصيرون إلى التراب، فيبلون حتّى يرجعوا إلى ما كانوا عليه في البداية إلى الفناء، ثم يرث الأرض ومن عليها علام الغيوب.

فالعاقل لا يركن إلى دار هذا نعتها، ولا يطمئن إلى دنيا هذه صفتها، وقد أدخر له ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيضن بترك هذا القليل، ويرضى بفوت ذلك الكثير.

حدثنا مُحَمَّد بن المسيب بن إسحاق، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي قال: سمعت بشر بن الحارث يقول:

لَا تَأْسَ فِي الدُّنْيَا عَلَى فَائِثٍ وَعِنْدَكَ الْإِسْلَامُ وَالْعَافِيَةُ
إِنْ فَاتَ أَمْرٌ كُنْتَ تَسْعَى لَهُ فَفِيهِمَا مَنْ فَائِثٌ كَافِيُهُ

وأنشدني الكريزي، أنشدني شعيب بن أحمد لسليمان بن يزيد العدوي:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ يُودِي شَبَابُهُ وَأَنَّ الْمَنَايَا لِلرَّجَالِ تَشَعَّبُ
فَمِنْ ذَاتِكَ كَأْسًا مِنَ الْمَوْتِ مُرَّةً وَآخَرَ أُخْرَى مِثْلَهَا يَتَرَقَّبُ
لَهَا مِنْهُمْ زَادٌ حَيْثُ وَسَائِقُ وَكُلُّ بِكَأْسٍ الْمَوْتِ يَوْمًا سَيَشْرَبُ
وَمَا وَارِثٌ إِلَّا سَيُورِثُ مَالُهُ وَلَا سَالِبٌ إِلَّا وَشِيكََا سَيُسْلَبُ
وَلَا أَلْفٌ إِلَّا سَيَتَّبِعُ الْفَهْ وَلَا نِعْمَةٌ إِلَّا تَبِيدُ وَتَذْهَبُ
وَمَا مِنْ مُعَافَىٍّ وَالْمَصَائِبُ جَمَّةٌ يُعَاوِرُهَا الْعَصْرَانِ إِلَّا سَيَعْطَبُ

أَرَى النَّاسَ أَضْيَافًا أَقَامُوا بِغُرْبَةٍ
 بِدَارٍ غُرُورٍ حُلُوءٍ يَغْمُرُونَهَا
 يَنْدُمُونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا
 تَسْرُهُمْ طَوْرًا وَطَوْرًا تُذِيقُهُمْ
 تُقَلِّبُهُمْ أَيَّامُهَا وَتَقَلِّبُوا
 وَقَدْ عَايَنُوا فِيهَا زَوَالًا وَجَرَّبُوا
 فَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا تُذَمُّ وَتُحْلَبُ
 مَضِضٌ مَكَوٍ حَرُّهَا يَتَلَهَّبُ

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا عبيد الله بن محمد العيشي
 قال: عاد رجل مريضًا فسمع قائلًا يقول من ناحية البيت:

نَادِ رَبَّ الدَّارِ ذَا الْمَالِ الَّذِي
 جَمَعَ الدُّنْيَا بِحِرْصٍ: مَا فَعَلَ؟
 فَأَجَابَهُ مُجِيبٌ:

كَانَ فِي دَارٍ سِوَاهَا دَارُهُ
 لَمْ يَمْتَعْ بِالَّذِي كَانَ حَوَى
 إِنَّمَا الدُّنْيَا كَظِلٍّ زَائِلٍ
 عَلَّلَتْهُ بِالْمَنَى ثُمَّ انْتَقَلَ
 مِنْ حُطَامِ الْمَالِ إِذْ حَلَّ الْأَجَلَ
 طَلَعَتْ شَمْسٌ عَلَيْهِ فَاضْمَحَلَّ

قال أبو حاتم رحمته الله: رأيت على حجر بطبرستان مكتوب:

الْعَيْشُ لَوْنَانٍ: فَحُلُوٌّ وَمُرٌّ
 وَالنُّطْقُ جُزْآنٍ: فَبَعْرٌ وَدُرٌّ
 يَوْمُكَ يَوْمَانٍ: فَخَيْرٌ وَشَرٌّ
 كَذَاكَ الزَّمَانُ عَلَى مَنْ مَضَى
 وَالْدَّهْرُ نِصْفَانٍ: فَرِيفٌ وَضُرٌّ
 وَالنَّاسُ اثْنَانٍ: فَنَذْلٌ وَخُرٌّ
 نَهَارٌ يَزُولُ وَلَيْلٌ يَكْرُ
 وَكُلُّ السِّنِّينَ عَلَى ذَا تَمُرٍّ

وَأَنشَدَنِي الْأَبْرَشُ:

إِنَّمَا الدُّنْيَا نَهَارٌ
 بَيْنَمَا غَضَضْنَا غَضًّا
 ضَوْوُهَا ضَوْءٌ مُعَارٌ
 نَاعِمٌ فِيهِ اخْضِرَارٌ

إِذْ رَمَاهُ زُمْنَاهُ
وَكَذَلِكَ اللَّيْلُ يَأْتِي

وَأُنْشِدُنِي ابْنَ زَنْجِي الْبَغْدَادِي:

يَا لَائِمَ الدَّهْرِ إِذَا مَا نَبَا
الدَّهْرُ مَا مُورٌ لَهُ أَمْرٌ
كَمْ كَافِرٍ بِاللهِ أَمْوَالُهُ
وَمُؤْمِنٌ لَيْسَ لَهُ دِرْهَمٌ
لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ عَاقِلًا

وَأُنْشِدُنِي الْكَرِيزِي:

مَا الدَّهْرُ إِلَّا لَيْلَةٌ وَيَوْمٌ
يَعِيشُ قَوْمٌ وَيَمُوتُ قَوْمٌ
وَالْعَيْشُ إِلَّا يَقْظَةٌ وَنَوْمٌ
وَالدَّهْرُ قَاضٍ مَا عَلَيْهِ لَوْمٌ

أُنْبَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ سَلَمٍ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْخَوَارِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَوْصِلِي قَالَ: قَالَ أَبُو حَازِمٍ: بِضَاعَةُ الْآخِرَةِ كَاسِدَةٌ، فَاسْتَكْثَرَ مِنْهَا فِي أَوَانٍ كَسَادَهَا؛ فَإِنَّهُ لَوْ جَاءَ أَوَانٌ نَفَاقَهَا لَمْ تَصِلْ مِنْهَا لَا إِلَى قَلِيلٍ وَلَا إِلَى كَثِيرٍ.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رحمته الله: الدُّنْيَا بَحْرٌ طَفَّاحٌ، وَالنَّاسُ فِي أَمْوَاجِهَا يَعُومُونَ، وَفِي أَمْثَالِهَا تَضْرِبُهَا الْأَيَّامُ لِلْأَنَامِ -وَمَا أَكْثَرَ أَشْبَاهَهَا مِنْهَا- لِأَنَّ كُلَّ مَا يَصِيرُ إِلَى فَنَاءٍ مِنْهَا يَشْبِهُهَا، فَمَنْ أُوتِيَ مِنَ الدُّنْيَا أَشْيَاءَ ثَلَاثَةَ فَقَدْ أُوتِيَ الدُّنْيَا بِحَذَائِفِهَا: الْأَمْنُ، وَالْقُوَّةُ، وَالصَّحَّةُ، لَا يَغْتَرُّ بِشَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا كُلُّ خَدَاعٍ، وَلَا يَرْكُنُ إِلَيْهَا إِلَّا كُلُّ مَنَاعٍ.

فَالْعَاقِلُ يَعْلَمُ أَنَّ مَا لَمْ يَبْقَ لغيره عَلَيْهِ غَيْرُ بَاقٍ، وَأَنَّ مَا سَلَبَ عَنْ غَيْرِهِ لَا يَتْرُكُ

عليه، فالقصد إلى ما يعود بالنفع في الآخرة للعاقل في الدنيا أحرى من السلوك في قصد الضن بها، والجمع لها من غير تقديم ما يقدم عليه في الآخرة من الأعمال الصالحة، وترك الاغترار بها، والاعتبار بتقلبها بأهلها، ولا شيء أعظم خطرًا من الحياة، ولا غبن أعظم من إفنائها لغير حياة الأبد، ومن اشتهى أن يكون حرًا فليجتنب الشهوات، وإن كانت لذیذة، وليعلم أن كل لذیذ ليس بنافع، ولكن كل نافع هو اللذیذ، وكل الشهوات مملولة إلا الأرباح فإنها لا تمل، وأعظم الأرباح الجنة، والاستغناء بالله عن الناس.

ولقد أنشدني علي بن مُحَمَّد البسامي:

فَأَعْظَمُ بِصَبْرٍ لِلزَّمَانِ فَإِنَّهُ عَلَى حَالَةِ الْمَكْرُوهِ لَيْسَ بِدَائِمٍ
تَدُورُ لَنَا أَفْلَاكُهُ بِعَجَائِبٍ إِذَا مَا انْقَضَتْ كَانَتْ كَأَحْلَامٍ نَائِمٍ
سُرُورٌ وَهُمْ وَأَنْتِعَاشٌ وَسَقَطَةٌ إِلَى أَجَلٍ دَانٍ لِذَلِكَ هَادِمٍ
وَبِاللَّهِ دُونَ النَّاسِ فَاسْتَعْنِ وَاسْتَعِنِ إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى الْأُمُورِ الْعَظَائِمِ

وأنشدني مُحَمَّد بن إسحاق الواسطي:

وَالنَّاسُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى رُتَبٍ هَذَا يُحَاطُ وَذَا يُعْلَوُ فَيَرْتَفِعُ
فَأَخْلِصِ الشُّكْرَ فِيمَا قَدْ حُبِبَتْ بِهِ وَآثِرِ الصَّبْرَ كُلُّ سَوْفَ يَنْقَطِعُ
وأنشدني المتصر بن بلال:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمًا نَسَاءُ وَيَوْمًا نُسَرُ
كَذَاكَ التَّقَارُضُ بَيْنَ الْأَنَامِ فَخَيْرٌ بِخَيْرٍ وَشَرٌّ بِشَرٍّ

أنبأنا مُحَمَّد بن عبد الله بن الجنيد، حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله، عن عبد الله، عن مسعر، عن مَعْن عن عون قال: كم من مستقبل يومًا لا يستكملها، ومنتظر غدًا لا يدركه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره.

قال أبو حاتم رحمه الله: السبب المؤدي للعاقل إلى إنزاله الدنيا منزلتها؛ ترك الركون إليها مع تقديم ما قَدَرَ منها للعيش الدائم، والنعيم المقيم هو ترك طول الأمل، ومراقبة ورود الموت عليه في كل لحظة وطرفة؛ لأن طول الآمال قطعت أعناق الرجال، كالسراب أخلف من رجاءه، وخاب من رآه.

فالعاقل يلزم تركها، مع الاعتبار الدائم بمن مضى من الأمم السالفة والقرون الماضية، كيف عَفَتْ آثارهم، واضمحلت أنباؤهم، فما بقي منهم إلا الذكر، ولا من ديارهم إلا الرسم، فسيحان من هو قادر على بعثهم وجمعهم للجزاء والعقاب!!

ولقد أنشدنا عمرو بن مُحمَّد، قال: أنشدنا الغلابي قال: أنشدني مهدي بن

سابق:

كُنَّا عَلَى ظَهْرِهَا وَالْعَيْشُ ذُو مَهْلٍ	وَالدَّهْرُ يَجْمَعُنَا وَالِدَارُ وَالْوَطَنُ
فَفَرَّقَ الدَّهْرُ ذُو التَّصْرِيفِ أَلْفَتَنَا	فَالْيَوْمَ يَجْمَعُنَا فِي بَطْنِهَا الْكَفَنُ
كَذَلِكَ الدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى أَحَدٍ	تَأْتِي بِأَقْدَارِهِ الْأَيَّامُ وَالرَّزْمُنُ

وأنشدني مُحمَّد بن عبد الله البغدادي:

حَتَّى مَتَى يَبْقَى حَلِيفُ الْأَسَى	مُسْتَشْعِرًا لِلدَّهْرِ أَحْزَانَا
فَلَا يَرُدُّ الْحُزْنَ شَيْئًا وَلَا	يُعْتِبُ هَذَا الدَّهْرُ إِنْسَانَا
قَدْ يُقْبِلُ الدَّهْرُ بِسَرَّائِهِ	طَوْرًا وَقَدْ يُذْبِرُ أَحْيَانَا
فَاصْبِرْ عَلَى مَا جَرَّ مِنْ حَادِثٍ	مَا زَالَ غَدَارًا وَخَوَانَا
وَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِمَنْ لَمْ يَزَلْ	عَلَيْكَ مِفْضَالًا وَمَنَانَا

وأنشدني عمرو بن مُحمَّد قال: أنشدنا الغلابي لابن أبي عيينة المهلي:

مَا رَاحَ يَوْمٌ عَلَى حَيٍّ وَلَا ابْتَكَّرَا	إِلَّا رَأَى عِبْرَةً فِيهِ إِنْ اعْتَبَرَا
--	---

وَلَا أَتَتْ سَاعَةً فِي الدَّهْرِ فَانْصَرَفَتْ حَتَّى تُؤَثَّرَ فِي قَوْمٍ لَهَا غَيْرَا
إِنَّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامَ أَنْفَسَهَا عَنْ غَيْبِ أَنْفُسِهَا لَمْ تَكُنَّ الْخَبْرَا

أنبأنا علي بن سعيد العسكري، حدثنا إبراهيم بن الجعيد، حدثنا الحسن بن سعيد الجرجاني قال: سمعت أبا مريم الصلت بن حُكيم يقول: كانت امرأة من بني إسرائيل مُتَعَبِّدَةً، وكانت تفطر كل سبت، فبينما هي ذات يوم قد وضعت إفطارها بين يديها جعلت تقول: مُحِبُّ يُحِبُّ حَبِيبَهُ يَتَشَاغَلُ بِالْأَكْلِ عَنْ خِدْمَةِ مُحِبِّهِ، فيوشك أن يقدم عليه رسول حبيبهِ وهو متشاغل بأكلهِ عن خدمته، فلا تَقَرُّ عينه بِلِقَائِهِ، فمكثت كذلك مدة لا تفطر.

قال: ثُمَّ وضعت إفطارها بين يديها، وجعلت تقول مثل ما كانت تقول، وإذا شابُّ من ناحية البيت جميل الوجه طيب الريح، فقال: سلام عليك ورحمة الله يا حبيبة الله، أو يا ولية الله، قالت: وعليك السلام، من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، قالت: يا ملك الموت، أتأذن لي أن أسجد سجدة أناجي فيها ربِّي، فإذا رأيَتنِي قد فعلت ذلك قبضت رُوحِي؟ قال: لك ذلك.

فَنَحَّتْ إفطارها، ثُمَّ وثبت فسجدت، فقبض رُوحها في اجتِهادها ﷺ.. وبالله التوفيق.

ذِكْرُ الْحَثِّ عَلَى لُزُومِ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَتَقْدِيمِ الطَّاعَاتِ

حدثنا عبد الله بن محمود بن سليمان السعدي، حدثنا يَحْيَى بن أَكْثَمٍ ومحمود ابن غيلان قالَا: حدثنا الفضل بن موسى، عن مُحَمَّد بن عمرو، عن أَبِي سلمة، عن أَبِي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ: الْمَوْتِ».

قال أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل أن يضم إلى رعاية ما ذكرنا من شُعَبِ الْعَقْلِ فِي كِتَابِنَا هَذَا لُزُومَ ذِكْرِ الْمَوْتِ عَلَى الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا، وَتَرْكَ الْإِغْتِرَارِ بِالْدُّنْيَا فِي الْأَسْبَابِ كُلِّهَا؛ إِذِ الْمَوْتُ رَحَى دَوَارَةِ بَيْنِ الْخَلْقِ، وَكَأْسٌ يَدَارُ بِهَا

عليهم، لا بد لكل ذي روح أن يشربها ويذوق طعمها، وهو: هاذم اللذات، ومنغص الشهوات، ومكدر الأوقات، ومزيل العاهات:

ولقد أنشدني عبد العزيز بن سليمان:

أَيَا هَازِمِ اللَّذَاتِ مَا مِنْكَ مَهْرَبٌ تُحَاذِرُ نَفْسِي مِنْكَ مَا سَيْصِيْبُهَا
رَأَيْتُ الْمَنَايَا قُسِّمَتْ بَيْنَ أَنْفُسٍ وَنَفْسِي سَيَأْتِي بَعْدَهُنَّ نَصِيْبُهَا
وأنشدني الكريزي:

إِنْ مَنْ عَاشَ آمِنًا فِي سُرُورٍ قَاعِدٌ مِنْ سُرُورِهِ فِي غُرُورٍ
مَا لِمَنْ يَذْكُرُ الْمَقَابِرَ وَالْمَوْتَ تَ إِذَا كَانَ عَاقِلًا مِنْ سُرُورٍ
حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا مهدي بن سابق قال: قرئ على قصر هذه الأبيات.

هَذِي مَنَازِلُ أَقْوَامٍ عَهِدَتْهُمْ فِي ظِلِّ عَيْشٍ عَجِيبٍ مَا لَهُ خَطَرُ
صَاحَتْ بِهِمْ حَادِثَاتُ الدَّهْرِ إِلَى الْقُبُورِ فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَنْزَرُ
حدثنا مُحمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد، حدثني إبراهيم ابن عبد الملك، حدثني علي بن سلمة الحلبي قال: سمعت أبي يقول: كان معاوية يقول: «أنا والله من زرع قد استُحصِدَ». ونُعي له عبد الله بن عامر بن كريز، والوليد بن عقبة، وكان أحدهما أكبر منه، والآخر دونه، فقال:

إِذَا سَارَ مِنْ خَلْفِ امْرِئٍ وَأَمَامَهُ وَأَفْرَدَ مِنْ إِخْوَانِهِ فَهُوَ سَائِرُ
حدثنا أحمد بن مُحمَّد الشافعي، حدثنا عبد الله بن مُحمَّد قال: سمعت عبد الله بن مسلم بن زياد الهمداني قال: سمعت عمر بن ذر يقول: ورث فتى من الحي دارًا عن آبائه وأجداده فهدمها، ثم ابتناها وشيدها، فأُتي في منامه فقيل له: إِنَّ كُنْتَ تَطْمَعُ فِي الْحَيَاةِ فَقَدْ تَرَى أَرْيَابَ دَارِكَ سَاكِنُوا الْأَمْوَاتَ

أَنْتَى تُحَسُّ مِنَ الْأَكَارِمِ ذِكْرَهُمْ خَلَّتِ الدِّيَارُ وَبَادَتِ الْأَصْوَاتُ
قال: فأصبح الفتى مُتَعَطِّاً قد أمسك عن كثيرٍ ممَّا كان يصنع، وأقبل على نفسه.

حدثنا عمر بن حفص البزاز، حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا جعفر بن عون قال: سمعت مسعراً يقول:

وَمُشِيدٌ دَارًا لِيَسْكُنَ دَارُهُ سَكَنَ الْقُبُورِ وَدَارُهُ لَمْ يَسْكُنِ
وَأُنْشِدُنِي ابْنَ زَنْجِي الْبَغْدَادِي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَوْ أَنَّ نِيَّيَ أُعْطِيَ سُؤْلِي لَمَّا سَأَلْتُ إِلَّا الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ
فَكَمْ فَتًى قَذَبَتْ فِي نِعْمَةٍ فَسَلَّ مِنْهَا اللَّيْلَةَ الثَّانِيَةَ

حدثنا حمزة بن داود بن سليمان بـ«الأُبْلَّة»، حدثنا ذهل بن أبي شراعة القيسي، قال: حدثني سُكَيْنَةُ -وكانت علامة- قالت: قال لي أبو العتاهية: دخلت على هارون أمير المؤمنين، فلما بصر بي قال: أبو العتاهية؟ قلت: أبو العتاهية، قال: الذي يقول الشعر؟ قلت: الذي يقول الشعر. قال: عطني أبيات شعر، وأوجز. فأنشدته:

لَا تَأْمَنِ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ وَلَوْ تَمَنَّعَتْ بِالْحُجَّابِ وَالْحَرَسِ
وَأَعْلَمَ بِأَنَّ سِهَامَ الْمَوْتِ قَاصِدَةٌ لِكُلِّ مُدَّرِعٍ مِنَّا وَمُتَّرِسٍ
تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكِ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ

قال: فخرَّ مغشياً عليه، أو كما قال.

حدثني عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا أبو جعفر البغدادي قال:

قرأت على باب قصر بالسند:

نَزَلَ الْمَوْتُ مَنْزِلًا سَلَبَ الْقَوْمَ وَارْتَحَلَ

فقلت: ما هذا؟ فقالوا: مات أهل القصر كلهم، فأصبحوا وهذا الكتاب على الباب لا يُدرى من كتبه.

وأنشدني البسامي:

قَدْ يَصِحُّ الْمَرِيضُ بَعْدَ إِيَّاسٍ كَانَ مِنْهُ وَيَهْلِكُ الْعُودُ
يُصَادُ الْقَطَا فَيَنْجُو سَلِيمًا بَعْدَ هُلُكٍ وَيَهْلِكُ الصَّيَّادُ

قال أبو حاتم رحمته الله: العاقل لا ينسى ذكر شيء هو مترقب له، ومنتظر وقوعه من قدم إلى قدم، ومن لحظة إلى شزرة، فكم من مكرّم في أهله، معظم في قومه، مبجل في جبرته، لا يخاف الضيق في المعيشة، ولا الصنك في المصيبة؛ إذ ورد عليه مُذِلُّ الملوك، وقاهر الجبابرة، وقاصم الطغاة، فألقاه صريعاً بين الأحبة وجيرانه، مفارقاً لأهل بيته وإخوانه، لا يملكون له نفعاً، ولا يستطيعون عنه دفعاً. فكم من أمة قد أبادها الموت، وبلدة قد عطلها، وذات بعل قد أرملها، وذو أب أيتمه، وذو إخوة أفرده.

فالعاقل لا يغتر بحالة نهايتها تؤدي إلى ما قلنا، ولا يركن إلى عيش مغيبته ما ذكرنا، ولا ينسى حالة - لا محالة - هو مُوَاقِعُها، وما لا شك يأتيه؛ إذ الموت طالب لا يُعجزه المقيم، ولا ينفلت منه الهارب.

ولقد حدثنا مُحَمَّد بن إبراهيم الخالدي، حدثنا عبد الله بن مُحَمَّد، حدثني سلمة بن شبيب، حدثنا سهل بن عاصم قال: سمعت الوضاح بن حسان يقول: سمعت ابن السماك يحدث قال: بينما صياد في الدهر الأول يصطاد السمك؛ إذ رمى بشبكة في البحر، فخرج فيها جمجمة إنسان، فجعل الصياد ينظر إليها ويبكي، ويقول: عزيز! فلم تُترك لعزك، غني! فلم تُترك لغناك، فقير! فلم تترك لفقرك، جواد! فلم تترك لجودك، شديد فلم تترك لشدتك، عالم فلم تترك

لعلكم، يردد هذا الكلام ويبيكي.

وأنشدني الكريزي:

أَمْوَالَنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا وَدُورَنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا
وَالنَّفْسُ تَكْلَفُ بِالدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ السَّلَامَةَ فِيهَا تَزْكُ مَا فِيهَا
فَلَا الْإِقَامَةُ تُنْجِي النَّفْسَ مِنْ تَلَفٍ وَلَا الْفِرَارُ مِنَ الْأَحْدَاثِ يُنْجِيهَا
وَكُلُّ نَفْسٍ لَهَا زَوْرٌ يُصَبِّحُهَا مِنَ الْمَنِيَّةِ يَوْمًا أَوْ يُمْسِيهَا

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي قال: سمعت شعيب بن واقد المري قال: حدثنا عبد المنعم الرياحي قال: فُقِدَ مالُكُ بن دينار يومًا، فقالوا: أين كنت يا أبا يحيى؟ قال: خرجت إلى الأُبُلَّةَ، قالوا: ما أحسن ما رأيت؟ قال: ما رأيت شيئًا أعجبتُ به إلا أنِّي رأيت امرأةً تصلي، فقالوا له: يا أبا يحيى، فما أعجبتُ شيءً رأيت؟ قال: رأيت بالبحرين قصرًا مشيدًا، وإذا على بابه مكتوب:

طَلَبْتُ الْعَيْشَ أَسْعَدَ نَاعِمِيهِ وَعِشْتُ مِنَ الْمَعَايِشِ وَالنَّعِيمِ
فَلَمْ أَلْبَثْ وَرَبَّ النَّاسِ طَوْرًا سُلِبْتُ مِنَ الْأَقَارِبِ وَالْحَمِيمِ
وأنشدني الأبرش:

وَلِلنَّفُوسِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى وَجَلٍ مِنَ الْمَنِيَّةِ آمَالٌ تُقَوِّيهَا
وَالْمَرْءُ يَبْسُطُهَا وَالدهْرُ يَقْبِضُهَا وَالنَّفْسُ تَنْشُرُهَا وَالْمَوْتُ يَطْوِيهَا

أنبأنا حمزة بن داود بن سليمان بـ«الأُبلة»، حدثنا الهداذي، حدثنا حلبس الكلبي، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قال: لقيني عمران بن حطان فقال لي: يا أعمى، إنني عالم بخلافك، ولكنك رجل تحفظ، فاحفظ عني هذه الأبيات:

حَتَّى مَتَى تُسْقَى النُّفُوسُ بِكَأْسِهَا رَبِّبَ الْمَنُونِ وَأَنْتَ لَاهٍ تَزْرَعُ

أَفَقَدْ رَضِيتَ بِأَنْ تُعَلَّلَ بِالْمُنَى وَإِلَى الْمَنِيِّ كُلَّ يَوْمٍ تُدْفَعُ
أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلِّ زَائِلٍ إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ
فَتَزَوَّدَنَّ لِيَوْمٍ فَقْرِكَ دَائِبًا وَاجْمَعْ لِنَفْسِكَ لَا لِغَيْرِكَ تَجْمَعُ

حدثنا مُحَمَّد بن نصر بن نوفل المروزي قال: سمعت أبا داود السنجي يقول: خرج أبو معاذ النحوي يومًا مع أصحابه فقال: إنه قد نُعِيَتْ إِلَيَّ نفسي البارحة، أتاني آتٍ فقال:

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ مَيِّتٌ عَمَّا قَلِيلٍ قُمْ لِنَفْسِكَ وَاقْعُدِ
فَكَأَنَّ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكُ إِذْ مَضَى وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ فَكَأَنَّ قَدْ

حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا حرمة بن يحيى قال: سمعت الشافعي كثيرًا ما يُنشد:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أُمْتُ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ
فَقُلْ لِلَّذِي يَنْبَغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَدْ

حدثنا أحمد بن مُحَمَّد الشافعي، حدثنا عبد الله بن مُحَمَّد، حدثني إسماعيل ابن عبد الله العجلي قال: أنشدنا رجل - ونحن في المقابر -:

أَلَا يَاعَسْكَرَ الْأَخْيَا هَذَا عَسْكَرُ الْمَوْتَى
أَجَابُوا الدَّعْوَةَ الصَّغْرَى وَهُمْ مُنْتَظَرُو الْكُبْرَى
يَحُثُّونَ عَلَى الزَّادِ وَمَا زَادَ سِوَى التَّقْوَى
يَقُولُونَ لَكُمْ: جِدُّوا فَهَذَا آخِرُ الدُّنْيَا

قال أبو حاتم رحمه الله: إن الله - جل وعلا - خلق آدم وذريته من الأرض، فأمشاهم على ظهرها، فأكلوا من ثمارها، وشربوا من أنهارها، ثم لا محالة تنزل

المنية بهم، وتغنيهم عن السعي والحركات، مع تعطل الجثث والآلات، ثُمَّ تَعِيدُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي مِنْهَا خَلَقَهُمْ، حَتَّى تَأْكُلَ لَحُومَهُمْ، كَمَا أَكَلُوا أَثْمَارَهَا، وَتَشْرَبَ دِمَاءَهُمْ كَمَا شَرَبُوا مِنْ أَنْهَارِهَا، وَتَقْطَعَ أَوْصَالَهُمْ كَمَا مَشَوْا عَلَى ظَهْرِهَا.

فالقبر أول منزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبى لمن مهَّد في دنياه لقبره، وقدم منها لآخِرته، فكم عَفَّرَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزٍ، وَأَفْقَدَتِ الْغَيْرَ مِنْ أَنْيْسٍ.

حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَالِدِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّاسٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَزِيدَ قَالَ: رَأَيْتُ أَعْرَابِيًّا وَقَفَ عَلَى مَقْبَرَةٍ وَهُوَ يَقُولُ:

لِكُلِّ أَنْاسٍ مَقْبَرٌ بِفَنَائِهِمْ فَهُمْ يَنْقُصُونَ وَالْقُبُورُ تَزِيدُ
وَمَا إِنْ تَرَى دَارًا لِحَيٍّ قَدْ أَفْقَرَتْ وَقَبْرًا لِمَيِّتٍ بِالْفَنَاءِ جَدِيدُ
فَهُمْ جِيزَةُ الْأَحْيَاءِ أَمَّا مَحَلُّهُمْ فَدَانٍ وَأَمَّا الْمُلْتَقَى فَبَعِيدُ

أَنشَدَنِي أَبُو غَسَّانٍ سَلَمَةُ بْنُ نَصْرٍ لَابِنِ الزَّخَامِيِّ:

إِذَا مَا أَتَتْ لِلْمَرْءِ سَبْعُونَ وَارْتَفَعَتْ عَلَيْهِ مَعَ السَّبْعِينَ عَشْرُ كَوَامِلُ
وَمَا صَاحِبُ السَّبْعِينَ وَالْعَشْرِ بَعْدَهَا بِأَخَوْفَ مِمَّنْ حَنَكْتَهُ الْقَوَائِلُ
وَيَكُنَّ أَمَالًا يُؤْمَلُّهَا الْفَتَى وَفِيهِنَّ لِلرَّاجِينَ حَقٌّ وَبَاطِلُ

وَأَنشَدَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْكَرْجِيُّ لِعَمْرِ بْنِ شَبَّةٍ فِي نَفْسِهِ:

يَا ابْنَ سَبْعِينَ وَعَشْرٍ وَثَمَّانٍ كَوَامِلَاتِ
غَرَضًا لِلْمَوْتِ مَشْغُوفُ لَا بُخْذَ مِنِّي وَهَاتِ
وَيْكَ لَا تَعْلَمُ مَا تُلْ قَى بِهِ بَعْدَ الْمَمَاتِ
مِنْ صِغَارٍ مُوَبِقَاتِ وَكِبَارٍ مُهْلِكَاتِ

يَا ابْنَ مَنْ قَدْ مَاتَ ———— مِنْ آبَائِهِ وَالْأُمَّهَاتِ
هَلْ تَرَى مِنْ خَالِدٍ ———— مِنْ ذِي طُغْيَاةٍ وَعُتَاةٍ
إِنَّ مَنْ يَتَعَاطَى بِالْأَيْدِي ———— خَسِيسَاتِ الْحَيَاةِ
لَغَيْبِي الرَّأْيِ مُحْفٌ ———— وَفُ بَطُولِ الْحَسَرَاتِ

حدثنا عمرو بن مُحمَّد، حدثنا الغلابي، حدثنا شعيب بن واقد المري، عن عبد
المنعم الرياحي قال: سمعت صالحًا المري يقول: دخلت المقابر يومًا في شدة الحر
فنظرت إلى القبور خامة، كأنهم قوم صموت، فقلت: يا سبحان الله! من يجمع بين
أرواحكم وأجسامكم بعد افتراقها، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ وَيُنْشِئُكُمْ مِنْ طُولِ الْبَلَى؟ قال: فناداني
منادٍ من بين الحُفَرِ: يا صالح ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]. قال: فسقطتُ والله مغشيًا عليّ.

الخاتمة

قال أبو حاتم رحمه الله: قد ذكرنا اليسير من الكثير من الآثار، والقليل من الجسيم من الأخبار في كتابنا هذا؛ بما نرجو أن القاصد إلى سلوك سبيل ذوي الحجى، والسالك مقصد سبيل أولي النهى، يكون له فيها غنية إن تدبرها واستعملها، وإن كنا تنكبنا طرق المسانيد، وتخرج الحكايات، وأنشيد الأشعار، إلا ما لم نجد بداً من إخراجها، كالإيماء إلى الشيء، والإشارة إلى القصد.

جعلنا الله ممن دعت تباشير التوفيق إلى القيام بحقائق التحقيق. إنه منتهى الغاية عند رجاء المؤمنين، والمأن على أوليائه بمنازل المقربين.

وصلّى الله على مُحَمَّد خاتم النبيين، وعلى آله الطاهرين الطيبين، وسلم تسليمًا كثيرًا مباركًا فيه والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

- ٥..... سند الكتاب إلى مؤلفه
- ٦..... مقدمة الإمام ابن حبان
- ٧..... الحث على لزوم العقل وصفة العاقل اللبيب
- ١٧..... ذكر إصلاح السرائر بلزوم تقوى الله ﷻ
- ٢٤..... ذكر الحث على لزوم العلم والمداومة على طلبه
- ٣٢..... ذكر الحث على لزوم الصمت وحفظ اللسان
- ٤٢..... ذكر الحث على لزوم الصدق ومجانبة الكذب
- ٤٧..... ذكر الحث على لزوم الحياء وترك القحّة
- ٥٠..... ذكر الحث على لزوم التواضع ومجانبة الكبر
- ٥٥..... ذكر استحباب التحجب إلى الناس من غير مقارفة المأثم
- ٦٠..... ذكر استحباب لزوم المُدَاراة وترك المُدَاهنة مع الناس
- ٦٤..... ذكر استحباب إفشاء السلام وإظهار البشّر والتبسم
- ٦٧..... ذكر ما أبيح من المزاح للمرء وما كُره له منه
- ٧١..... ذكر استحباب الاعتزال من الناس عامًّا
- ٧٤..... ذكر استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاص
- ٨٢..... ذكر كراهية المعاداة للناس
- ٨٧..... ذكر الحث على صحبة الأخيار والزجر عن عشرة الأشرار

- ٩٠ ذكر كراهية التلون في الوداد بين المتآخين
- ٩٥ ذكر ائتلاف الناس واختلافهم
- ١٠١ ذكر الحث على زيارة الإخوان وإكرامهم
- ١٠٥ ذكر صفة الأحق والجاهل معاً
- ١١١ ذكر الزجر عن التجسس وسوء الظن
- ١١٥ ذكر الحث على مُجانبة الحرص للعاقل
- ١٢٠ ذكر الزجر عن التحاسد والبغضاء
- ١٢٥ ذكر الحث على مُجانبة الغضب وكراهية العجلة
- ١٢٨ ذكر الزجر عن الطمع إلى الناس
- ١٣١ ذكر الحث على مُجانبة المسألة وكراهيتها
- ١٣٥ ذكر الحث على لزوم القناعة
- ١٤٠ ذكر الحث على لزوم التوكل على من ضمن الأرزاق
- ١٥٢ ذكر الحث على العفو عن الجاني
- ١٥٨ ذكر صفة الكريم واللئيم
- ١٦٢ ذكر الزجر عن قبول قول الوُشاة
- ١٦٩ ذكر استحباب قبول الاعتذار من المعتذر
- ١٧٤ ذكر الحث على لزوم كتمان السر
- ١٧٩ ذكر المشورة في أوقات الضرورة
- ١٨٣ ذكر الحث على لزوم النصيحة للمسلمين كافة
- ١٨٧ وصية الخطّاب بن المعلّى المخزومي ابنه

١٩٣	ذكر الزجر عن تهاجر المسلمين كافة
١٩٧	ذكر الحث على لزوم الحلم عند الأذى
٢٠٤	ذكر الحث على لزوم الرفق في الأمور وكراهية العجلة فيها
٢٠٨	ذكر الحث على تعلُّم الأدب ولزوم الفصاحة
٢١٣	ذكر إباحة جمع المال للقائم بحقوقه
٢١٨	ذكر الحث على إقامة المروءات
٢٢٤	ذكر الحث على لزوم السخاء ومُجانبة البخل
٢٣٢	ذكر الزجر عن ترك قبول الهدايا من الإخوان
٢٣٦	ذكر استحباب التفريغ عن الناس بقضاء الحوائج
٢٤٣	ذكر الحث على إعطاء السؤال وطلب المعالي
٢٤٩	ذكر الحث على الضيافة وإطعام الطعام
٢٥٤	ذكر الحث على المجازاة على الصنائع
٢٦٠	ذكر الحث على سياسة الرياسة ورعاية الرعية
٢٦٩	ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها
٢٧٥	ذكر الحث على لزوم ذكر الموت وتقديم الطاعات
٢٨٣	الخاتمة
٢٨٥	الفهرس

